معالم قرآنية في البناء

الإنسان والحياة

في وقفات مع آيات

أ.د. محمد أديب الصالح



العبيكان
Obeikan

الإنســـان والحيـــاة

في وقفاتٍ مع آيات

أ. د. محمد أديب الصالح



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب

الإنسان والحياة في وقفات مع آيات. / محمد أديب الصالح. - الرياض ١٤٢٧هـ

٤٧٤ ص؛ ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٥ - ٠٩٩ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٢٧ / ٥٣٨٩

رقم الإيداع: ١٤٢٧ / ٥٣٨٩

ردمـــــك: ٥ - ٠٩٩ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشـر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمــز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمــز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً، وكرهاً وظلالُهم بالغدوّ والآصال.

والحمد لله عالمِ الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المِحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون. وتبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، سبحانه من إله غفورٍ ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبدالله رحمة العالمين؛ مباركاً ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، نعم، ونزّله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين. ويسّره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لدّاً. حيث الغايةُ الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى القلوب ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله؛ أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدَع أن يبيِّن - وقد أوتي القرآن ومثله معه - ما يلزم بيانُه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

---

(١) (الدخان: ٥٨).
(٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار؛ أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدَّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمله للعالمين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد: فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلَّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النَّصَفة أوتي ولو أثارة من علم، لا يماري في أن من أجلِّ نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآنُ المجيد الذي أنزله الله على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالمه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لدّاً لعلهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلةَ التي لم يبلغها كتاب ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1]، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالمه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموّه أن الله تبارك وتعالى رقاه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدروا ولو تمالؤوا جميعاً على ذلك ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

---

(١) (الكهف: ١٠٩). (٢) (الإسراء: ٨٨).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرها علماً للعباد ونفعاً، وأجلَّها منزلة وقدراً ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾[1].

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلِّي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيغ به الأهواء ولا يخلق على كثرة الردِّ - أو عن كثرة الردِّ - ولا تنقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا ۝١ يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾[2] من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معالمه النورانية الخيرة، المكيِّ منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عمومُ هدايته.. نهجاً من البناء الحضاريِّ القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغَين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به، إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لربِّ العالمين، ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حقٌّ كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ۝١٠٥ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير﴾[4].

(١) (المائدة: ٤٨).
(٢) (الجن: ١ - ٢).
(٣) (الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦).
(٤) (فاطر: ٣١).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائناً ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، وماري السفهاء والملبِّسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجلّ شأن ربنا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزّها ثمرة مخالطةُ تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديّين إلى حيث السدادُ في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدَعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن، علّمني كلمات جوامعَ نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً.»[2] وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[3] ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

---

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٣٢ . «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥. «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٣٢ .

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢ .

فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[١]. ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرّف الله فيه دلائل الهدى ونوّعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمحة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التنويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة – البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقة الباقية إلى يوم الدين، وسداها ولحمتُها هديه الربانيّ وبناؤه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة – ناهيك عن البناء الحضاري القويم – قول الله تعالى في سورة الإسراء – وهي سورة مكية –: **﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾**[٢]، وأقوم من القَوام وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: **﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾**[٣]، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدّها، وأوضح السبل وأعدلها؛ فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسدُّ وأعدل

---

(١) «الربانيون قدوة وعمل» ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٣١ .
(٢) (الإسراء: ٩).
(٣) (الفرقان: ٦٧).

وأصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملّة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبنيٌّ على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[١]. أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعل التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل؛ فالمعنى: يهدي للتي هي قيِّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٢]، وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٣]، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمَل الهدى - كما يقول صاحب الظلال - أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق، وكلَّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة أو الطريقة، وأيَّما قدّرت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقَد مع إيضاحه».

وفي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموّ موضوعه عن القرآن ومعالمه الخيِّرة قليل قليل من كثير كثير،

(١) (فصلت: ٣٤). (٢) (البينة: ٥). (٣) (البينة: ٣).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة العجلى إلى أن الصفحات القادمات هنا ثمرةٌ من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، منَّ الله بها عليّ - وهو ذو الفضل العظيم - صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدُّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً - من خلال التدبّر المستطاع - على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدرَ الطاقة عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول - مع العقيدة والعبادة والأخلاق - شؤونَ الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيّرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فثمّ شرعُ الله ودينه.

واللهَ أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النيّر بجوهره وعطائه، المتواضع بتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعفو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين؛ أجمعين.

أ. د/ محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها في جامعة الإمام محمد بن سعود، وأستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق سابقاً

رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام

« ١ »

في ظلال شهر رمضان المبارك بأيامه المعدودات؛ الشهر الزاخر بالإحسان والعطاء، الوافر بالبر والنعماء ومنها العتق من النار.. شهر القرآن كتابِ الهداية والنور، شهر الصيام والقيام وليلة القدر.. شهر الجهاد الخالص قتالاً لأعداء الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وجهاداً للنفس بتزكيتها والتسامي بها إلى مراقبة مولاها، والأمانة في أداء الطاعة وصدق التوجه إلى بارئها الحكيم، شهر الارتفاع بالمؤمن إلى تربية الإرادة، وتصفية القلب من الأكدار، وتوكيد الأخوة الإيمانية، على ساحة سداها ولحمتها التقوى على نور من الله...

في ظلال تلك الأيام والليالي والساعات التي يقدرها حق قدرها الموفَّقون، يهفو قلب المؤمن إلى الاستنارة بواحد من المعالم القرآنية الذي تشرق به آيات الصيام في سورة البقرة وما فيه من كريم عطاء الله وفضله فيما شرع ويسَّر من أبواب الخير والقرب منه سبحانه لعباده المؤمنين.

ذلكم قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٦]. إلى آخر الآيات المباركات التي كلها بناء على الطاعة والتقوى، وحماية للبناء، وتزكية متجددة للأنفس عند من رزقوا أن يكونوا الترجمان العملي لهذا البناء القرآني.

وأود الإشارة إلى أني لست بسبيل أن أفسِّر هذه الآيات، ولكنني بسبيل التذكير بالقاعدة التي ينبثق منها خطاب التكليف بأحكام هذا الدين ـ ومنها أحكام الصيام ـ أعني قاعدة الإيمان.

فالمؤمن يخاطب بشرائع الإسلام بوصفه مؤمناً ـ ذكراً كان أو أنثى ـ متصفاً بأهلية التكليف.

وأنت واجد هنا ـ كما هو الأعم الأغلب في نصوص ذاك الخطاب ـ أن الآية الأولى من الآيات الآنفة الذكر: قد بدئت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكان ذلك سبيل إعلام المؤمنين بأن الله قد فرض عليهم صيام شهر رمضان ـ وهو ما قررته الكلمة القرآنية فيما بعد.

أجل بدئت بهذا النداء العلوي المثقل بالندى والحنان، الفيّاض بالود والرحمة، المشرق بنور الهداية والخير.

وإنه لنداء من شأنه أن يحرك في القلوب كوامن الحب لله ولرسوله، ويبعث كوامن اليقين ودواعي الاستجابة الندية بالاطمئنان، وحوافز المسارعة التي تتخطى عقبات النفس الأمّارة بالسوء، والجنوح إلى طلب العافية والإقامة على الرغبات الأرضية والشهوات، وهي المسارعة إلى القيام بكل ما فيه طاعة الله وتقواه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء من الله الكريم في عليائه وجبروته لعباده الذين صدَّقوا كمال التصديق، بلا واسطة ولا حجاب.

ولكم تكرر هذا النداء الرباني في الكتاب الكريم إشعاراً بالأساس الذي بُني عليه التكليف ليكون المؤمن على سنَن الطاعة والتقوى ويفوز ـ إن هو استقام على سواء الصراط ـ بسعادة الدارين.

فقد بلغت مواطن ذلك في السور المدنية زهاء أربع وثمانين آية تجدها منثورة في سور البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والتحريم.

وهذا ــ كما ذكرت آنفاً في الأعم الأغلب، وإلا فقد جاء التكليف بصور أخرى في العديد من الآيات؛ ولكن يظل الإيمان هو أساس البناء القويم ــ بعمقه وشموله ــ في المنهج القرآني وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك ما يكون من الأحكام التي يطلب العمل بها فعلاً أو تركاً.

ومن شأن صدق الإيمان أن يستجيب المؤمنون لدعوة الله في طاعته واجتناب معصيته، فيأتمرون بأوامره ويجتنبون مناهيه؛ فلا يفقدهم حيث أمرهم، ولا يراهم حيث نهاهم، وتجيء الطاعة بعد الطاعة، فيكون ذلك عامل تنمية لبواعث الخير، ومحبة الله عز وجل، والفرح بفضله ورحمته!.

ويا لها من صياغة يصاغ عليها المؤمن، فيكون امتثاله للأمر واجتنابه للنهي: سياحة متجددة تجعله موصول القلب بمولاه، وقوةٌ تزينها التقوى ــ على فعل كل ما يرضي ربه عز وجل مهما غلا الثمن، ويقربه إليه زلفى، كائنة ما كانت مشقة التكاليف.

وسبحان من دعا نبيه ﷺ ــ وهو الأسوة الحسنة لأهل الإيمان ــ إلى أن يكون دائماً على سنن العمل المتجدد في طاعة الله، كلما فرغ من طاعة نصب طاعة غيرها بالمعنى الأشمل لهذه الكلمة المباركة وأن يكون المقصود مرضاة الله والرغبة إليه. ذلكم قوله جل شأنه في سورة الانشراح خطاباً له صلى الله وسلم وبارك عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٧ ــ ٨].

ومما ورد في تفسير الآيتين ما أخرج شيخ المفسرين عن زيد بن أسلم والضحاك ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي من الجهاد﴿ فَانصَبْ﴾ أي في العبادة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ قال النووي: (اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل). وقال الحافظ ابن كثير: (أي إذا فرغت من

أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة). ألا إن البرهان الذي ما بعده برهان، والحجة التي لا تدانيها حجة على صدق الإيمان وتذوق حلاوة الطاعة: أن يكون هذا المؤمن على المحجة في المسارعة إلى امتثال منبعث من القلب لحكم الله تبارك وتعالى في العسر واليسر والمنشط والمكره.

وفي هذه المسارعة التي ينمو معها تذوق الطاعة، وحبُّ الاستجابة لدعوة الله ورسوله: سعاده تعز على الوصف، وطمأنينة لا تعدلها طمأنينة، وهنيئاً لأهل الطاعة المتقين: ما يغمرهم من الفضل الإلهي جزاء إقبالهم الصادق على الله، وتساميهم على المعوقات، وانتصارهم بالإيمان على العقبات التي تعترض السالكين إليه سبحانه.

وفي عود على بدء؛ هنا في آيات الصيام يقول الحكيم الخبير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

أرأيت أيها المؤمن: فرض عليكم الصيام ـ وهو الإمساك عن المفطرات من طعام وشراب ونكاح من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس أياماً معدودات هي شهر رمضان المبارك؛ وترى أن الإمساك مطلوب عن الحلال المفطر، وهو إمساك تتجدد لذته عند المؤمن لحظة بعد لحظة، حتى يحين غروب الشمس. ويفرح بفطره المشروع آنذاك. وما أعظم الفرحة الثانية يوم لقاء مولاه الكريم المنان؛ فقد جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي ﷺ: «... والذي نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك». «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه». هذا لفظ رواية البخاري وفي رواية لمسلم: «...للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه». «ولخُلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك». ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

فالذي أوجب هو الله الخالق البارىء الذي نحن به مؤمنون وبكتابه مصدِّقون؛ أجل: كتب عليكم الصيام؛ والذي فرض هذه الشعيرة التي جعلها النبي ﷺ ــ وهو المبلِّغ عن الله ما أراد ــ رابع أركان الإسلام: هو سبحانه صاحب الأمر والنهي الذي يعلم ما فيه خيرية الهدى لعباده، وما يحقق المصلحة الشرعية النافعة لهم؛ الأمر الذي يضمن لهم ــ إن هم أحسنوا العمل واتقوا ــ سعادة الدارين.

وما أجمل أن يستذكر المؤمن دائماً أن عليه ــ وهو يقوم بهذه الفريضة ــ أن يصوم إيماناً واحتساباً، لا يبتغي سوى مرضاة ربه، وذلك ما ينيله ــ بفضل الله ــ المغفرة والعتق من النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه»** أخرجه البخاري ومسلم.

هذا ما ينبغي للمسلم أن يفعله كيما يكون في عداد من تقبل طاعتهم وتغفر ذنوبهم ــ بفضل الله وكرمه ــ إنك تراه وهو الفرِح بهذه الشرعة المباركة، يصوم ــ يوم يصوم ــ عملاً بدين الله: إيماناً واحتساباً فهو لا يصوم رياضة، ولا يصوم نظاماً، ولا يصوم صحةً أو لغرض كذا وكذا... وعدِّد ما شئت من حِكَم الصيام وما أكثرها؛ ولكنه يصوم لأن الله تعالى أوجب الصيام وجعله على لسان نبيه ﷺ رابع ركن من أركان الإسلام.

وهو ــ كذلك ــ يحمد الله أن أكرمه وأعظم له العطاء حين شرح صدره للإسلام وهداه للإيمان وزينه في قلبه، وكلَّفه بشرعة تنبني على هذا الإيمان.

أن يستشعر المؤمن إيمانه الذي خالطت بشاشته القلب، ويكون على تذوق صادق لحلاوة هذا الإيمان ــ شأن الأتقياء الأصفياء ــ ويحسَّ بالرباط الوثيق بين الإيمان وبين ما كلف به من أحكام فعلاً أو تركاً: ذلكم هو اللبنة الأولى في الإعداد الصحيح للمسلم الحق على ساحة البناء المنشود، والتي من ورائها يكون ــ بعون الله ــ الالتزام المرضيُّ، والانقياد الموصل على صعيد الجماعة والأمة، إلى التمكين في الدنيا، وأكرم عاقبة يوم الدين.

القاعدة الإيمانية.. والبناء.. يا أيها الذين آمنوا

«٢»

من الحكم البالغة في الكتاب المعجز: ما ازدان به الأسلوب القرآني ـ في الأعم الأغلب ـ من اتخاذ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ خطاب التكليف للمؤمنين بما افترض الله عليهم من الأحكام، لما أن في هذا الخطاب النديِّ الثريِّ بالرحمة والود: إثارةً للعقل المسلم كيما يعمل عمله في البعد عن التناقض المردي في عدم الاستجابة لدعوة الله، واتخاذ أمر الشارع ونهيه ظهرياً، ناهيك عما تعمله تلك الكلمات الهاديات في القلب، من إثارة لكوامن الإيمان، وشحذٍ للهمم في المسارعة إلى السمع والطاعة، لأن ذلك مقتضى الإيمان، وبريد المؤمن إلى أن يكون من أهل الصدق المتقين.

وقد أشرت فيما سبق من القول إلى أن افتتاح آيات الصيام في سورة البقرة بقول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣] حيث صدِّر خطاب التكليف هذا بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذلك النداء العلوي الكريم ـ كما هو الشأن في أكثر آيات الخطاب للمكلفين في كل شأن من شؤون الفرد والجماعة، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً وأخلاقاً، بل كما هو طابع الآيات في العهد المدني على العموم ـ دليل واضح على أن الركيزة الأولى التي يوليها المنهج القرآني تلك الأهمية البالغة في بناء الإنسان المسلم بناءً يضمن قدرته على الفاعلية والتأثير في مواجهة الحياة، وينمِّي في عقله وقلبه حوافز العمل الخيِّر المثمر: إنما هي الإيمان..

وأن القاعدة النورانية التي ينبغي أن يقوم عليها البناء في العقيدة والأحكام ونظام السلوك والأخلاق، وكل ما يتصور من ضوابط العلاقة بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه جل وعلا، وبينه وبين الآخرين، بدءاً من أسرته وانتهاءً بالمجتمع والأمة، ومن تدعو الحاجة إلى التعامل معهم فيما وراء ذلك: إنما هي الإيمان كذلك.

ولقد يأخذك العجب من إحاطة تلك الكلمات المشرقات، بياناً وهداية: إحاطة اتسعت لخطاب المكلفين في الأمة بهذا الأسلوب المعجز كي يكونوا على المستوى اللائق بما عهد الله إليهم أن يأخذوا أنفسهم بمنهج الرسالة الخاتمة التي شرَّفهم الله بها، فتتحقق المواءمة الدقيقة بين الإيمان، وبين ما شرع لهم من تكاليف متنوعة هي صورة عملية للمنهج الرباني في شموله وعمقه وتكامله.

ولنتعرف على بعض النصوص ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لنرى سعة الآفاق في تناولها وتنوُّع التكليف الذي يخاطب به المؤمنون والمؤمنات في ظل تعاليم الإسلام التي لا تنحسر هدايتها عن جانب من جوانب الحياة.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾ [البقرة: ٢٧٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ونقرأ في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وتطالعنا سورة النساء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤)﴾ [النساء: ١٤٤].

ونقرأ في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة: ١].﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]. كما نقرأ قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾[المائدة: ٥١].

وتسعدنا سورة الأنفال بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥].

ونقع في سورة التوبة على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾[التوبة:٢٣]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[التوبة:١٢٣].

ونقرأ في سورة النور قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ [النور:٢٧]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور:٢١].

وفيما اشتملت عليه سورة الأحزاب نقرأ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩].﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[الأحزاب: ٧٠].

وفي سورة الحجرات نقع على قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات: ٦]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾[الحجرات: ١١٠].

وهذه سورة الحشر تطالعنا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨].

ونقرأ في سورة الممتحنة قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١].

كما نقرأ في سورة الصف قول الحكيم العليم:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢].

ونقرأ في سورة الجمعة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩].

وتشرق علينا سورة التحريم بقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

ولو أنّا بسبيل الكلام على خطاب التكليف من حيث هو ــ وليس بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فحسب ــ لأوردت العديد من الأمثلة كان التكليف بها بغير هذه الصيغة ولكنها على نهج إحكام العلاقة بين إيمان المؤمن ــ أو ما هو منه بسبب ــ وبين تكليفه بما يقول أو يفعل.. أو يمت إلى ذلك بصلة.

وعلى سبيل الاجتزاء اليسير: أذكّر بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المائدة: ٢٣]. وقوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. والكلام على أحكام الغنائم.

وبقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. وبقوله جل شأنه في سورة النور:﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧].

وما أكثر الصور المشرقة وأوفر الأساليب في ذلك؛ دليلَ الحكمة في وضع كل قضية موضعها على سلَّم الهداية كما أراد ذلك الحكيم الخبير.

وفي متابعة للماضي القريب: لا يرتاب ذو بصيرة في أن الله تبارك وتعالى عندما يخاطب كل مؤمن ومؤمنة في كل زمان وبيئة بهذا الخطاب المثقل بندى الخير الناطق بسموِّ مرتبة الإيمان وأهله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾حاملاً إليهم التكليف بالصيام، وأنه فرض حتمٌ كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم ــ من حيث المبدأ لا من حيث عدد الأيام ووقتها ــ يكون ذلك إيذاناً بالارتباط الوثيق ــ كما أشرنا من قبل ــ بين القاعدة ــ وهي الإيمان ــ وبين ما يقوم عليها من تشريع وأحكام.

وقل مثل ذلك عن صلة هذه القاعدة التي هي الأساس المتميز المكين بهذه الفريضة، فريضة الصيام التي جعل الله أداءها احتساباً على الوجه الذي ينبغي: طريق المؤمن إلى أن يكتب في عداد المتقين الذين يخافون الله واليوم الآخر، ويخلصون النية فيما يأخذون وما يذرون، وكل همهم أن يكون الله راضياً عنهم سواء

أكان العمل من كسب الجوارح أو كان من عمل القلوب ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وغير خاف أن الله مع المتقين، وأن الله وليٌّ المتقين، وأنه سبحانه يحب المتقين، ومطلوب من المؤمنين أن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وإذا كانت هذه الكلمات الحبيبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التي لها أجمل وقع في نفس المؤمن والتي تنادي المؤمنين بالتكليف والعمل والجهاد: فيّاضة بالكرم والعطاء والتذكير؛ إنها في الوقت نفسه ناظم المسؤولية الذي يعرّف المؤمن مكانه من البناء في نفسه وفي المجتمع.

وكلما تكررت وتكررت: زادت معطيات المؤمن وقدرته على الحركة نماءً واتساعاً.

لذا كان من الواضح أن من حكم افتتاح الآية بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ـ وقد أشرق بها الكتاب العزيز أربعاً وثمانين مرة ـ عند الخطاب بأمر من الأمور: استجاشة قلوب المؤمنين وعقولهم، وتحريك هممهم وتقوية عزائمهم على الاستجابة بكل رضى وطمأنينة دون أن يجدوا في أنفسهم أي حرج، وتذكيراً لا يحتمل شيئاً من اللبس أو الاحتمال المضاد: بأن من مقتضى الإيمان ومستلزماته: أن يكون المؤمن ـ بوصفه مؤمناً ـ وقّافاً عند حدود الله، مستمسكاً بما جاء عن الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام في أي شأن من الشؤون دقَّ أو جلَّ.

انظرها يا أخي المؤمن، تدبرها، دقق في جنباتها، تخرج بعظيم النتائج، وموجبات التنبه العقلي واليقظة القلبية التي تسعف في تجاوز عقبات الفكر والعمل واقتحام معاقل الدعة والخمول.

إن هذا الارتباط المحكم بين التكليف والإيمان: قضية أكبر مما يتصوره الكثيرون، وينبغي أن تعمل عملها في واقعنا من جديد، على أي ساحة من الساحات التي اعترى الأمةَ نقص أدائها ونماء ما فيها من الخير، أو تفاقم مابتليت به من التخلف والضعف والوهن.

والغد الأفضل مرهون ـ بعون الله ـ بقراءة ذلك قراءة جديدة يشارك فيها العقل والقلب مشاركة حقيقية فاعلة، تثمر ما يتطلع إليه المصلحون من اقتحام عقبة التخلف المزري عن الإسلام، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلَح به أولها.



البناء.. وشرعة الصيام

«٣»

كانت طويلة رحلة الإنسان على أرض الحيرة قبل أن يتأذن الله بالرسالة الخاتمة وحياً على نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان بيانه ﷺ للقرآن الذي أنزل عليه: بأقواله وأفعاله وتقريراته هادياً للأمة، سما بها إلى أن تكون معالم هذا الكتاب العزيز في العقيدة والعبادة وكل ما يكون من ضوابط التعامل بين العبد وربه وبينه وبين الآخرين، وبين الدولة المسلمة والدول الأخرى في حالات السلم والحرب، وكل ما يمت إلى ذلك بسبب: واضحةً مستنيرة، وتفتح الباب للاجتهاد فيما لا نص فيه.

ولقد كان من توكيد النبي ﷺ لهذه الحقيقة قوله عليه الصلاة والسلام فيما روى أحمد وابن ماجه: **«تركتكم على البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**.

قال أبو الدرداء: **«صدق والله رسول الله ﷺ. تركمنا والله، على مثل البيضاء، ليلُها ونهارها سواء»**.

وفي واحد من المعالم القرآنية رأينا من قبل بعضاً من عطاء قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [البقرة: ٢١].

وأنت واجد أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ــ وهو يؤدي الأمانة في إعداد المسلم الحق، ويربي الأمة على الوجه الأكمل فيما شُرع لها من أحكام في العبادات وغيرها ــ لا يني يوجه المسلمين بعظيم بيانه إلى حيث يكون الصيام بريد أن تكون التقوى صفة ملازمة للمؤمن وسجية لا تفقد أثرها في جانب من جوانب السلوك وهو يمارس شؤون الحياة، وتلكم هي التقوى بمعناها الحقيقي الذي يتجاوز أن تكون دعوى بلا دليل.

كما يوجه ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلى أن تكون فريضة الصوم عاملاً متجدداً في حياة المسلم يشده إلى القرب من الله دون مشقّة أو عنت، ويُنمي في نفسه طاقة البناء ومشاعر الرغبة الصادقة في العمل المثمر في إطار من الأخوة الإيمانية ــ على تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان ــ كما يحسن صلته بكتاب الله صلة قادرة على إحداث النقلة ــ أن لو صدقت العزائم ــ إلى ما هو الأفضل والأرضى لله تبارك وتعالى، خصوصاً وأن الصيام في بعض إشراقاته لون بارز من ألوان جهاد النفس، والدُّربة على أخلاق المجاهدين في ميادين القتال، أولئك الذين تتربى إرادتهم على ترك المألوف، والتنازل عما يحب أحدهم ويشتهي، إلى ما يحبه الله ويرضاه مهما كانت الرغبة عارمة والشهوة آخذة بالنواصي من هنا وهناك.

ولقد كان من البيان النبوي الكريم ما أوضح رسول الله ﷺ، من أن الصيام الحقيقي المرضيَّ لله ليس أمراً آلياً قوامه الإمساك عن المفطرات الظاهرة من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس مع النية فحسب؛ فهذا الصيام يسقط الفريضة ويخرج من العهدة والله أعلم.

ولكن الصيام المقبول وراء ذلك، وبيان هذا : أن الصيام الذي يطلب أن يكون بريد التقوى، فتكون مرجوة التحقيق بالقيام به. هو قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ والذي يجعل من الصائم قوة بانية على صعيد الذات والمجتمع تسهم في تنمية عناصر الخير ومقومات الطمأنينة والاستقرار وكل ما هو من ذلك بسبب... هذا الصيام لا بد له من سياج كريم يصونه ويحول دونه ودون أن يُرَدَّ على صاحبه؛ ذلكم هو إمساك الجوارح عن كل ما ينافي أخلاق الإسلام وآدابه في العلاقات الاجتماعية وغيرها، ناهيك عن مراقبة الله عز وجل، وأن يحسب لكل تصرف حسابه كما هو في ميزان الهداية والحق.

وانتهاك حرمة هذا السياج ربما أدى إلى ضياع الصوم حقيقة عند الله، وإن كان قد استوفى شرائطه وأركانه في الظاهر. ألم تر إلى قول النبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح: «**ليس الصيام من الأكل والشرب، وإنما الصيام من اللغو والرفث؛ فإن سابّك أحد أو جهل عليك؛ فقل: إني صائم إني صائم**» رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وفي توعد لأولئك الذين يمسكون عن الطعام والشراب وغيرهما من المفطرات الظاهرة. ولا يصومون عن الأذى وإحداث القلق في المجتمع، ويسهمون في تمزقه وإضعافه: يقول الرسول ﷺ كما روى البخاري وأصحاب السنن: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» وفي رواية: «**من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل**» رواه البخاري وأصحاب السنن.

وبعد: فهذا الهدي النبوي في ظل المعلم القرآني: يقفنا على صورة من صور البناء المتين المتكامل للإنسان والمجتمع في وقت معاً؛ لأن المفترض أن يصوم المكلفون كافة إذا انتفى العذر من مرض أو سفر، وأن يكون كل منهم عند هذا الذي وجه إليه من لا ينطق عن الهوى، والمؤتمن على بيان الكتاب عليه الصلاة والسلام.

ولنتصور مجتمعاً تقوده عبادة الصيام إلى هذا النسيج المتماسك الذي ترتبط الأخلاق فيه بالعقيدة والعبادة الخالصة لله، كيف يكون؟!.



شرعة الصوم.. والبناء

« ٤ »

كان من عطاء الله في صيام هذا الشهر المبارك أن نسبه ـ جل شأنه ـ إلى نفسه وأنه هو الذي يجزي به، مع أن العبادات كلها لله سبحانه وهو الذي يجزي بها، فلا عبادة إلا له، ولا توجه إلا إليه، وهو جل وعلا بيده العطاء والمنع ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠]. ولكن حكمة عظيمة تكمن وراء هذه الخصوصية لصيام شهر رمضان. ما أحوج الأمة إليها، وهي تحاول أن تقهر الصعاب، وتحشد ما أعطاها الله من إمكانات على كل صعيد، كي تواجه مرحلة التخطي إلى ما هو الأفضل والأكرم إن شاء الله.

فالمسلم الذي سلم له صومه كما بيَّن النبي عليه الصلاة والسلام بشَّره ربنا تبارك وتعالى ببشارة عظيمة هي ما سلفت الإشارة إليها. وذلك ما جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب. فإن سابَّه أحد، أو قاتله، فليقل إني صائم. والذي نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه».**

الواقع أني أذكر الحديث، وأعلم أن الكثرة الكاثرة من المسلمين يقرؤونه ويسمعون عن دلالته الكثير المبارك في هذه الأيام، ولكن حسبي الإلماحة السريعة إلى الخصوصية التي نجدها في تلك الكلمات النورانية **«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم**

فإنه لي وأنا أجزي به، فيم كان ذلك؟ وكل الأعمال التي يقوم بها المسلم ــ في مجال العبادة ــ كما ذكرنا في صدد هذا الكلام ــ: هي لله عز وجل وهو سبحانه الذي يجزي بها.

الواقع أن الصوم لا يقع فيه الرياء؛ فكل عمل من أعمال البر باعتبار أن له صورة إيجابية ظاهرة يمكن أن يدخله الرياء، والرغبة في الظهور أمام المخلوقين بمظهر التبتّل والنسك. أما الصوم: فإنه إمساك وليس عملاً يظهر، فهو أقرب إلى عمل القلب منه إلى عمل الجوارح، إنه بالنية التي تخفى على الناس ولا يعلمها إلا الله عز وجل.

والصوم ــ كذلك ــ أمانة؛ فهو أمر بين العبد وخالقه الذي يعلم السر وأخفى، وفي مقدور كل امرىء أن يكون غير ممسك عن المفطرات ثم يدعي غير ذلك. والذي يعلم سرَّه ومكنون نفسه وما توسوس به: هو الله الذي قال في كتابه: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦]. من أجل أن الصيام أمانة وأنه بعيد عن الرياء.. إلى وجوه أخرى ذكرها بعض العلماء. قال الله تعالى: «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»، فما دام لا يطّلع على الصوم إلا هو سبحانه: فلتكن الإضافة إلى نفسه سبحانه. وقد جاء في بعض روايات الحديث «**يدع شهوته من أجلي**».

أما إنا لو فتحنا البصائر على نور هذه الحقيقة وحاولنا أن نفيد منها لواقعنا، لألفينا ثورة لا تنفد من الخير إن الأمانة والبعد عن الرياء زاد لا بد أن يصحب كل عامل على طريق هذه الأمة، مهما كان شأنه وتخصصه! وكم تعاني الأمة اليوم من فقدان الأمانة، ومن الرياء وحب الظهور.

أما ونحن نبصر هذه الخصوصية في رمضان من منظور جماعي: نجد لزاماً أن تكون الأمانة والإخلاص لله نسغ الحياة في جيل نُعدُّه لحمل أمانة البناء وتنمية الوجود الذاتي للأمة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



شرعة الصوم.. والبناء

«٥»

في ظل المعلم القرآن من آيات الصيام، رأينا فيما سبق بعضاً من توجيهات النبي ﷺ التي تجعل من الصيام عبادة مقبولة، ينعكس أثرها على الفرد والمجتمع، حين دعا عليه الصلاة والسلام ـ وهو المبيِّن عن ربه ما أراد ــ إلى إمساك الجوارح عن كل ما ينافي أدب الإسلام وأخلاق البررة المتقين.

ويزيد الهدي النبويُّ هذه القضية بياناً، فيقول عليه الصلاة والسلام متوعداً أولئك الذين تنفصل العبادة عندهم عن السلوك، فيكون صيام النهار وقيام الليل عملاً مبتوراً عن خشية القلب، ومراقبة الله عز وجل، حتى تجد إمساكاً عن المفطرات هو بالتقليد الآلي أشبه، وحركات ليس فيها ندى الطاعة ولا حرقة الخاشعة... فيقول صلوات الله وسلامه عليه فيما روى أحمد وغيره: **«ربَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع وربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»**.

إن هذا الإنسان غريب على بنية المجتمع المسلم كما أراد الله له أن يكون، وكما عانى بناءَه المبلِّغُ الصادق عليه الصلاة والسلام، فهو يجوع ويظمأ وتحاصره شهواته نهاراً، وقد ينصَب في القيام ليلاً، ولكن ليس له ــ ويا لَلحرمانِ ــ إلا جوع النهار وسهر الليل، إنه في واد، وقبول عمله في واد آخر.

ولا عذر لمعتذر بعد البيان الأمين ممن قال الله في شأنه: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [التوبة: ١٢٨]. تُرى أيُّ صيام هذا الذي يدعيه الظالمون الطغاة، والمظاهرون لأعداء الله على المسلمين،

وآكلوا الحرام والمؤذون لعباد الله؟!! إنه ــ والله أعلم ــ صيام الذين قال الله فيهم: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢ -٤٣].

وهكذا تأخذ العبادات ــ ومنها فريضة الصوم ــ مكانها في عملية البناء الفريدة في تاريخ بني الإنسان؛ فليست هذه العبادة رسوماً وأشكالاً مقطوعة النسب عن الاستقامة في التعامل والسلوك، وليست أمتنا أمة طقوس وزخارف ورسوم، تهمل القلب وتُعنى ــ فحسب ــ بما تبصره العينان من الفن والشكليات، ولكنها أمة تحمل رسالة العبودية الصادقة لله عز وجل في إطار من البناء عماده الإنسان، ومحوره إعداد هذا الإنسان بدءاً من داخل النفس، وتنمية مشاعر الإنسانية ودواعي الفطرة فيه. والواجبُ في شرعة الإسلام أن ينعكس ذلك على تصرفاته وطريقته في السلوك؛ ليتم التواؤم بين العلم والعمل وبين العبادة والسلوك.

فالتزام الشرعة في الوقت، والحركة، وطريقة العبادة: عبادة. وانتظامُ هذه الأمور ضمن دائرة من التكامل الذي يقوم على يقظة القلب ومراقبة الله عز وجل: عبادة أيضاً. فالمسلم ــ على سبيل المثال ــ يلتزم بالعدد المطلوب من الأيام في رمضان حسب رؤية الهلال، مع المجال الزمني للإمساك، لأن العَمديَّة في تجاوز الفجر عند الإمساك أو الفطر قبل الغروب بأي زمن متصور: قاضية على صوم ذاك النهار، وهو درس في الأمانة والنظام ما بعده درس، ولكن ذلك كلَّه ليس منقطعاً ــ كما أسلفنا ــ عما توجبه سلامة البنية في المجتمع، وضمان استقراره في ظل أحكام الإسلام. والسعيد السعيد من انبعثت أعماله عن قلب يقظ، يفيض على الجوارح ــ وهو موئل التقوى ــ استقامة سلوك وإخلاص دين، وإذا صلحت حال الفرد وفق هذا المنهج المتكامل: صلحت ــ بعون الله ــ حال المجتمع. والبررة الأطهار الذين كتبوا تاريخ بدر، والفتح في رمضان، هم أولئك الذين أحسنت يد محمد ﷺ الصنَّاع بناءهم، فكان ما كان على يدهم من النصرة والتمكين.

ولكم نكون على قدم الصدق والكرامة. حين نتخذ من شهر رمضان جسراً يصلنا بأولئك البناة الأمناء الذين عبدوا الله صائمين مجاهدين، صادقين ما عاهدوا الله عليه، وكانوا بذلك الترجمان العملي للإسلام الذي آمنوا به، وآمنوا بمن حمله إلى الدنيا وحياً من عند رب العالمين.



شرعة الصوم.. والبُناة الأمناء

«٦»

حين نفيض في الحديث عن قضية موضوعية برأسها، لا يجوز أن يصرفنا ذلك عن سير أولئك البُناة الأمناء الذين كانوا في عملهم وسلوكهم الترجمان العملي لتلك القضية المطروحة؛ وما قلناه من مكان فريضة الصوم في البناء، وعن التوجيه النبوي الذي يجعل من الصيام عبادة مقبولة معبوءاً بها عند الله يجدها الصائم في ميزانه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وينظر المرء أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر قدَّامه فلا يرى إلا ما قدَّم..!!

أجل: ما قلناه في هذا الباب حريٌّ أن يحملنا على التعرف إلى بعض من أولئك الذين عمل التوجيه النبوي ـ والسنة بيان للكتاب ـ في نفوسهم عمله، وكانوا الترجمان العملي لما ينبغي أن تكون عليه العبادة، وجعل الله منهم أعلاماً في تاريخ الإسلام، يجد المسلم الواحد منهم صورة العمل المتصل بإرث النبوة، والدليل النير الواضح، على أن ما يهدي إليه القرآن وبيَّنه الرسول عليه الصلاة والسلام: ليس أفكاراً تجريدية تستعصي على التطبيق، ولكنها توجيهات قيِّمة جدُّ قيِّمة في حدود واقع الإنسان في فطرته وقلبه وعقله وغرائزه ومشاعره كما خلقه الله.

وليس لقائل بعد هذا أن يقول: هذه أمور فوق طاقة البشر، وليست للعمل والتنفيذ، وإذا حصل ذلك من البعض: كان دليل التكاسل والقعود، وطلب العافية من العبادة ومستلزماتها. كما أن هذه التوجيهات المباركة ـ كما قلنا ـ غير مقطوعة النسب عن عملية البناء المتجددة في المجتمع وتنمية طاقاته كلها في ظل شرعة الحكيم الخبير، التي من عيون سماتها: وجوب التكامل بين عمل القلب وعمل الجوارح.

مـر الحـسن البـصـري ــ وهـو من سـادة التـابعين رضـي الله عنه ــ بقـوم لاهين يضحكون ضحك غفلة في رمضان فقال لهم: «إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وغاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته» فالمحسن يشتغل بفرحته بما كان من فضل الله عليه بالقبول ــ كما أخبر النبي ﷺ ــ والمسيء يشغله عن طيِّب الثمرة حسرتُه وندامته لما ضيَّع على نفسه من نفحات الخير في رمضان.

والأحنف بن قيس وهو من هو جهاداً وحصافة وتبصراً للأمور ــ: يقفنا على يقظة المسلم التي تحمل على الخشية والتطلع إلى حسن العاقبة والقبول. كان ذلك حين كان صائماً ــ صيام نافلة فيما يبدو! فقالوا له: إن الصوم يضعفك، فقال: «إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه».

إن الذين استغنَوا عن الشهوات والحطام هم الذين قدروا على أن يَزينُوا تاريخ هذه الأمة ويسهموا في بناء حضارة الإسلام.

وإذا شئنا أن تعود أمتنا إلى مسيرتها الأولى من خلال يقظة تواجه ما تواجه من التحديات والمعوقات: كان لزاماً أن نضع نصب أعيننا وعلى شكل منهجي نَصْدُقُ في تنفيذه: أنه لا يصلح آخر هذه الأمة؛ إلا بما صلح به أولها.

وإذا توافر ذلك، وتُرجم إلى حركة داعية في دنيا الواقع: فحدِّث ولا حرج عما يكون من وافر الخير للفرد والجماعة، والأمة، وإنه لرزق إلهي ماله من نفاد!!

آيات الصيام منهجية البناء.. والتقوى

«٧»

إن الذي جلَّى الوجه الحضاريَّ لأمتنا على المستوى اللائق في ميادين الفكر والسياسة والاجتماع وغيرها.. هم أولئك الأفواج من جند الله عبر القرون المتطاولة. الصفوةُ الذين أحكمت الدعوة المحمدية بناءهم ظاهراً وباطناً؛ فوضعوا طاقاتهم وإمكاناتهم على طريق البناء المتميز للأمة، حتى أصبح أيٌّ لون من ألوان النماء في تلكم الطاقات والإمكانات رافداً من روافد الخير والفلاح لمجتمعهم الكبير، وكان لهم من الوعي والإخلاص في الحركة، ما استطاعوا معه أن يدركوا ما عليه واقعهم، بعيداً عن التجربة والخيال، ويأخذوا بيده إلى حيث الاحتكام إلى شريعة الإسلام ترعى بنورها شؤونه كافة، ولمفهومات الإسلام ترسم له منهج النظر والتفكير.

كما استطاعوا ـ وهم يُعنَون بمخالطة المعارف الإسلامية في البناء وتنمية حوافز الرقي ـ أن يتلقفوا بكثير من الأمانة والوعي ما زخرت به أعصارهم من صنوف العلم والمعرفة، ومن ثمرات التجارب الإنسانية، وأن يهضموها ثم يقدموها ـ على صعيد النفع للأمة ـ من منظور إسلامي، ويجعلوا من رصيدها روافد لهذه الأمة تسهم في تشييد معاقل الهداية والبر. وتمدُّها بما يعود على قوتها بالنماء والإطراد، كيما تؤدي رسالتها في العالمين.

وليس من مكرور القول الإشارة إلى أن جند الله هؤلاء كانوا كذلك، وأغلى ما يميزهم تقوى الله عز وجل؛ فهم أحباب الله الأتقياء الأنقياء في كل ما ذكرنا ـ وهو قليل من كثير ـ والتقوى عندهم، وكما هي في المفهوم الإسلامي الصحيح: اجتناب

للمعاصي وأداء للفرائض واستكثار من النوافل، وجهاد في سبيل الله، مع إخلاص في العمل ومراقبة لله عز وجل في السر والعلن؛ كلٌّ في موقعه وإطار عمله وتخصصه، والثغر الذي أقامه الله عليه.

وهذا ما يذكرنا بما ختمت به أول آية من آيات الصيام في سورة البقرة من قول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذه جعلها الله غاية سامية للمؤمنين ترتجي وتطلب من خلال صيام شهر رمضان إيماناً واحتساباً.

فلينظر المسلم في عظمة كل من الغاية والوسيلة؛ أرأيت!! لعلكم تتصفون بمنقبة التقوى فتكون سجية لكم، فتصبحوا وتمسوا والتقوى نور يضيء تصرفاتكم، وقوة باعثة على استقامتكم ونصرتكم لدين الله في أنفسكم وفيمن ولاكم الله أمرهم صادقين مخلصين.

إنا ونحن نسعد بالنظر في آيات الصيام من سورة البقرة نستنير بعطائها على ساحة البناء والمبتغى؛ يستوقفنا هذا الوجه من وجوه الهداية في هذا المعلم القرآني؛ لما أن التقوى ضمانة أيٌّ ضمانة لاستقالة الفرد، ولسلامة الحركة في خلايا المجتمع، عبادةً، وتعاملاً بين الناس، وتعاوناً على الخير، وتناصحاً أميناً بين الحاكم والمحكوم.

وعندما قال أحد الرعية للخليفة الثاني عمر رضي الله عنه: «اتق الله يا عمر» وقال بعض الحضور: ألمثل عمر يقال هذا الكلام؟ ـ يعني كيف يقال له ذلك وهو من هو في صدق إيمانه وعدله الذي أصبح مضرب المثل ـ قال الخليفة الراشد ـ في حرص على هذه الضمانة وترسيخ لمفهوم فذ من مفهومات الإسلام على الصعيد الحضاري ـ .. قال له: «دعه يقلها فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها» يعني سماع رضى يبعث على التطبيق والإنفاذ.

لقد كان عمر رضوان الله عليه ـ وهو يملي على التاريخ هذا الموقف المشرق بوعي الحاكم المؤمن وقوته في الله ـ يتجه صوب الإحكام في البنية الحضارية وسلامتها. وأن يكون في عداد أحباء الله المتقين يقيم عدل الله في الأرض، ويحفظ التوازن بين حقوق الحاكم والمحكوم.

نقول هذا وعبير ليالي الشهر الميمون وأيامه يملأ على المؤمنين جنبات قلوبهم، ونور الطاعة صياماً وقياماً، وتلاوة وتدبراً لكتاب الله العزيز، يريح نفوسهم ويسمو بها إلى معالي الأمور والحرص على فعل ما من شأنه أن يقربهم إلى الله زلفى.

فليكن وراء ذلك صدق العزيمة في أن يكون شهر رمضان ـ بحق ـ رحلة بناء على قوة الإرادة في طاعة الله والجهاد في سبيله، ومصدر تنمية لأخلاق الصبر والأمانة والمراقبة، والحسّ المشترك بين المؤمنين في ظل العبودية لله عز وجل، والإخلاص في تلقي الخطاب الثري الندي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وما أجمل أن يبلغ صدق العزيمة مبلغه، فتصحب رحلتَنا في الحياة أخلاقُ الصيام ومشاعر الصائمين الصابرين المقربين.

وإذا صدقت الوجهة وسلم للمؤمن التوكل، وأخذت النفس بأخلاق الفارين إلى الله، المشوقين إلى مرابع عطائه في جنات عدن: أمنت العاقبة ـ بفضل الله ـ وتحقق الفوز في الدارين.



القرآن.... وحراسة البناء

« ١ »

سبحان ربنا العلي الأعلى الوهاب، ما نظر المؤمن في واحد من معالم كتاب الله العزيز، إلا ازداد يقينه بسعة الآفاق التي ذكرت في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]. والتي لا يرقى إليها مبلغ علمنا المحدود.

وفي ظل شهر الله المبارك، شهر القرآن، نتابع رحلتنا مع الحكمة التي تبدو ـ والله أعلم ـ من وراء عناية الكتاب الكريم بواقعة أولئك الأعراب الذين استسلموا خوف القتل والسبي ـ كما توهموا ـ وطمعاً بالمغنم المادي، وزعموا أنهم قد آمنوا، ثم جاء الرد عليهم بأوضح بيان ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولقد كان الوجه الأول للحكمة كما أدى إليه اجتهادنا: التحديد الموضوعي للمواقف وأصحابها، بحيث يتضح على طريق الدعوة المثقل بالأعباء والمسؤوليات: من هم المؤمنون حقاً ومن هم الذين لم يرقوا إلى هذا المستوى؛ كما يوحي به قوله جلّ وعز: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي نظرة تتجاوز الأوليات إلى غيرها: نجد أن من الأمور المتعلقة بالحكمة أيضاً: إعطاءُ الأولوية لقضية البناء الكبرى التي بدأها رسول الله ﷺ من أول يوم أشرقت فيه جنبات مكة بالوحي، وآذن الله محمدَ بن عبد الله بن عبد المطلب، أنه المؤتمن على رسالة الله للناس، ثم تعليمُ المسلمين قيمة هذه القضية على سلم الأولويات، وما هي المؤشرات التي تؤهل لحمل العبء والقدرة على البناء؟.

من أجل هذا: كان طبيعياً أن يصحب عمليةَ البناء حِرصٌ على مضمون الرسالة أن يساء فهمه ويلتبسَ منهج النفاذ إلى تطبيقه، أو أن يتلوَّن بالرغبات والأهواء تصوُّره، الأمر الذي يعرقل المسيرة، ويعوق اطراد النماء في صلة المؤمنين بالرسالة وبكل ما فيه صقل الطاقات لتحويل المبادىء والقيم إلى وجود عملي يتحرك في ميادين العلم والتشريع والأخلاق، والترجمة عن ذلك بمناهج، وخطط مرحلية تؤذن بالمخالطة العقلية والقلبية للرسالة، والإحاطة بالواقع كما هو، والصدق في التنفيذ.

أجل: إنها قضية البناء الفريدة في تاريخ البشرية؛ فالقرآن ــ وقد ائتمن رسول الله على بيانه ــ يهدف إلى بناء الإنسان في قلبه وعقله وجسمه ومشاعره بناءً يحمل كل سمات التكامل والتوازن والعمق، كيما يكون على مستوى حمل الرسالة، كما يهدف القرآن كذلك إلى بناء المجتمع على النهج الذي رسمته تلك الرسالة الربانية الهادية، على الوجه الذي يصل بالمسلمين إلى أن تكون منهم أمة صادقة الانتماء إلى ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام، جديرة أن تبرز إلى دنيا البشرية بوجه حضاري يتألق بالإيمان ولا يهمل المعرفة، ويضع الإنسان حيث كرمه الله﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتبدو الحاجة ملحةً إلى توكيد ما سبقت الإشارة إليه من تلك البدهية التي تقوم على أن الإيمان هو قاعدة البناء في كيان الأمة وخصائصها الذاتية، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسعة المدلول لكل منهما، وفي إطار ما لهما من أبعاد عميقة وشاسعة لا تحجز عن ميدان من الميادين في المفهوم الإسلامي الصحيح: هو حراسة ذاتية من قبل الفرد والجماعة لقيم الإسلام التي تحكم الفرد والمجتمع والدولة، ورقابة تنبع من داخل النفس لبنية المجتمع أن يطولها الأذى، ويحول دونها ودون أن يلازمها اطراد النماء.

إن جيلاً يصل ما انقطع بين الأمة وبين منهج البناء الذي كانت به خير أمة أخرجت للناس، هو الذي يجب أن تتضامن جهود العاملين في كل المستويات على وجوده الذاتي في إدراك لطبيعة المتغيرات وتعدد وجوه التحديات.



القرآن.. وحراسة البناء

«٢»

ما سبق في كلمات قريبات له رافد لا بد منه؛ خصوصاً حين نكون حريصين على أن نهتدي بهدي الكتاب الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام من أجل واقع الأمة، وتحويل مشاعرنا نحو الإسلام إلى عمل ينطق بسلطانه الإسلام والاحتكام إليه على كل صعيد.

ذلك الرافد: هو أن ما ألمحت إليه من حراسة المجتمع من الداخل: قائم على أن كل ما عرفه الشرع والعقل وكان موضع الاستحسان: فهو معروف، وكل ما أنكره الشرع والعقل: فهو منكر، ولا تخالف بين حكم الشرع وبين العقل السليم، وإذا حصل التخالف ففتش عن سلامة العقل أو عن وجود العلم.

هذه واحدة: وأما الثانية: فهي إيضاح لما أشرت إليه من أن أبعاد كل من المعروف والمنكر لا تحجز عن ميدان من الميادين، أي أن عملية البناء الفريدة في تاريخ البشرية، التي كانت ـ كما تدل النصوص والوقائع من عطاء الرسالة المحمدية ـ لم تفرق بين ساحة وساحة، أو بين ميدان، وميدان، في تناسق فريد بين الغاية والمنهج؛ ذلك بأن شمول الإسلام لكل شؤون الحياة على النهج الذي يسعد الإنسان في دنياه وآخرته، تجعل المعروف معروفاً ضمن هذا الشمول حين يتسع ويتسع، فيجعل إماطة الأذى عن الطريق واحدة من شعب الإيمان، تلك الشعب التي بلغ من وفرتها في بيان النبي عليه الصلاة والسلام أن تكون بضعاً وستين أو بضعاً وسبعين شعبة، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها كلمة لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». كما تجعل المنكر منكراً ضمن هذا الشمول أيضاً حين يتسع ويتسع، فيجعل الجناية

على حيوان ضعيف كالهرة سبباً في دخول النار، ذلكم ما أخبر به النبي ﷺ كما ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم ـ من أن امرأة ممن كان قبلنا دخلت النار بهرة حبستها لا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض ولا هي أطعمتها.

وإذا كان بنو إسرائيل قد لُعنوا بأنهم كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه، فإن هذه الأمة ـ وهي تنفق من الجهد والوقت والمال الكثير الكثير في مواجهة فتن اليهود وأعوانهم ـ جديرة أن تحدد مسيرة تجديد بنائها الذاتي في مواجهة التحدي على هدي مفهومات الإسلام ـ كما هي في معالم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ثم ما فهمه أئمة الهدى منهما ـ وعندها لا ينحسر مفهوم المعروف حتى يلتصق بزاوية لا تُرى في المجتمع، كما لا ينحسر مفهوم المنكر حتى يصبح كأنه من القضايا المنسيَّة، أو التي تتعلق بجانب واحد من جوانب الدين ـ كما يفهم أصحاب الأهواء ـ لا تتعداه.

إن صورة مشرقة من صور الشجاعة الأدبية تنقص الكثير منا في مختلف الميادين ـ حيث يحملنا حب العافية ـ غالباً ـ على أن نتهاون ـ ونحن نُعدُّ لبنات البناء أو دعائم صيانته ـ بما هو عنوان أصالتنا، والسمةُ المميزةُ لوجودنا عبر التاريخ.

وما أحسبني بحاجة إلى مزيد من البيان: فالوقائع ناطقة والأحداث شهود.

وفي خاتمة المطاف: لئن كانت الحراسة القوية للمجتمع المسلم تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأبعاد التي أشرنا إليها: إن الحراسة القوية المتميزة من الخارج: كائنة بالجهاد في سبيل الله. وكل ذلك مرتبط بالقاعدة الأولى للبناء وهي الإيمان وتقوى الله في العمل بمقتضاه، وحين يصوغ المؤمنون مقتضيات الإيمان ومستلزماته عملاً ينتج، وحركة تدفع بالأمة إلى ما هو الأفضل مع الحراستين الداخلية والخارجية، تطمئن النفس إلى البناء وضمان استمراره وتعاظمه كما يشاء الله، والنماء في فاعلية أبنائه.

هل لي بعد هذا أن أقول: إن فريضة الصيام من عيون الركائز في بناء الإنسان المسلم على القوتين الروحية والجسمية وتنمية الحس الجماعي عند المسلمين؟ وهل نعمل على أن لا تكون الأمة حبيسة المناسبة كل عام وكفى؟!.

صورة أخرى من العهد المكي.. الترغيب الأخروي

من إعجاز القرآن الكريم: أنه لا يدع باباً من أبواب الخير يوصل إلى المبتغى في شأن قضية من قضايا العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق والسلوك ــ أمراً أو نهياً، ترغيباً أو ترهيباً، من طريق العبرة في القصة أو المثل أو غير ذلك ــ إلا ولجه، وكل ذلك بأسلوب فذٍّ يتناسب كل التناسب مع الغَرَضِ الذي من أجله كان الكلام، ويتسق كل الاتساق شكلاً ومضموناً، وفي الأحوال كلها، مع الهدف الكبير وهو الهداية بمعناها الاصطلاحي الأعم، فالقرآن الكريم كتاب هداية يهدي للتي هي أقوم.

أقول هذا بعد أن عرضنا ــ في مناسبة سبقت ــ لمجموعة من الآيات المباركات التي تنزلت في العهد المكي في مواجهة ما كان يعانيه المجتمع من مظالم تسيء إلى بنيته، وتعوق قدرة الفرد والجماعة فيه عما يفترض من العطاء ومنها ما جاء في سورة الماعون.

كان ذلك بجانب المعركة الكبرى معركة التوحيد في مواجهة الوثنية والطواغيت، والأعراف الجاهلية الناجمة عنها. وقد رأينا هنالك ألواناً من وجوه الهداية في أسلوب القرآن الكريم: دلت ــ مع الإعجاز ــ على أن المجتمع الذي يقوده الإسلام قادم ــ بعون الله ــ وتأهيل بُناته حاصل على سلم الهداية.

بقي أن نذكر أن القرآن سلك ــ فيما سلكه ــ لتجفيف تلك المستنقعات الآسنة التي كان من مظاهرها: قهرُ اليتيم وعدمُ الإحسان إليه، وانصرافُ المجتمع عن أن يحث بعض أفراده بعضاً على طعام المسكين، لأنهم لا يفعلون ذلك فضلاً عن أن يطعموه، والتقصير في صلة ذوي القربى وأداء حالهم من حقوق... إلخ، سلك لذلك

سبيل الترغيب بعمل الخير: إحساناً إلى اليتيم، وحضّاً على طعام المسكين، ليكون لأولئك العاملين على هذه الشاكلة ـ بإيمان ـ ما لأولئك الأبرار عند الله من النعيم المقيم في الجنة التي لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ففي سورة الدهر: ذكرت الآيات ما للأبرار من نعيم الجنة، ثم أتت على زمرة خيِّرة من الأعمال الصالحة التي قدَّموها بين يديهم زاداً للآخرة، فكانت نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم؛ ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴿٨﴾﴾.

ثم تذكر الآيات أن هذا الذي صنعوا كان لوجه الله، لا لغرض يبتغونه من أغراض الدنيا... إنهم يخافون الله واليوم الآخر ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴿١٠﴾﴾ وكان الإكرام الإلهي بوقايتهم شر ذلك اليوم، وإدخالهم الجنة ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١].

وإذا علمنا أن سورة الدهر سورة مكية أيضاً، أدركنا غرضاً من أغراض القرآن بهذه العناية المبكرة في عمر الدعوة بشؤون المجتمع، والكشف عن الشوائب، وإعطاء المؤشرات لقضية البناء الكبرى، وتحويل الإمكانات المبعثرة هنا وهناك، إلى طاقات فاعلة مؤثرة، وعدم حرمان المجتمع من أية قوة مهما كان شأنها.

وفي رحلتنا عبر السورة التي ذكر فيها الماعون وما ولي ذلك من مراحل مقررة ومؤكدة ـ كان منها الترغيب الأخروي في سورة الدهر ـ: ما يؤكد ضرورة تعميق المشاعر الإيمانية عند الفرد، وتنمية الحوافز الذاتية عنده، بحيث يجمع إلى بذل الجهد والمنهجية في العمل: تطلعاً صادقاً إلى ما عند الله الكريم المنان، وما وعد عباده المتقين في الآخرة. ولا يخفى أنه إذا حصل ذلك: هانت الصعاب وانحلت العقدة الكبرى.

وإشارة لا بد منها.. إلى العهد المدني

لقد كنت عازماً على أن أتوقف عند الذي رأينا من تباشير الوجهة الإسلامية في بناء المجتمع من خلال عدد من معالم الكتاب العزيز في العهد المكي وفي العهد المدني، وأترك الكلام على الخطوط العامة في العهد المدني بعد أن أصبح للدعوة سلطان تسوس به المجتمع بأحكام الإسلام إلى فرصة أخرى، ولكن الرغبة في التكامل حملتني على أن أعاود الإشارة ـ ولو بإيجاز لأن الأمثلة تكاد تعز على الحصر ـ إلى هذا الذي حارب فيه الإسلام تلك المظالم الاجتماعية التي كانت جاثمة على صدر المجتمع في الجاهلية، وما أرسى من قواعد أحسنت إحكام العلاقة بين الحقيقة وبين رحلة البناء في حركة الفرد والجماعة، وبث الحياة في كثير من الطاقات التي عطلها الظلم الاجتماعي وفساد العلاقات بين الناس في تلك المجتمعات التي كانت ترزح تحت سلطان الجهالة والضياع.

وها نحن أولاء ننظر في هذا الجسر المبارك الممتد زمنياً بين السورة التي ذكر فيها الماعون وما جاء في سُوَرِ الإسراء، والروم، والقلم، والحاقة، والمدثر، والفجر بشأن الفقراء واليتامى والمساكين، وما يتصل من ذلك بسبب، وبين الآيات المدنية لنرى ما جاء حول ذلك الأمر الجلل في تلكم الآيات التي تنزلت في العهد المدني، وكيف أن ما جاء في العهد المكي ومع بداية التحرك الإسلامي: كان بداية الطريق، طريقِ الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي وغيرهما في ظل هداية الكتاب العزيز ومعالمه المضيئة المباركة.

ولعل من الخير أن أذكِّر بما قلته سابقاً من أننا عندما نتحدث عن معالجة القرآن للمظالم التي كانت تنزل بالفقير والمسكين واليتيم ومن على هذه الشاكلة، لا يعني ذلك حرص الإسلام على بقاء المسكين ـ مثلاً ـ على حالة لا يريم فيها عن الفقر والعوز!! لا ـ بل العكس هو الصحيح ـ ولكنه علاج الواقع بدافع من الحقيقة وامتثال المكلفين لأوامر الشريعة التي كرمّت الإنسان.

وإذا كانت شريعتنا توجب أداء الحقوق لأصحابها من ذوي الحاجات، لأن ما يعطّونه حقٌّ في المال وليس تفضلاً؛ فلأن يجري العمل على تضييق هذه الدائرة ورفع مستوى المعوزين بحيث تندفع حاجتهم، ويُسهمون في بناء المجتمع وهم كذلك: يكون أولى، وأحرى بمرضاة الله عز وجل، والتناسق مع أهداف الإسلام الإصلاحية في البناء.

أولم يحصل في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ يرحمه الله ـ وقد تولى الخلافة بعد ثغرات وهنات ـ أن نفراً من عماله شرعوا يشكون إليه أنهم لا يجدون فقيراً يعطونه الزكاة، لما أن الأمور سارت سيرها الطبيعي، وبلغ الاستمساك بأحكام الشريعة وآدابها في التعامل مع من هم بحاجة إلى المعاونة والإحسان: أن لا يظل في المجتمع من هم على هذه الحال من الفاقة والعوز، وتحوّلوا بفعل التعاون المجدي ابتغاء مرضاة الله إلى طاقات فاعلة تأخذ مكانها في مجتمع العقيدة وأخوة الإسلام؟.

وأنه عندما خاف بعض عماله على نقص الموارد بسبب دخول كثير من غير المسلمين في الإسلام أجابه بحزم منور بنور الدعوة إلى الله: «إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً»؟!.

وفي عود على بدء: علماً بأن المقام ليس مقام تفصيل ـ فلذلك مواطنه ومظانه، ولكن بإشارة سريعة لا غنى عنها، ونظرة عجلى ـ يرجى أن تؤدي غرض التنبه إلى ما بين العهد المكي وبين العهد المدني من صلة امتداد وتكامل فيما نحن بسبيله من قضية البناء الكبرى ـ نرى في الآيات المدنية عدة شُعب كريمة تتعلق ببُنى المجتمع وإقامتها على صورة تضمن القوة والاستمرار، وفي هذه الشعب ما هو وثيق العلاقة بتلك الأصناف من أبناء المجتمع من حيث الرعاية الدائمة، والعمل على تأهيلهم للخروج إلى مستوى العطاء والقدرة على الإسهام في البناء المطلوب.

فمن شعبة ترتبط بتشريع الزكاة، وشعبة تكشف عن تشريع الغنائم والفيء، وما إلى ذلك، وأخرى ترتبط بتشريع الكفاءات وما إليها، ناهيك عن تلك التي عمادها القرض الحسن، وإنظار المعسر، والإنفاق في سبيل الله وإغاثة الملهوف، ومعاونة من تجب معاونتهم، على اختلاف العناوين والأوصاف. ولا تسل عن تلك الشعب التي تتعلق بصنوف من أعمال الخير التي منها صلة الرحم، وأداء الحقوق، وتلمس طرق الخير هنا وهناك؛ كل أولئك بباعث من الإيمان والتصديق بما وعد الله عباده المنفقين المحسنين.. وهكذا ولست بسبيل الاستقصاء!!.

ففي سورة «التوبة» ــ مثلاً ــ تحدَّد مصارف الزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام ومن هذه المصارف: الفقير والمسكين وابن السبيل؛ ذلكم قول الله جلت قدرته: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وفي شأن الغنائم وأصحاب الحق فيها: نقرأ في سورة «الأنفال» قول الله جلت حكمته: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾. أرأيت إلى موقع اليتامى والمساكين على هذه الساحة؟.

وفي شأن الفيء وسعة ساحة العطاء حتى لمن يأتون من بعد: تطالعنا سورة الحشر بقول الله سبحانه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

إنها الأحكام التي تخالط الحياة، فتعمل بمنهجية لا يعوزها التكامل على إنشاء واقع تحكمه ضوابط رسالة الإسلام وأخلاق الإسلام؛ فيكون المجتمع الأمثل الذي يجمع إلى إحكام البنية الحضارية: روح الطاعة الخالصة لله.

وليس من مكرور القول التنبيه على ما يجد الناظر في كل من أحكام الزكاة، وأحكام الغنائم والفيء: من أن ما يعطاه الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل ـ كما هو في الغنائم والفيء ـ حق لازم ينأى عن التفضل والاختيار ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

ولا يخفى ما لارتباط هذه الأحكام بكلام الله عز وجل: من أثر في طمأنينة الفرد وإحساسه بكرامته، وفي تنميته حوافز العمل الخيِّر في أعماق نفسه، كما لا يخفى انعكاس ذلك على بُنَى المجتمع الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

ثم إنه ما بدٌّ من تذكر أنه مع تطور الحياة والأعراف: تنوعت الحاجات ومواقعها وأساليب سدِّها؛ والمهم أن تكون لدينا العزيمة الصادقة في أن تأخذ الحقيقة التي ندندن حولها، مكانها الطبيعي في بنية الحياة الاجتماعية محسنين تصور ما لذلك من أثر على البنية الاقتصادية وغيرها.

والشريعة بحمد الله يُسْرٌ وبعد عن الحرج؛ ففي شأن الزكاة مثلاً أي صنف من الأصناف المذكورة في الآية وجد: يُعطى، وإن لم يوجد: ففي غيره خير وبركة، وعلى سبيل الإيضاح: تنص الآية على واحد من مصارف الزكاة - وهو المؤلفة قلوبهم - أولئك الذين كان يتألفهم رسول الله ﷺ والدعوة لم يشتد ساعدها بعد: فالآية تنص على أن يعطى هؤلاء جزءاً من الزكاة وفي عهد عمر رضي الله عنه، توقف هذا المصرف من مصارف الزكاة: لأن عمر - ومعه أهل الحل والعقد - لم يجد ما يسمى «بالمؤلفة قلوبهم» ولا تلتفت إلى المستغلين والمتجاهلين الذين يزعمون أن الفاروق رضي الله عنه عطَّل النص وهو من ذلك براء، وما فعله كان الفقه كلُّه، والتدين الصادق كلُّه في هذه المسألة والحمد لله!.

البناء.. والتنبيه المبكر وسورة الماعون

« ١ »

بداية التحرك الإسلامي، تطل تباشيرها على أرض الجزيرة العربية ـ ومعركة العقيدة هي المعركة ـ والدعوة جادَّة في هدم الوثنية واستئصال آثارها المدمرة من النفوس، والتمكين لعقيدة التوحيد التي راحت تواجه ـ مع عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع ـ خضوعاً لموروثات جاهلية تعمل عملها ـ على كل صعيد ـ في إفساد العقول والقلوب، وعكوفاً على شتى الصور من الكهانة والعرافة والخرافة، وتقليداً أعمى للآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؛ الأمر الذي يعطل عمل العقل ويبعث على الكسل الفكري والاسترخاء النفسي، ويلقي على الفطرة ستاراً كثيفاً من المعوقات.

والوحي يتنزل على رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه، والآيات المكية لا تني تدعو المشركين إلى إعمال عقولهم ونبذ التقليد الأعمى، واطِّراح الأعراف التي تحلل وتحرم وفق الأهواء الجاهلية، والتفكر في آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، والنظر إلى حكمة الخلق في الكائنات من حولهم، وتوجيه أنظارهم إلى ما حصل للأمم السابقة مع رسلهم؛ حيث فاز المصدقون المستجيبون للدعوة الهادية برضوان الله، وأصابت الآخرين القوارع، ونزلت بهم صنوف العذاب والتنكيل جزاءً بما كانوا يصنعون، والوعيد بما سيكون مصير الكافرين يوم القيامة، وإقامة الأدلة على أن هذا اليوم واقع لا محالة، والرد على تخرصات المتعنتين حول إمكان وقوعه.

ومن المهم حقاً: أنه مع بداية هذا التحرك ـ والحال كما وصفنا بعضاً من مظاهرها وصورها ـ وجدنا نثارات من الضياء تهدي فيما تهدي إليه: أن الاهتمام بأمر العقيدة الربانية وإزالة الركام الوثني من نفوس الأفراد وبنية المجتمع: إنما كان

بداية الطريق لبناء مجتمع فاضل أمثل على أساس من هذه العقيدة، يتسم بالتراحم والتعاون على الخير بعيداً عن أوضار الجاهلية، ويُعنى شديد العناية بتنمية طاقات أبنائه في ضوء مقاييس الهداية والبر التي تطرحها الكلمة الطيبة، «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ألم تر إلى ما تشرق به سورة «الماعون» التي تنزلت على قول الأكثر في هذا العهد المبكر من عمر الدعوة: من تنديد بمن يكذب بالمعاد والجزاء والحساب، ويتخذ موقفاً نابياً من التعاون على البر والإحسان إلى الضعفاء؛ فهو يدعُّ اليتيم: يدفعه بعنف عن حقه بدل أن يواسيه ويحسن إليه ولا يقتصر على عدم إطعام المسكين، بل لا يحضُّ على ذلك إن لم يتوافر له القدرة على الإطعام.

ثم انتقلت السورة ــ على وجازة كلماتها وهذا من الإعجاز ــ إلى التنديد والوعيد بالويل لأولئك المصلين الساهين عن صلاتهم الذين يراؤون، ويَغُلُّونَ أيديهم عن فعل الخير وتقديم المعونة لإخوانهم في المجتمع.

ذلكم قول الله جل وعز: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

وحصول هذا الذي نومىء إليه من الاهتمام بحسن التعامل بين أبناء المجتمع، ووجوب أن لا يكون اليتم أو المسكنة سبباً في عزلة نفسية قاهرة، وحرمانٍ لهذا المجتمع من عطاء هذا اليتيم أو ذلك المسكين.. إن حصول هذا الاهتمام ــ مقترناً بقضية كبرى من قضايا العقيدة وهي الإيمان بالجزاء والحساب، وفي عهد مبكر من عمر الدعوة، والفتنةُ عن الدين تطارد كل من آمن بالدين الجديد، وكلمة الحق مضطهدة محاصرة.. ــ ذو دلالة بعيدة المدى، ومغزىً عميق يشعر بهذه الوحدة بين العقيدة والسلوك وبين إحكام بنية المجتمع على قوة الحق والعطاء في منهج الإسلام.

فمن أول يوم تمهَّد الأسس ــ وحياً من عند الله ــ لا لبناء الفرد فحسب، ولكن لبناء الجماعة والمجتمع وإن كان الوقت لم يحن لبروز هذا المجتمع إلى حيز الوجود. ومع البناء إشعار الفئة القليلة المؤمنة: أنها بإيمانها وصبرها على تمثل الدعوة التي تدمى الأقدام على طريقها. إنما تتجه نحو إنشاء ذلك المجتمع الأمثل القدوة، طال الزمن في تحقيق ذلك أو قصر. وكل حركة في هذه الحقبة المبكرة اليوم سيكون لها الصدى المؤثر في قادمات الأيام إن شاء الله. وهذا ما حصل ولله الحمد والمنة.

وهكذا لم يكن بعيداً عن التصور في عقل المسلم وقلبه: أن الحال التي كانت عليها الفئة القليلة المؤمنة، هي مرحلة على طريق طويل بدءاً بالإيمان والصبر على مقتضياته، وسوف ينتهي ببناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة في الدنيا، وبالظفر بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين في الآخرة.

من أجل هذا كان مطلوباً في ظل الدعوة الخيرة التي يصبرون ويصابرون تحت رايتها أن تحافظ الجماعة على الطاقات الفاعلة كلها، كيما تكون في خدمة الفرد والمجموع على حد سواء، وهذا لا ينافي أن الإنسان هو المحور دائماً في موضوع كهذا.

وكون القاعدة التي يراد أن يبنى عليها المجتمع: هي الإيمان بنوره الوضّاء وفعاليته البانية المؤثرة: أمر واضح ينفي أي واحد من تلك التفسيرات المادية التي تحاول أن تخضع ما حصل قبل قرون وقرون، لضوابط لا تمت إلى الإيمان القلبي والروحانية بصلة. وفي ذلك ما فيه من الطاعة للهوى والجهل بطبائع الأشياء.

ثم إن جعل المادة هي المحور في مثل هذا الموضوع العميق الجذور المتشعب الأطراف، وما كان له من أثر في التبدل الحضاري: يدل على انتماء التفسير المادي للتاريخ والوقائع: إلى اليهودية والفكر اليهودي.

ولنا عودة إلى المعلم القرآني الذي نسعد بالرحلة معه، وما يحمل من الدعوة المبكرة إلى بناء المجتمع بناءً متكاملاً، وتنمية طاقاته البشرية والمادية في ظل عقيدة التوحيد.

البناء.. والتنبيه المبكر وسورتا الماعون والفجر

«٢»

نعود ــ والعود أحمد ــ إلى السورة التي يذكر فيها الماعون، والتي رأينا ــ ونحن نجمل القول في معناها العام: أنها ــ على وجازة كلماتها ــ تؤذن بالبداية المبكرة لعملية البناء الكبرى؛ فقد طلعت علينا ــ وهي سورة مكية عند الأكثر ــ بالمعلم القرآني الذي يوحي بأن التمهيد لبناء مجتمع أمثل يتكافل أبناؤه ويتضامنون على أساس من عقيدة التوحيد: ظهرت تباشيره منذ العهد المكي أي في حقبة مبكرة من عمر الدعوة، وقبل أن يكون للفئة القليلة المؤمنة سلطان يخضع معه المجتمع لعقيدتها وتسوسه بشريعة تنتمي انتماءً جذرياً إلى تلك العقيدة، وأنى لها ذلك في تلك الحقبة والأذى يطارد أفرادها من هنا وهناك، ومحاولة الفَتْنِ عن الدين بوسائل لا تمت إلى المعنى الإنساني بصلة قائم صباح مساء! وهذا نص السورة المباركة مرة أخرى.

يقول الله جلَّ وعز: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

إن هذه السورة بآياتها القصار الست: تجعل الذي يكذب بالدين وهو يوم الميعاد والجزاء والحساب: هو الذي يقهر اليتيم، ولا يطعمه، ولا يحسن إليه؛ وليس هذا فحسب: بل يظلمه حقه ويؤذيه. والمراد باليتيم: الصبي الذي مات أبوه، وتعريفه هنا للجنس أي يدعُّ اليتامى، وكذلك تعريف المسكين كما سيأتي.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد من استبدال الأذى والظلم بالعطف والإحسان: بل إن هذا المكذب بيوم الحساب والجزاء: يبلغ من نكده وسوء تعامله أن لا يقتصر على عدم إطعام المسكين، بل لا يحضُّ على ذلك أيضاً. علماً بأن هذا المسكين تبلغ به الحاجة أن يكون من الفقر بحيث لا شيء له يقوم بأوده وكفايته. على أن نفي الحض على إطعام المسكين: نفيٌ لإطعامه بطريق الأولى.

والذي نراه في هذه السورة المباركة من التنديد بهاتين الخصلتين عند بعض الجاهليين يذكرنا بالنظير في قوله تعالى في سورة «الفجر» ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

ففي هاتين الآيتين: خطاب واضح للمشركين بأنهم لا يكرمون اليتيم ولا يأمر بعضهم بعضاً ـ عن طريق الحض ـ بالإحسان إلى الفقراء والمساكين.

وما قلناه من قبل عن إرادة الجمع باليتيم والمسكين: يقال هنا؛ لأن المراد جنس اليتيم، وجنس المسكين؛ فليس المقصود يتيماً بعينه، ولا مسكيناً كذلك، ولكن المراد تبيان هذه الحقيقة وهي أن عند هؤلاء المقصودين: هذه الخليقةُ السيئةُ الهابطة في التعامل مع اليتامى والمساكين.

ومن بديع النظم في الكتاب العزيز الذي تؤدي بلاغته المعجزة وظيفة إثارةِ الاهتمام بما سيُلقى، وإشعارِ القارىء والسامع بالأهمية البالغة للموضوع الذي تتناوله الكلمات، وشدِّه إلى التعجب من صنيع من يقع في المساءة ويجترح ما يتنافى مع العقل السليم والحق.. أقول: من بديع النظم في هذا القرآن: أن السورة بدئت بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ خطاباً للنبي ﷺ بهذا الاستفهام المثير المشوِّق.

فأنت واجد أن الاستفهام ـ كما يقول العلماء ـ في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالمعاد والجزاء، وما أورثهم هذا التكذيب من سوء الصنيع في تعاملهم مع اليتامى والمساكين؛ فالتعجيب واقع من تكذيبهم بالدين وما تفرَّع عليه من قهر اليتيم وظلمه حقَّه، وعدم إطعامه والإحسان إليه، وعدم الحض على طعام الفقير الذي لا شيء يقوم بأوده وكفايته.

وقد صيغ هذا التعجب من حال هؤلاء المسيئين ـ اعتقاداً وسلوكاً ـ مع الآخرين: في نظم مشوِّق؛ لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول وهي ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾. يذهب بذهن السامع مذاهب شتى في تعرُّف المقصد بهذا الاستفهام الذي صُدِّر به الكلام.

وإنما كان ذلك: لأن التكذيب بالمعاد والجزاء شائع فيهم ـ وما أكثر ما حجَّهم القرآن الكريم ببراهين وقوعه ـ فلا يكون هذا التكذيب مثاراً للتعجب، وبذا يترقب السامع ماذا يَرد بعده، وهو قوله: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

ولا يخفى أن في الكلمة القرآنية الهادية في هذه السورة المباركة: تنبيهاً على فساد ما عليه أولئك المكذبون بالمعاد، وأن هذا التكذيب حملهم على ما يقترفون من سوء الصنيع مع من تجب معاونتهم والإحسان إليهم، لأنهم من أولى الناس بذلك.

إنه السلوك المشين، وفقدان الحس الجماعي بعمل الخير، مع أن حال كل من اليتيم والمسكين يستدعي غير الذي كان يصنع هؤلاء المكذبون بيوم الدين.

هكذا تكشف سورة الماعون عن بعض مظاهر الفساد والظلم في المجتمع الجاهلي، بهذا الأسلوب الرائع المثير للسليم من العقول.

وقد سبقت الإشارة إلى ما يؤكد وجود تلك المظاهر من سورة «الفجر»، غير أن الكلام في هذه السورة سورة الماعون جرى مجرى الحديث ـ كما أسلفنا ـ عن جنس الذين يكذبون بالدين، ويسيئون لليتامى والمساكين في الطابع العام، فجاء اللفظ مفرداً ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ ...﴾.

وفي سورة الفجر خوطب القوم جماعة وبأسلوب رادع زاجر﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ ولكن في السورتين: اللفظ مفرد والمراد الجنس.

ومهما يكن من أمر: فالاقتران واضح بين التكذيب بيوم الدين، وبين تلك الأخلاق الذميمة التي هي عنوان التخلخل في المجتمع، وعدم قابليته للنماء؛ وإذاً فقد جعل الكفر من المتسربلين بظلماته مخلوقاتٍ تجف بداخلها ـ في الأعم الأغلب ـ نوازع الخير، وتنمو على حسابها نوازع الظلم والشر وهذا لا ينافي وجود جزيرة مضيئة أحياناً في بحر الظلمات.

وحين يسلك المجتمع هذه الطريق، ولا تتمعَّر وجوه أبنائه لعوامل التفكك وخلائق الأذى، يخسر مرتين: أولاهما: ما خسره من وقع عليهم الظلم وجوبهوا بالإساءة، وهو أنفسُهم عندما حرموا من المعاونة الكريمة والأخذ بأيديهم إلى ما هو الأكرم من رفعهم إلى المستوى الذي يجعلهم أقدر على العطاء. الثاني: خسارة ما يمكن أن يقدمه هؤلاء على صعيد البناء والإنماء عندما يعيشون أسوياء لا تثبط هممهم العقد النفسية والتشاؤم.

إنها الجاهلية التي تعوق مسيرة الخير، وتعطل إمكانات النمو الإنساني والمادي في المجتمع وذلك ما أنكره الإسلام من أول يوم.

وليس من مكرور القول أن نعود إلى تأكيد أن هذا كله يدل أوضح الدلالة على وجهة الإسلام الإنسانية المثمرة في بناء المجتمع، كيما يقوم هذا المجتمع على أسس سليمة تضمن ـ مع الإيمان ـ التعاون والتكافل بين من يضمهم هذا المجتمع، بحيث يأخذ القوي بيد الضعيف، والغني بيد الفقير، والعالم بيد الجاهل.. إلى آخر السلسلة.

وهكذا نرى أن مجتمعاً كهذا لا يهان فيه يتيم ولا مسكين، ولا تفقد فيه الجماعة بواعث التعاون على كل ما يعود على الفرد والجماعة بالعزة والمنعة والنماء، وأن يحض الناس بعضهم بعضاً على فعل الخير، فيحصل القيام بالإحسان إلى الفقير، والأخذ بيد الضعيف حتى ينال كلٌّ ما يقوم بأوده وكفايته، بل يتحول ذلك ـ بمنهجية ـ إلى تغيير حال أولئك الفقراء والضعفاء والمحرومين، ويضمون إلى التحسُّن في أحوالهم، أن يصبحوا لبنات قوية في جسم المجتمع لا تني تعطي وتقدم ـ بعون الله ـ المزيد.

وجميل ما فهمه بعض العلماء من أن في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ أمراً بالإحسان إلى اليتيم. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

البناء.. والتنبيه المبكر سورتا الماعون.. والفجر «٣»

إن الذي أخذته الآيات الكريمات في السورة التي يُذكر فيها الماعون، على المشركين من التظالم الاجتماعي الذي يضاعف خسارة المجتمع على صعيد البناء والنماء، كان مقترناً ـ كما رأينا فيما سبق من القول ـ بالتكذيب بيوم المعاد والجزاء والثواب يوم الدين.

والمفهوم الواضح النيِّر لذلك، أن الإسلام: من صُلب دعوته القائمة على التوحيد: الإيمانُ بيوم الدين؛ فله وجهة أخرى في بناء الفرد والمجتمع، يبني الفرد على العقيدة التي تتواءم مع فطرته، ويفسح له مجال القدرة على العطاء، وفي الوقت نفسه يبني المجتمع على أسس سليمة تضمن التعاون والتكافل، ومُجتمعٌ كهذا، لا يُهان فيه يتيم، ولا تفقد فيه الجماعة سمة التعاون على الخير، وأن يحث الناس بعضهم بعضاً على فعله، صورةً عن نمو الحسّ الجماعي، وأن الفرد في خدمة المجتمع، وأن المجتمع في خدمة الفرد، والكل تسيِّرهم من الأعماق مُثلٌ كريمة، تحملهم إلى استمرار البناء وتعاظمه، ونمو إمكانات الفرد والجماعة في الدنيا، والفوز بمرضاة الله في الآخرة، في ذلك اليوم الذي آمنوا به من أول الطريق.

ومن ثمرات ذلك: أن يحصل عكس ما هو واقع في المجتمع الجاهلي؛ فلا يقهر يتيم ولا يظلم فقير، ومن لا يستطيع معاونة المعوز الفقير: يحض غيره على ذلك، وعندها لن تجد ذلك الفقير الذي لا يتسنى له ما يقوم بأوده وكفايته، وترى طاقات المجتمع وقد برزت إلى الوجود، وأعطت عطاءها على كل صعيد.

ومن الخير أن نذكر ـ ونحن نقول ذلك ـ ما سبقت الإشارة إليه من أن علماءنا فهموا من قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ أمراً بالإكرام له، كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام البخاري من رواية سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة**، هكذا وقال بإصبَعَيه السَّبابة والوسطى [الفتح: ٤٣٦/١٠]. قال ابن بطال: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك.

والحديث رواه أبو داود بلفظ: «**وقرب بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام**» [٣٥٦/٥]. كما رواه الترمذي بلفظ «**أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين**» وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح [٣٢١/٤].

وأنت واجد أن منهج الإسلام في مواجهة المجتمع الجاهلي ـ بما كان يحمل من التناقض والمظالم ـ: يضمن ربح المجتمع مرتين: المرة الأولى حين لا يُشعر من قعدت بهم أسباب الحياة لأمر معين من يتم، أو فقر أُصيبوا به أو معوِّق نالهم: أنهم دون المستوى في الجماعة؛ وهذه صورة من سلامة البناء والقدرة على النمو في المجتمع. المرة الثانية حين يتحقق تكافؤ الفرص لهذا اليتيم وذاك المسكين ومن كان على شاكلتهما، فيتاح لهم أن يثبتوا وجودهم فيكونوا قادرين على العطاء، وكم في ذلك من إسهام في نمو المجتمع على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، ناهيك عن الاستقرار النفسي الذي له ما له ـ بعد الإيمان ـ من أثر في وضع المواهب والإمكانات موضعها.

ولا نعني هنا ـ في هذه العجالة ـ ونحن نتحدث عن سورة الماعون ـ أن يكون من قعدت به أسباب الحياة في موضع تلقي العون دون أن يعمل، بل إن المجتمع المسلم مطالب أن يقدم المستطاع ـ تنهيجاً وعملاً ـ ليكون لكل فرد من أفراده

فاعلية في ظل حياة كريمة تستعلي فيها إنسانيته لأن الله أعطاه ذلك. وقد رأينا في كلمات سلفت، من خلال الإطلالة الإنسانية في سورة الضحى: تذكير النبي ﷺ بما أنعم الله عليه عند اليتم والحاجة والتطلع إلى الحقيقة، وكيف جاءت التوجيهات من بعدُ درساً للمسلمين في التسامي الذي يحقق الحياة الأكرم والأفضل في مجتمع العقيدة ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ الذي يسألك عن أمور دينه ودنياه ﴿فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

وفي خاتمة المطاف: كان لا بد من الإشارة ــ ونحن نسعد بالرحلة مع سورة الماعون: إلى سورة الفجر وسورة الضحى وهي لمحات تدل على ما وراءها إن شاء الله.



البناء.. والتنبيه المبكر وسورة الماعون

« ٤ »

هذه السورة الكريمة التي تنزلت في العهد المكي بآياتها القصار الست التي لم تتجاوز ستة وعشرين كلمة منها الواو في ﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ قد أعطتنا بشكل مبكر صورة تقرِّب ما يراد للمجتمع المسلم أن يكون عليه من سمات التكامل، بعد تنزيهه عن شوائب الجاهلية وأخلاق المكذبين بالدين.

ولقد رأينا في آياتها الأولى إنكاراً لما كانت عليه الجاهلية من تظالم في المجتمع يتمثل في قهر اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين، وارتباط ذلك بالتكذيب بيوم المعاد يوم الدين، وأن الذي يكذِّب بيوم الدين هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه، ولا تتحرك في نفسه نوازع الخير فيحث على طعام الفقير الذي حرم حتى مما يقيم أوده وكفايته.

وكان ذلك مؤشراً هدانا إلى وجهة الإسلام فيما يجب أن يكون عليه المجتمع ضماناً لقابلية النماء واستمرار البناء سليماً معافى.

ونحن واجدون بعد ذلك: تهديداً ووعيداً بالويل للمصلين الذين يقعون في السهو عن القيام بعبادة الصلاة بالكلية، أو عن فعلها على ما ينبغي في الوقت المقدر لها شرعاً، أو عن وقتها الأول، فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو في الأعم الأغلب، أو يتهاونون في أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، أو عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها. تلك أقوال للعلماء واللفظ يشمل ذلك كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك فله قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم له نصيبه منها ــ كما يقول الحافظ ابن كثير ــ وكمل له النفاق العملي، يشهد

لذلك ما ثبت في الصحيحين ــ والكلام على صلاة العصر ــ من رواية أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»**.

وهؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون يفعلون ما يفعلون مراءاة للناس لا ابتغاءً لوجه الله تعالى: **﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾** [النساء: ١٤٢].

وأي خير يؤمل في هؤلاء لأنفسهم أو للمجتمع؟ إنهم عناصر هدم لا عناصر بناء، وهم دائماً معوِّقون لمسيرة الفلاح التي تنشدها الأمة. وهم يضمون إلى ذلك كله: أنهم يمنعون الماعون؛ فهم على حال لا أحسنوا فيها عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، فتعاونوا مع الآخرين تعاوناً يعود عليهم وعلى المجتمع بالخير، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم بعد أن ينتفع به الآخرون.

وإذا كان الأمر كذلك في الإعارة، فهم لمنع الزكاة وأي نوع من أنواع البذل والقربات في المال أو النفس أولى ــ والعياذ بالله ــ

ومهما تعددت أقوال العلماء بالمقصود من الماعون: فهذا الخُلق في هؤلاء المعوَّقة قلوبهم صورةٌ عن جفوة الخير، وفقدانِ المسؤولية الجماعية، والحسِّ المشترك بين أبناء المجتمع الواحد. وهذا مرفوض في مجتمع العقيدة في الإسلام ــ كما يؤمل أن يكون ــ

وهكذا تتكامل الصورة: المكذب بيوم الدين، يقهر اليتيم ولا يحض على طعام المسكين. الساهون عن صلاتهم يراؤون ويبخلون بتقديم أبسط لون من ألوان التعاون مع الآخرين، وكل ذلك من دواعي الفساد والإفساد وتعويق البناء والسخاء.

وعندما يذكُر القرآن ذلك بمعرض الذم والنقمة ــ وفي العهد المكي ــ حيث الشدة الشادة على الفئة القليلة المؤمنة، وحيث تقضي الضرورة بناء وتثبيت عقيدة التوحيد.. يكون هذا دليلاً على سمة البناء المجدي والحرص على التنمية عند الفرد

والجماعة في الإسلام؛ إذ لم تصرف شؤون العقيدة عن مؤشرات لسمات المجتمع الذي يجب أن يكون نتاج هذه العقيدة. ولا بدع في ذلك، ودعوة الإسلام هي دعوة الحياة للفرد والمجتمع والأمة.

وجميل ما كان من صاحب «الكشاف» من تجليته لعطاء هذه الآيات الكريمات تجليةً تزيد من القدرة على تبين مراميها وأبعادها على الوجه النافع الذي نحن بصدد الوصول إليه. ذلكم قوله: (هل عرفتَ الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه «فذلك الذي» يكذب بالجزاء هو الذي «يدعُّ اليتيم» أي يدفعه دفعاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة وقرىء «يَدَع» أي يترك ويجفو. «ولا يحض» ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين).

ثم قال رحمه الله: (جعل عَلَم التكذيب بالجزاء: منعَ المعروف والإقدامَ على إيذاء الضعيف، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله تعالى وعقابه، ولم يقدم على ذلك!! فحين أقدم عليه: عُلم أنه مكذب.

فما أشدَّه من كلام، وما أخوفه من مقام، وما أبلغه في التحذير من المعصية، وأنها جديرة بأن يستدلَّ بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين.

ثم وصل به قوله: «فويل للمصلين» كأنه قال: فإذا كان الأمر كذلك: فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قِلةَ مبالاة بها حتى تفوتَهم، أو يخرج وقتها ولا يصلُّونها، كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف، ولكن ينقرونها نقراً من غير خشوع وإخبات، ولا اجتناب فيها لما يكره من العبث باللحية والثياب، وكثرة التثاؤب، والالتفات؛ لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف، ولا ما قرأ من السور؛ كما ترى عادة من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم، ومنع حقوق أموالهم.

والمعنى: إن هؤلاء أحق بأن يكون سهوُهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك، ومنعُ الزكاة التي هي شقيقة الصلاة، وقنطرة الإسلام: علَماً على أنهم مكذبون بالدين، وكم ترى من المتسمين بالإسلام، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة فيا مصيبتاه) الكشاف: [٤/٢٣٦].

البناء.. والتنبيه المبكر.. سورة الماعون وأختاها

« ٥ »

في واحد من مؤشرات الحرص في المنهج الإسلامي في البناء، على تجنيب البنية الاجتماعية ـ بل والاقتصادية ـ عوامل الضعف والتخلخل: قدمت لنا السورة التي ذكر فيها الماعون، وآيتان من سورة الفجر في العهد المكي قبل أن يكون قياد المجتمع لدعوة الإسلام، كما حصل ـ بحمد الله ـ في العهد المدني.. قدمت لنا الكلمات الهاديات في السورتين ما يكشف عن مدى الارتباط بين التكذيب بيوم الدين، يوم المعاد والجزاء والحساب، وبين الانحراف المخزي في السلوك الاجتماعي السليم، وما يكشف عن الأثر السيء للانفصام بين العبادة والسلوك؛ وكان لذلك صورتان:

أولاهما ـ صورة ذلك المكذب بيوم الجزاء؛ فهو يمثل عنصر الخيبة، والتسبب بتعطيل عدد من الطاقات والفاعليات في نفسه وفي المجتمع؛ لما أنه فاقد الرحمة، خشن التعامل مع الضعفاء، عديم التعاون مع الآخرين، ذلك التعاون الذي يعود عليه وعليهم بالنفع وإحكام البنية في شتى وجوهها وصورها.

إنه يدور في فلك الأنانية ناسياً أن الأرزاق بيد الله، وأن المال مال الله، وأن الإنسان الضعيف أو المعوز له حق طبيعي في مال المعافى من العوز والضعف.

من هنا كان من العدل الإلهي المطلق إنزال العقوبة الصارمة يوم القيامة، وهي عقوبة تشعر بأن الجزاء من جنس العمل، ذلكم ما جاء في سورة الحاقة في شأن من أحاطت به خطيئة وأوتي كتابه بشماله من قول الله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ

﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧].

ومن بديع النظم القرآني أن كلمة «إنه» أشعرت بالتعليل لما قضي عليه من العقاب، وهو تعليل على طريق الاستئناف وهو أبلغ؛ كأنه قيل: ما له يعذب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بذلك.

وتستوقفك البلاغة القرآنية الفذّة حين ترى أن في قوله تعالى: ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ دليلين قويين على عظم الجرم في حرمان المسكين: أحدهما ـ عطفه على الكفر وجعله قريناً له ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ الثاني ـ ذكر الحض دون الفعل؛ ليُعلم أن ترك الحض بهذه المنزلة ـ كما يقول صاحب الكشاف ـ فكيف بتارك الفعل؟.

أما الصورة الثانية: فهي صورة أولئك الذين هم عن صلاتهم ساهون؛ فالويل لهم: إنهم مراؤون في عبادتهم وأعمالهم، أعداء لأنفسهم ظالمون لها ـ في الحقيقة ـ وللناس، إنهم لا يبضّون بقطرة خير، حتى لو كانت إعارة الماعون، وهم أشبه بالطفيليات في جسم المجتمع، تمتص خيراته، وتعوق نماءه، وتعرّض بنيته لمخاطر الانقضاض، وترى فيهم أنموذج التخالف بين العبادة والسلوك، الأمر الذي يذكر بقول الشاعر:

سارت مشرِّقةً وسرت مغرِّباً ... شتّان بين مشرِّقٍ ومغرِّبُ

ومعلوم أن الحفاظ على المتمع من الثغرات التي يمكن أن تدبَّ إليه لسبب أو لآخر، وضمانُ نجاح العملية التنموية فيه: لا بد لهما من الانبعاث الذاتي إلى الخير في كل الميادين والأنشطة. كما لا بد من الشعور بأن الإنسان الفرد ليس وحده في المجتمع الذي يتفيأ ظلاله، ولكنه لبنة في لبنات الجماعة التي يشركها بوجوده فيه.

وكل أولئك مطلوب لتحقيق الإفادة من الطاقات والفاعليات على اختلاف التخصصات والاتجاهات، وإلا كان ذلك عبئاً على المجتمع بدل أن يكون قوة دفع، وتطوير إلى ما هو الأفضل والأقوم مادةً ومعنًى.

أما هؤلاء الذين ذكرتهم الآيات في سور الماعون والفجر والحاقة: فهم أنانيون يطوِّفون حول ذواتهم ويطوِّفون، حتى كأن الحسَّ الإنسان معطَّل في أعماقهم.

وليس بالأمر الهيِّن أن ينزل الله في هذا الصنف وأمثاله من الناس ـ وما تزال الدعوة تخطو خطواتها الأولى وهي مغلوبة على أمرها ـ قرآناً يتلى إلى يوم الدين، وبأساليب متنوعة.

على أن هذا لا بد أن يذكَّر بما يزيد الأمر وضوحاً على ساحة الاهتمام الذي ينبىء عنه التنزل القرآن في هذه القضية؛ إذ بعد قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ فكأن هذه من تلك!! وسبحان منزل هذا الكتاب العليم بخبايا نفوس عباده، القادر على أن يكون الخطاب في هدايتهم على أفضل مستوى من مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

مرة أخرى: إن على المسلمين ـ وعلى شفاه الكثيرين منهم في مشارق الأرض ومغاربها إعلان الولاء لكتاب الله وما تخط معالمه وبيانها من السنة من سبل الهداية ـ أن يدركوا بعمقٍ مدى دلالة هذا المؤشر الذي ندندن حوله في العهد المكي، وما يعنيه من أن هداية القرآن: لم تفرط ـ من أول الطريق ـ في شيء من أمر البناء الذاتي الذي يراد في ضوء دعوة الإسلام للفرد والمجتمع والأمة، وأن عنوان وعي الأمة وصدق ولائها للدين، وصحة انتماء أبنائها إلى شريعة سيد المرسلين: أن تكون ـ تصوراً وعملاً ـ عند الذي تشرق به هداية الفرقان الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا بد أن تخرج القضية بمنهجية عن ساحة الموعظة المجردة، إلى ساحة يكون فيها أخذ هذا الكتاب بقوةٍ في المقدمة من سلَّم الاهتمامات والأولويات؛ بحيث يتاح ـ منهجياً وعملياً ـ لكلمة الله أن تصوغ حياة الأمة، وتقيم المجتمع على أرسخ الجذور؛ الأمر الذي يضمن ـ بعون الله وتوفيقه ـ سلامته من اختراق عوامل التخلخل والضعف، وقدرتَه على العطاء سليماً معافىً من بواعث الميوعة والانحلال التي أصابت تلك المجتمعات التي أسقطت من حسابها سلطان الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فشقيت وأشقت، وأحلَّ أصحاب النفوذ فيها قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار.

إنها مسؤولية كل مسلم يملك الأهلية، وبخاصة أولئك القادرين على إحداث النقلة من حيز الموعظة ـ مع أهمية هذا الحيِّز ـ إلى ميدان الصياغة العملية التطبيقية، وترجمة المبادىء إلى حركة فاعلة يبتغى بها وجه الله، وبناءٍ يراد له أن يكون بناءَ خيرٍ ورشد يُسعد أهله في الدنيا ويوم الدين.



ولم نك نطعم المسكين البناء.. والبداية المبكرة وسورة المدثر

« ١ »

الذين يُقدرون الأهمية البالغة لعملية البناء السليم للمجتمع، وما ينبغي لذلك من الإحكام ومراعاة الأسس السليمة، كيما ترتفع قواعد هذا البناء على الصورة المطلوبة، كما يقدرون تمتين الروابط بين أبناء المجتمع كيما يكونوا ــ وهم يكدحون في بناء الحياة ــ عناصر نمائه في مختلف المجالات، وطاقات الرقي به إلى ما هو الأكمل والأفضل.

الذين يقدُرون ذلك كله بإحاطة وإدراك: يشاركوننا الحكم بأهمية نظرة الإسلام المبكرة ــ التي أسعدنا اصطحابها من قريب ــ إلى جانب من جوانب هذه العملية، قبل أن توسَّد إلى هذا الدين سياسة المجتمع بكل شؤونه ليُحكَم بما أنزل الله، وما لذلك من دلالة لا تقبل الشك، على أن القرآن الحكيم الذي يهدي للتي هي أقوم: هو كلام ربنا العليم الخبير، نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ ليكون من المنذرين، وأن شرعة الإسلام هي شرعة مالك الملك سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح عباده، وما هو خير لهم في دنياهم ويوم يبعثون. وليست هذه الشرعة ــ على ما يزعم أهل التفسير المادي للتاريخ ــ تمخضات أرضية لأوضاع اجتماعية واقتصادية معينة، نادى بها مصلح في الأرض كان من المجنيِّ عليهم في تلك الأوضاع، نداءً مقطوع الصلة بالسماء، وأن ما طرحه من مقولات وأفكار تتصل بالدين: إنما هي عناوين مناسبة لما أراد من ذلك الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي. وهي عناوين ومصطلحات اقتضتها بيئة وظروف معينة.

أجل: ليست هذه الشرعة المباركة كذلك: وإنه لزعم تسقطه النصوص والوقائع جملة وتفصيلاً، وقد ظهر عواره أكثر وأكثر عند التطبيق العملي. وجل شأن ربنا القوي العزيز إذ يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤].

هذا: ومن أبجديات ما يقتضيه الإيمان: اعتقاد أن كتاب الله يهدي لأقوم السبل، ويسلم الأمة إلى أفضل وأكرم المناهج؛ ذلكم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾[الإسراء: ٩ ـ ١٠].

وفي حديث موصول بما سلف من القول فيما دلت عليه آي الكتاب ـ وبخاصة ما أشرقت به سورتا الماعون والفجر ـ من تباشير الإصلاح الاجتماعي الذي له كبير الأثر في ميدان الاقتصاد، وتوفير الانتفاع بالطاقة البشرية.. أود أن أشير إلى أن ما ذكر ـ على سبيل الإنكار والتعجب لوجوده ـ من صفات لتلك العناصر المهلهلة التي تزعزع البناء وتعوق النماء: لا بد لاستجلاء الحكم عليها بما لها من سوء الأثر في المجتمع، والمخالفة عن صيغة التعامل الإنساني بين الإنسان وأخيه الإنسان.. من الاستنارة بما ورد في شأنها من سوء العاقبة لأصحابها يوم العرض الأكبر على رب العالمين.

ففي كلام طيب مبارك على مسؤولية كل نفس بما كسبت، وما تكون عليه حال المجرمين في نار السعير سقر: نقرأ في سورة المدثر ـ وهي من أوائل ما نزل في العهد المكي من القرآن ـ أن واحداً من أسباب شقوة هؤلاء الذين يتقلبون في الجحيم: أنهم كانوا لا يطعمون المسكين؛ ذلكم قول الله جل وعز: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[المدثر: ٣٨ ـ ٤٧].

قال الحافظ ابن كثير: أي ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا [٢٩٨/٨]. هكذا أجاب المجرمون بذكر أسباب إلقائهم في النار؛ لأنهم ما ظنوا إلا ظاهر الاستفهام ـ كما يقول صاحب «التحرير والتنوير» فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا وهي: أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة، فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله. وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين؛ وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقهم في المال.

وأنهم كانوا يخوضون خوضهم المعهود الذي لا يعدو عن تأييد الشرك وأذى للرسول ﷺ وللمؤمنين.

وأنهم كذبوا بالجزاء، فلم يتطلبوا ما ينجيهم. وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب لمتام التحسُّر والتلهف على ما فات؛ فكأنهم قالوا: لأن لم نكن من المؤمنين؛ لأن أهل الإيمان اشتهروا بأنهم أهل الصلاة، وبأنهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وبأنهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين، ويصدقون للرسل. وقد جمعها قول الله تعالى في فواتح سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

ويلاحظ هنا ارتباط هذه الخصال الذميمة التي اعترف بها أصحابها من أهل النار، موقنين أنها من أسباب ما يلقون من العذاب المهين في سقر.. يلاحظ ارتباطها بالتكذيب بيوم الدين ارتباطاً يشي بالتلازم بينها كالذي رأينا ـ من قبل ـ في السورة التي يذكر فيها الماعون.

ولما كانت الحقيقة تذكّر بأختها: فلنذكر هنا ما جرت الإلماحة إليه فيما سبق: من يكون من شأن من يؤتى كتابه بشماله ـ كما تحدثت سورة الحاقة ـ وكيف أن مآله شر أنواع العذاب في الجحيم؛ إذ نجد من أسباب شقوته أيضاً: أنه كان ـ مع ما هو متسربل به من ظلام الكفر نسأل الله السلامة ـ لا يحض على طعام المسكين.

ولنعد إلى ذكر الآيات الكريمات في ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧].

قال علماؤنا في تذكير بروعة الأسلوب القرآني في الدلالة على المراد: بأن جملة ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ في موضع العلة للأمر بأخذ هذا الذي أوتي كتابه بشماله وإصلائه الجحيم.

ومن بديع النظم القرآني: ووصف الله تعالى هنا بالعظيم؛ إذ في ذلك إيحاء إلى مناسبة عظيم العذاب للذنب، لأن الذنب كان كنراناً بعظيم؛ فكان جزاءً وفاقا.

والملاحظ أن نفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ أنه لا يطعم المسكين من ماله؛ فالمعنى: لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه.

وقد كان أهل الجاهلية مع ما يتصفون به من الكرم في المناسبات: لا يطعمون الفقير إلا قليلاً منهم. وقد جعل عدم الحض على طعام المسكين ـ وهو من ذميم الخصال في التعامل مع الضعفاء ـ مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين حتى بمال غيره، وكناية عن الشح عنهم بماله.

قال العلامة ابن عاشور: (وإذ قد جعل عدم حضه على طعام المسكين جزءَ علة لشدة عذابه: علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها). «التحرير والتنوير» [١٢٨/٢٩ ـ ١٣٩]. ويا سبحان الله كيف جُعل الجزاء من جنس العمل؛ فالاستهانة بطعام المسكين أو الحض عليه في الدنيا: جعلت الغسلين طعام ذلك الجاني في الآخرة.

هل لي بعد هذا أن أقول: إن أبواب الخير مفتحة على مصاريعها أمام المسلم ـ أن لو عقل من بيدهم التنهيج ومن بيدهم التنفيذ ـ لبناء المجتمع المتكافل المتعاون على أساس من الإيمان بالله واليوم الآخر، وأكرم بمنهج القرآن منهجاً يجمع بين العقيدة والأخلاق، وبين الدنيا والآخرة.

خطوة أخرى.. مع البداية المبكرة وسورة الإسراء والروم «٢»

خطوة أخرى في العهد المكي، حيث لم يكن للدعوة سلطان أو مؤيد تنفيذي، وفي ضوء المؤشرات المبكرة للإصلاح الذي ينشده الإسلام في المجتمع، تمهيداً لإقامة بناء الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها على نهج مبرء من أوضار الجاهلية وأعراف الجاهليين، وذلك بإحكام ارتباطه بعقيدة التوحيد التي تكرِّم الإنسان، وتوجهه وجهة ما مثلها من وجهة في تحقيق ما من أجله خلق الإنسان.

وبعد الذي رأينا من إنكار القرآن لظاهرة الظلم الاجتماعي في المجتمع الجاهلي، وتعجيبه منها، ولانعزالية الفرد عن التعاون على الخير ممثلاً في تقديم العون لمن قعدت بهم الأقدار عن اللحاق بركب الآخرين، وفي الإسهام بتنمية الطاقات الخيِّرة في المجتمع؛ الأمر الذي ذكَّر القرآن من خلاله العاقبة السوء والعذاب الأليم لأولئك الذين يستبدلون الإساءة إلى من هم أهل للمعاونة والبر: بالإحسان والأخذ بأيديهم إلى مستوى الكرامة الإنسانية والقدرة على العطاء، حيث يحمل ذلك ما يحمل من الخير لهم وللمجتمع!!.

أقول: خطوة أخرى في العهد المكي، وفي ضوء ذلك كله تأخذ بأيدينا ـ في نقلة من ساحة الإنكار والوعيد ـ إلى تقعيد قواعد ورسم مبادىء يظلها المنهج الرباني؛ وذلك ما نجده في الأمر بإيتاء ذوي الحقوق حقوقهم، بعيداً عن كل تصرف فيه مظلمة لأحد، أو إضاعة للمال بالسرف والتبذير وغيرهما، وأن يكون تحرك الفرد في المجتمع: تحرك أداء الحقوق مصحوباً بالإحسان والعمل الصالح، مع التعاون على كل ما فيه خير الفرد والجماعة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نقرأ في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من سورة الإسراء ــ وهي سورة مكية ــ قول الله جل ذكره: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

أرأيت إلى هذا المنهج الإصلاحي الفريد منذ بداية الطريق؟! الحقوق مصونة، والفرد مطمئن ــ حسب الأسباب المتخذة ــ إلى يومه وغده بكلمة الله. وإيتاء كلٍّ من ذي القربى والمسكين وابن السبيل ما هو له من الحقوق واجب بأمر الله عز وجل، والمخالف عن ذلك مخالف عن أمر الله متبع لخطوات الشيطان! ويا لها من مخالفة سوء واتباع أسوأ!!.

وإذن فأداء هذه الحقوق لأصحابها الذين تلفُّهم حالة من الضعف: ليس تفضلاً من أولئك الأغنياء الأقوياء، ولكنه واجب أوجبه الله تبارك وتعالى الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، والمال ماله، والرزق من عنده سبحانه.

وتلك هي ضمانة الاستقرار في المجتمع من هذه الناحية، وهي طاعة لا يشي بها حقد ولا ضغينة، ولكن يبعث عليها امتثال أمر الله واجتناب نهيه اتقاءً له وطلباً لمرضاته جل شأنه.

ثم إن تبذير المال ــ الذي توعّد الله عليه بعد أن أمر بالإنفاق وأداء الحقوق ــ خصلة منهي عنها بنهي الله تبارك وتعالى ــ والنهي يقتضي التحريم؛ فالوقوع في حمأة التبذير بالتزيد المذموم، والإنفاق غير المنضبط بالضوابط السليمة ــ عدا عما فيه من إضاعة المال والإساءة إلى اقتصاد الفرد والمجتمع ــ: وقوع فيما نهى الله عنه وهو ارتكاب المحرَّم والعياذ بالله، وانسلاك في أخوة الشياطين؛ فالمبذرون إخوان الشياطين، وهم يرضون ذلك لأنفسهم، مع أن الشيطان كفور لربه ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

ومن بلاغة القرآن: أن ما ختمت به الآية يوجب الحذر من متابعة الشيطان والتشبه به في الفساد والإفساد، وفي ذلك ما فيه من بعث القوة النفسية والإرادة الإيمانية بامتثال ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه من التبذير الذي يمل ما يحمل منه التشبه بالشيطان واتباع خطواته.

قال الحافظ ابن كثير: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي جَحوداً، لأنه أنكر نعمة الله ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفة أمره [تفسير القرآن العظيم] (٦٦/٥).

ولا يخفى أن العلاقة وثيقة بين التبذير والإسراف؛ فكما أن المبذرين إخوان الشياطين، فإن الله تعالى لا يحب المسرفين وكفى بذلك وعيداً أيَّ وعيد!! يقول الله تعالى في سورة الأعراف ــ وهي سورة مكية ــ ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وإذا كان السرف تجاوزَ الحد في كل فعل يفعله الإنسان: فهو في الإنفاق أشهر، ونهى الله عن ذلك ــ كما نرى ــ شديد النهي.

وقد جاءت السنة بما يقرر ذلك ويؤكده؛ من ذلك ما روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: **«كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير مَخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»**[1] ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ ــ واللفظ للنسائي ــ قال: **«كلوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة»**[2] ولفظ ابن ماجه **«كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مَخيلة»**[3]. والمخيلةُ: الخُيَلاء.

(١) «المسند»: (١٨٢/٢) وانظر: (١٨١/٢).
(٢) «سنن النسائي» – المجتبى-: (رقم ٢٥٥٩).
(٣) «سنن ابن ماجه»: (رقم ٣٦٠٥).

وهكذا تجد أن مما تهدي إليه المعالم القرآنية في الآيات الآنفة الذكر: صيانةَ التمتع بنعم الله تعالى عن التبذير والإسراف، الأمر الذي يتصل بالناحيتين الاجتماعية والاقتصادية أوثق اتصال.

وفي سورة «الروم» ـ وهي سورة مكية أيضاً عدا الآية الأخيرة منها ـ يأخذ الترغيب في أداء الحقوق المنوه عنها في سورة «الإسراء» مداه، حين يجعله القرآن عنوان من يريدون بصنيعهم، ويبشرهم بأن هذا الأداء خير لهم، وبأنه ـ وهو كذلك ـ صورة حقيقية لأهل الفلاح؛ ذلكم قول الله جلَّ وعز: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾[الروم: ٣٨].

وفي استيفاء لما يرمي إليه المنهج القرآني من الإصلاح، ترغيباً وأمراً بالبذل وأداء حق الضعفاء وصلة الرحم، وترهيباً مما هو من الفساد والإفساد على ساحة تثمير المال: نرى أنه لما جرى الأمر بالإحسان وبذل المال صلةً للرحم وإغاثة لذوي الحاجة وبيان ما في ذلك من الصلاح للفرد والجماعة، أعقب ذلك التنفير من ضرب آخر من إعطاء المال لا يرضى الله عنه، يبعث عليه الحرص على جمع المال وتثميره الأمر الذي يعمل عمله فساداً وخلخلة للبنية الاجتماعية والاقتصادية: وهو أكل الربا الذي كان متفشياً في الجاهلية وصدر الإسلام وبخاصة في ثقيف وقريش، ولا يخفى أن هذا النوع من التعامل هو من أبشع الصور التي تمتهن فيها الأخوة الإنسانية بين الناس، وتحدث ما تحدث من الحقد والبغضاء واضطراب القيم.

فلما أرشد الله المسلمين إلى أمر مهم في بناء المجتمع المسلم، وهو مواساة أغنيائهم فقراءهم، وصلة الأرحام، ومعاونة ذوي الحاجة، أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكف عن المعاملة بالربا للمقترضين منهم؛ ذلك بأن المعاملة بالربا تنافي المواساة والتعاون على الخير؛ لأن شأن المقترض أنه ذو قلة، وشأن المقرض أنه ذو جدة؛ فمعاملة المقترض منه بالربا: انتهاز لحاجته، واستغلال لاضطراره وذلك لا يليق بالمؤمنين، ويتنافى مع التعاون الأخوي على بناء مجتمع تسوده المرحمة وتتوافر له عناصر النماء والعطاء.

ويجوز أن يكون لفظ «ربا» في الآية منحازاً إلى المعنى اللغوي، فيكون قد أطلق في الآية على الزيادة في مال المعطى له المال، أي إعطاء المال لذوي الأموال قصدَ الزيادة في أموالهم تقرباً إليهم، بمعنى أن المال يعطى لغير المحتاج كي يزيد ماله، وبذلك يحظى لديه من أعطاه الزيادة بالقرب والإيثار ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[الروم: ٣٩].

وهذا يشمل هبة الثواب، والهبة للزلفى والملق. وعندها يكون الغرض من الآية التنبيه على أن ما كانوا يفعلونه من ذلك في الجاهلية، لا يغني عنهم من موافقة مرضاة الله تعالى شيئاً، بل إن نفعه لأنفسهم!.

وقد جنح إلى هذا المعنى كثير من المفسرين، ويساعد عليه كون الآيات مكية؛ فيصير المعنى: وما أعطيتم من زيادة لتزيدوا في أموال الناس، فلا يربو عند الله ولا يزكو. ولكن الذي يضاعف ويزكو هو ما كان عطاءً لوجه الله. وذلك صريح قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي أولئك الذين كُتِبَ لهم الأجر وحصل لهم إضعاف الثواب عند الله.

وكان من بلاغة النظم القرآني: الإتيانُ باسم الإشارة في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ إذ دلَّ ذلك على التنويه بهؤلاء الذين أرادوا بعطائهم وجه الله، والدلالة على أنهم أحرياء بالتوفيق والفلاح.

هكذا كانت نثارات الضياء هذه في العهد المكي: بداية الطريق لعملية بناء كبرى، لم تقتصر على ميدان في المجتمع دون ميدان؛ أزالت الركام الجاهلي، وحركت في الإنسان نوازع الخير المرتبطة بالعقيدة، ودفعت إلى معركة التنمية والبناء أناساً كانوا قبل الإسلام طاقات موضوعة في غير موضعها الطبيعي، بل ضائعة أحياناً في متاهات الأعراف الجاهلية والتظالم.

وإنها لعبرة تقود ـ على صعيد الواقع ـ إلى استئناف السبيل الأقوم بجدية لا تزيغ عن منهج الهداية في كتاب الله وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وبعد: فتلكم واحدة من صور الهداية في معالم الكتاب الكريم التي تحقق ما ينبغي للسلامة في قواعد البناء، ومنهجية استمراره معافىً من الأذى، في محاصرة لكل السلبيات التي يتكوَّن منها نذير الخطر بانحلاله وشلِّ حركته عن العطاء.. إنها خطوات منهج متكامل لبناء قويم متكامل. ولربنا الحمد كلُّه على نعمة الإسلام!!.



هدم وبناء.. صورة أخرى.. سورة الفجر... والنساء

لم تكن الصفات التي كشفت عن واحد من الجوانب المظلمة في المجتمع الجاهلي، والتي هي حريَّة بأن تعوق التقدم واضطراد النمو.. هي كلَّ ما أُسند في الكتاب العزيز لأولئك الذين كانوا في عقيدتهم وسلوكهم ـ على مختلف الأصعدة ـ عنوان هذا الجانب المظلم الذي يتجافى عما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان في ذلك المجتمع.

أجل: لم تكن تلك الصفات التي صحبنا ـ من قريب ـ بعض النصوص المباركة الناطقة بها، كلَّ ما أسند إليهم من ذلك؛ بل هنالك نصوص عدة تؤذن بصفات أخرى لا تقل خشونة عنها.

ها هي ذي سورة «الفجر» تصفهم بصفتين أخريين تزيدان الأمر وضوحاً، وتؤكدان محاصرة الدعوة ـ في الميدان الفكري على الأقل ـ لكل ما من شأنه الظلم، وتعويق مسيرة الخير التي تنشدها الفطرة ـ أن لو كانت هنالك مسيرة كهذه ـ وإحداث الثغرات في الصفوف:.. تؤكدان مع زيادة الإيضاح أن ذلك مطلب هام على هذه الطريق.

نجد ذلك في قوله تعالى ـ خطاباً للكافرين في هذه السورة ـ: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ جاء ذلك بعد قوله سبحانه: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ والأكل اللمُّ للمال: هو الأكل معصية، فهم يأكلونه عاصين بأكله.

وهكذا أتبعت كلمة الردع «كلا» بأربع خصال هي: عدم إكرام اليتيم، وعدم التحاض ــ أي أن يحضَّ بعضهم بعضاً ــ على طعام المسكين، وأكل التراث أكلاً لماً، وحبُّ المال حباً جماً، وانظر كيف قدمت خصلة عدم إكرام اليتيم هنا، دليل المزيد من استنكارها، والإشعار بالتنديد بها في مقدمة تلك الخصال التي كلها مدعاة التنديد والاستنكار.

والأسلوب القرآني الفريد في هذا اللون من الهداية يذكرنا قوله تعالى خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

قال الحافظ ابن كثير عند الكلام على قول الله جل شأنه: (﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب عن يحيى بن أبي سليمان، عن زيد بن أبي عتاب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه. وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه**» ثم قال: ــ بأصبعيه ــ «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»، وقد أوردت من قبل ما روى أبو داود وغيره من قوله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**». وقرب بين أصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام).

والحق أن أكل التراث ــ وهو الإرث هنا ــ أكلاً لماً: يعني أنهم كانوا يأكلون الإرث من حلِّه ومن غير حلِّه؛ لأن المهم عندهم أن يحصلوا على المال؛ فهم يحوزونه من أي جهة أتاهم دون قيد في الحكم أو الخُلُق.

ومعروف أن المجتمع الجاهلي كان راضياً عن حرمان أفراد أسرة الميت، وأولي رحمه وقرابته من إرثه مهما كانت درجة قرابتهم لصيقةً به؛ ما عدا أولئك الأشداء القادرين على الدفاع عن القبيلة وحماية الذمار؛ فهؤلاء ــ بما توافر لهم من هذا السبب ــ هم الذين يحتازون التركة كلها. أما النساء والأطفال ــ ذكوراً كانوا أو إناثاً ــ: فليسوا من إرث متوفاهم في قليل ولا كثير.

وهذا أمر يتشابك فيه - كما هو الملاحظ - الجانب الاجتماعي بالجانب الاقتصادي؛ فمما لا ريب فيه أن الإرث على هذه الطريقة الجاهلية ــ طريقة ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ من عوامل التفكيك، وإشاعة الظلم الاجتماعي، والشعور بالاغتراب من داخل الأسرة نفسها، الأمر الذي يولّد - مع الشعور بالظلم والعدوان على الحق ــ تنمية النزعة الفردية المرتبطة بالمصلحة الذاتية دونما نظر إلى الآخرين؛ لما أنه من الناحية الاقتصادية - أيضاً - عامل من عوامل تمركز الثروة على حساب العدالة، وجعل الفقر يصيب أهل الاستحقاق الآخرين؛ ظلماً وعدواناً. إذاً ما ذنب الطفل في أن يحرم من الإرث لأنه طفل، وما ذنب المرأة في أن تحرم من الإرث لأنها امرأة؟!.

هذا: ولم تكن طويلة تلك الرحلة الزمنية التي امتدت بين الكشف عن تلك الخصلة المرضي عنها لدى المشركين في المجتمع الجاهلي ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ - وكان الخطاب فيها للجماعة - وبين ما أنزل الله جل شأنه بعد بضع سنين في العهد المدني بعد الهجرة من آيات في سورة النساء: تضع نظاماً كاملاً للتوارث يتسم - مع الإجمال - بكثير من التفصيل في الأنصباء والحقوق؛ فقد حدّد أسباب الإرث ونوع القرابة التي ترث، كما حدّد موانع الإرث، وأعطى حق الإرث للرجال والنساء والصغار والكبار الذين تتوافر فيهم أسباب الإرث وتنأى عنهم موانعه؛ فهم يستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض لكل منهم بالنصوص، لأن كل أولئك جاؤوا بأنصباء محدّدة، بشكل مفصّل، وما لم يفصَّل في الكتاب العزيز فصَّلته السنة إلى اجتهاد للعلماء - فيما بعد - يتعلق بدلالات النصوص وتشعبات حالات الإرث. حتى إنك لتستطيع القول جازماً الجزم كلَّه بأنه لو لم يكن من الأدلة على أن القرآن كلام الله وليس من كلام البشر. إلا آيات الإرث في سورة النساء لكفى بذلك خير دليل على هذه المقولة المباركة اليقينية.

فأين هذا النظام الرباني الحكيم من عبث الجاهلية والجاهليين الذي تضيع معه الحقوق، ولا يحسب فيه لإنسانية الإنسان حساب؟!.

لقد كان ما جاء به الكتاب العزيز في سورة النساء المدنية من نظام الإرث صورة من الصور التي علّمت الأمة كيف يكون التهيج الصحيح للبناء، وسلكت بها الطريق الإيجابية البانية في الإصلاح، تلك الطريق التي تقوم على تهيئة الإنسان من داخل نفسه لقبول ما هو صالح واستنكار ما هو فاسد، وإزاحة الركام الفاسد، وإقامة البديل الصالح المناسب.

لقد نعى الله على الجاهليين أنهم يأكلون التراث أكلاً لمّاً، وعندما تكونت الجماعة المؤمنة، وأصبحت الدعوة قادرة على تسلم زمام الحكم وقيادة المجتمع طريقاً لبناء الدولة، نزل الوحي بتلكم الآيات التي تفصّل نظام التوارث على النحو الذي أشرت إليه إشارة عجلى لا يتسع لأكثر منها المقام لأن تفصيل ذلك موجود في مظانّه من كتب التفسير والحديث والفقه، وما كتب حول ذلك من بحوث وقام به القادرون المؤهلون من دراسات!!

وقد بدأت تلكم الآيات الكريمة بالآية السابعة من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ الآيات.

روى الطبري عن سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ...﴾ الآية، قال الحافظ ابن كثير: (أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض لكل منهم، بما يدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء؛ فإنه لحمة كلحمة النسب).

وإلى أن نلتقي على متابعة هذه الرحلة مع معالم الكتاب في هذه القضية الاجتماعية الاقتصادية الكبرى: أرجو أن يكون لأهل المعرفة والثقافة فينا عزيمة القراءة الجديدة المتأنية لتاريخ هذه الدعوة الإسلامية المباركة، فيما هدمت من الباطل، وفيما بنت من صروح الحق على طريق الإنسان، وفيما كان من منهجيتها المعجزة وإيجابيتها الفريدة في الهدم والبناء.

وطوبى لمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وجنة الخُلد مشتاقة طلابها العاملين المخلصين!

نظام الإرث.. الإنسان.. والبناء وسورة النساء

« ١ »

في حديث موصول بالكلام على ما صحب الدعوة من تنديد بما عليه الجاهليون من الظلم وكيف كانت المرحلة التنظيمية في العهد المدني: وجدنا أن نذارة القرآن لسكنة الجاهلية في العهد المكي ظلمهم وجفوتهم للإحسان بقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ تحولت بمنهجية تكرم الإنسان وتحفظ الحقوق في العهد المدني ـ حين أصبحت كلمة الإسلام هي التي تقود المجتمع ـ إلى تشريع يحكم الناس وينظّم شؤون التوارث فيما بينهم، الأمر الذي يتسق مع نظرة الإسلام إلى الإنسان ذكراً كان أو أنثى وتقعيد القواعد التي ترتفع بالفرد والجماعة إلى إعطاء كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص.

وسبب نزول آيات الإرث يقفك على عملية التغيير، تحويلاً إلى ما هو الحق والحفاظ على إنسانية الإنسان، كما أراد ربنا تبارك وتعالى، فأين الظلم وأكل الحقوق بضوابط جاهلية، من العدالة الإلهية وإعطاء كل ذي حق حقه، ذكراً كان أو أنثى، صغيراً، أو كبيراً. روى ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت أم كحّة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء وأنزل الله تعالى في سورة النساء: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴿٧﴾﴾.

هكذا تنصُّ الآية على أن حق الإرث كائن للذكور والإناث جميعاً؛ فهم متساوون في أصل الوراثة ولكلٍ نصيب مفروض فيما قلَّ أو كثر من المال الموروث، وقد يتفاوتون بحسب ما فُرض لكل منهم في نظام الإرث.

وهذه المرأة ـ كما نرى ـ كان ذووها ـ والله أعلم ـ لا يريدون توريث بنتيها ولا توريثها مطلقاً؛ بناء على أن الجاهليين ـ كما أسلفنا من قبل ـ يجعلون المال للرجال الكبار ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، عملاً بضابط القدرة على حمل السلاح والدفاع عن الحوزة. وروى الإمام أحمد أن امرأة سعد بن ربيع رضي الله عنه جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك في يوم أُحُد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا تُنكحان إلا ولهما مال. قال عليه الصلاة والسلام: «يقضي الله في ذلك» فنزل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ١١].

وبعد: فسبحان العليم بما يصلح عباده. لقد كان جسر البناء متصلاً بين العهدين المكي والمدني، فالاستنكار في العهد المكي تُرجم إلى تشريع ينظِّم حالات التوارث كلها في العهد المدني، حيث انتصرت راية الحق، وأخذ المجتمع الأمثل طريقه إلى الوجود العملي.

هذه القضية جزء من نظام فريد في دنيا الإنسان هو نظام الإرث في الإسلام، ولا عليَّ أن أعود إلى ما قلت آنفاً من أنه لو لم يكن من دليل على أن القرآن من عند الله إلا تلك الآيات التي فصلت أحكام الإرث في سورة النساء، بمنهج فريد متميز لم يسبقه أيُّ نظام قبله، ولا لحقَ به نظام بعده.. أقول لو لم يكن من دليل على أن القرآن من عند الله إلا تلك الآيات لكفى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء: ٨٢].

تلك هي سمة البناء الحكيم، وتلك هي طريقة القرآن في تنمية فاعلية المجتمع وإعطاء كل ذي حق حقه لتدور عجلة العمل والعطاء، كما ينبغي.

أجل بعيداً عن المظالم التي تفوق مسيرة الخير وتقهر الإنسان. وإنها لقواعد مبرأة عن الخلل والظلم، أرستها معالم الكتاب العزيز على منهاج لم يدع في حراسة الحق وكرامة الإنسان والحفاظ على كيان المجتمع المسلم، في الاجتماع والاقتصاد وتحقيق التكافل والتضامن: زيادة لمستزيد.

المهم أن نستهدي بهديها، وأن نفيد من زاد التجربة عطاءً في ظلها واعتزازاً بسلطانها. والله الهادي إلى سواء السبيل.



نظام الإرث.. الإنسان والبناء وسورة النساء

«٢»

أجدني مضطراً بين حين وآخر إلى التذكير بأني أعرض للقضية التي يوحي بها المعلم القرآني بالقدر الذي يحتمله المقام، تاركاً التفصيل لمظانه، انسجاماً مع العنوان العام لتلك القضايا التي تشرق بها الكلمة الهادية في الكتاب العزيز، وفي بيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وإن كان الأمر الأخير غير مطّرد.

من هنا كان الذي ألمحت إليه فيما سلف من القول حول نظام الإرث في شريعتنا المباركة: مقصوراً على التذكير بالخطوط العامة لهذا النظام الذي تنزل به الكتاب العزيز بديلاً لخليقة سارية في الجاهلية المستحكمة، والضاربة على القلوب والعقول بالأسداد عند العرب وغيرهم وهي الظلم في التوارث، وجاء التنديد بتلك الخليقة تحت العنوان الذي يتلوه التالي وله بكل حرف عشر حسنات؛ ذلكم قول الله جلَّ ذكره في سورة «الفجر» خطاباً لمشركي قريش: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ وذلك بعد قوله سبحانه: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ فالجاهليون لا يكرمون اليتيم، ولا يحث بعضهم بعضاً على طعام المسكين، ويتوارثون وفق عرف جاهلي مقيت...

والذي ما بدَّ من التنبيه عليه ـ ونحن نستهدي لما نريد من سلامة البنية، بشتى فروعها وصورها في المجتمع، ونماء طاقاته الفاعلة المنتجة ـ: هذا التفصيلُ الذي يقع عليه المرء في الكتاب العزيز لأحكام الإرث؛ فترى النصَّ على الثلثين، والثلث، والنصف، والربع، والثمن، والسدس، وحكم إرث الكلالة وما إلى ذلك، ناهيك عن التفصيل في الورثة، ومواقعهم من التركة. ناهيك عن أسباب الإرث، وموانع الإرث، وكل ما يتصل بذلك.

والعهد قريب بما روى الإمام أحمد في المسند من واقعة امرأة سعد بن الربيع رضي الله عنها وبنتيها حيث احتاز العم ـ بعد استشهاد سعدٍ ـ التركة لنفسه دون الزوجة والبنتين، على ما كان في العرف الجاهلي، ونزل قول الله تعالى في الآية الحادية عشرة من سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

والآية الثانية عشرة التي تلي هذه الآية، وكذلك الآية الأخيرة من سورة النساء تسيران على النسق نفسه من هذا البيان المعجز.

يقول الله تبارك وتعالى في الآية التي تلي: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

وتطالعنا الآية الأخيرة من هذه السورة المباركة ـ والقرآن مبارك كله ـ بقوله جل ذكره: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

ولشدّ ما يزيدك هذا التفصيل الذي تناول كل نصيب بعينه حسب الموقع الذي يأخذه صاحبه من التركة.. لشدّ ما يزيدك يقيناً بأحقية هذا الكتاب الذي تنزل وحياً من السماء، وبصلاحية هذه الأحكام للعباد ـ أن لو استقاموا على الطريقة في الأخذ بها ـ وأنت واجد أن لهذا الأسلوب المعجز في بيان تلك الحقوق مغزاه ـ والله

أعلم ـ في الحفاظ على حقوق الوارثين بدءاً من القناعة الإيمانية وانتهاء بالقضاء والتنفيذ، وذلك بعد الفوضى الجاهلية في العالم، وسلطان ضوابطها الظالمة؛ حيث الحقوق مهدرة، وبخاصة ما يتعلق منها بالنساء.

وطرائق الإرث في جاهلية هذا العصر تؤكد هذا الذي نقول؛ حيث تفردت الشريعة الإسلامية في المقابل: بأن الأحكام التفصيلية للتوارث ـ إلا ما ندر ـ قد أوحي بها نصاً إلى رسول الله ﷺ.

وهكذا شاء المولى سبحانه أن يكون وعاءُ تلك الأحكام آياتٍ مباركات في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أنزلها بواسطة جبريل عليه السلام على نبيه المصطفى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان ذلك في المجتمع الذي يقهر فيه الحق ويظلم عند التوارث النساء والأطفال، ويحتاز الأقوياء الأشداء تركة الميت وفق أهوائهم دون نظر إلى أي اعتبار آخر.. والأنكى من ذلك أن هذا الصنيع المنحرف كان لا يتنافى عندهم مع الكرم والبذل في وجوه أخر.. ولكنها الجاهلية!!.

والحق أن لهذا التفصيل الذي نومىء إليه قصة تتعلق بأحكام القرآن جملة، ومنهج هذا الفرقان الحكيم في التشريع؛ فقد جاءت أحكام وفيرة في القرآن وطابعها طابع الإجمال والعموم ـ وهذا من حكمة ربنا جل جلاله وله سبحانه الحكمة البالغة ـ وجاءت السنة بتفصيل المجمل، وقد تُقرر، وقد تؤكد، وقد تخصص العام، وتقيد المطلق.. إلى غير ذلك من ألوان البيان الذي أؤتمن عليه النبي صلى الله وسلم وبارك عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فالمبيَّن: القرآن الكريم ـ وهو الوحي المتلو ـ وبيانه: السنة المطهرة وهي الوحي غير المتلوّ؛ والناظر في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التي تزخر بها دواوين السنة المطهرة يجد ـ بيسر ـ مصداق هذا الذي نقول؛ وذلك كما في النصوص التي

تبين أحكام الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وقل مثل ذلك في النصوص التي تبين أحكام المعاملات بين الناس من عقود وغيرها.. وكثير من أحكام الأسرة في الزواج والطلاق والوصية، والإرث ـ على قلة ـ ومثل ذلك: أحكام العلاقات بين الحاكم والمحكوم والولاء والبراء، والعلاقات الدولية، ما للدولة المسلمة وما لغيرها في حالات السلم والحرب مع الدول الأخرى.. وهذا التعداد على سبيل التمثيل لا الحصر والقضايا التي فصلتها السنة ببيان مجمل أو تخصيص عام أو تقييد مطلق وما إلى ذلك كثيرة وفيرة تطلب في مظانها من كتب التفسير والحديث والفقه والأصول.

وإنها لقضية جذرية كبرى أعطت ـ بحكمة الله البالغة ـ شريعة الإسلام قدرة فائقة منسجمة مع مصالح العباد وفطرهم ـ على استيعاب شؤون الحياة وتقديم الحلول للمشكلات الطارئة، والوقائع المتجددة في المجتمع الإسلامي الجديد على سعة الرقعة الإسلامية في الفتوح، وما واجهته الشريعة من موروثات حضارية وأعراف معقدة، حيث لم يكن شيء من ذلك بعائق عن الاستيعاب الذي نومئ إليه، بل لم يحتج الأمر إلى الإعلان عن حِقبة انتقالية للتطبيق.

وغير خاف أن الاجتهاد ـ بحدوده الموضوعية وعدم تجاوزه النصوص ـ قد لعب ـ على يد العلماء الأكفاء والأمناء أئمة الهدى ـ دوراً بارزاً على صعيد هذا البناء التشريعي البالغ الإحكام.

غير أن أحكام الإرث ـ كما رأينا ـ وأحكام الحدود والكفارات وبعض الأمور الأخرى جاءت ـ في الأعم الأغلب ـ مفصَّلةً محدَّدة بنص الوحي إلى الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.

فأنت واجد في كتاب الله ـ مثلاً ـ أن حدّ القتل كذا، وحدّ القذف كذا، وحدّ الزانية والزاني كذا على تفصيل في المحصن وغير المحصن. وقل مثل ذلك في حد الحرابة التي سداها ولحمتها محاربة الله ورسوله والسعي في الأرض فساداً، وفي تحديد الكفارات في الإيمان، والقتل الخطأ، والظهار.. إلى غير ذلك مما لا يحتمل المقام استقراءه.

ولعل الحكمة التي يراها المسلم في تحديد أنصبة الإرث، بعد تحديد أن التوارث ـ في الأصل ـ حق للذكور والإناث والصغار والكبار: هديه إلى الحكمة في الحدود والكفارات.

وإلى أن تتاح فرصة المتابعة لرحلة الانتفاع بهدي المعلم القرآني الذي أضاء لنا هذه الطريق، وذلك بكلمات يقتضيها الكشف عن جانب من جوانب البناء في المنهج الرباني يتشابك فيه الجانب الاجتماعي بالجانب الاقتصادي في ظل الحرص على إنسانية الإنسان كما قرر ذلك الإسلام.. أرجو أن يكون لنا من هذا الوجه من وجوه الهداية في معالم الكتاب الكريم: مزيد من اليقين بأن خالق الإنسان والكون ومبدع سنن الحياة في الوجود: هو أعلم بشؤون عباده وما يصلحهم، الأمر الذي يجعل من شريعته الميمونة سبيلاً أمثل للبناء القويم الأمثل، مهما تعددت جوانب هذا البناء، وأحدث نهر الحياة بتدفقه من ضرورات وحاجات ومتممات.



نظام الإرث.. والبناء وسورة النساء

«٣»

أعود مرة أخرى إلى التذكير بالأهمية التي ينطوي عليها تفصيل القرآن الكريم لأحكام التوارث بين المسلمين وتحديد أنصباء الورثة.. وما لذلك من أثر في الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي في الأسرة والمجتمع؛ ولعل مما يؤكد ذلك ما جاء من الترغيب في التزام هذه الأحكام، لما أنها من حدود الله، والعمل بها طاعة لله ورسوله مجزيَّة عند الله بالرضا الذي هو بغية كل مؤمن، والفوزِ بالجنة في الآخرة، ثم ما جاء من الترهيب من مخالفتها وتجاوزها، لما أن ذلك تعدٍ لحدود الله، وتعدي حدود الله معصية لله ورسوله. وجزاء ذلك جهنم وساءت مصيراً. ذلكم قوله تعالى بعد الآية الثالثة من الآيات التي جاءت على أحكام التوارث في سورة النساء، وذلك في الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي آخر آية من آيات أحكام الإرث في سورة النساء وهي الآية التي ختمت بها السورة، نجد التنبيه الواضح على أن هذا البيان من الله تعالى إنما كان تجنباً للوقوع في الضلال الذي هو تجاوز الحقوق، وما يحدث من آثار سيئة في عالم الأسرة والمجتمع، كما نجد التحذير من سلوك السبل الملتوية التي يراد من ورائها إضاعة حق أو العدوان على نصيب، ذلكم قوله تعالى:﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [النساء: ١٧٦].

هذه واحدة: وأما الثانية: فهي أن المرء لا يكاد يشك فيما يقوله الباحثون ــ وبخاصة الاقتصاديين منهم ــ أن من حكم نظام الإرث في الإسلام، تفتيت الثروة، وعدم تمركزها في يد واحدة كما هو عند الآخرين. وقد أشرت إلى ذلك فيما سبق من القول، ولكن هذا ينبغي أن لا يحول دوننا ودون استشعار الحكمة الاجتماعية بجانب هذه الحكمة الاقتصادية؛ فمما لا ريب فيه أن هذا التنظيم التفصيلي ــ إن صح التعبير ــ لأحكام الإرث وهو غاية الغاية في الدقة، يحدث نوعاً من الحياة في البنية الاجتماعية للأسرة والقرابة بشكل أعم، وهي حياة ترى معها ــ في ظلٍّ أحكام الشريعة ــ لوناً من ألوان الأخذ والعطاء وترسيخ العلاقات التي تكون أمتن وأمتن إذا التزمت حدود الله.

يهدينا إلى ذلك ما جاء في واحد من المعالم القرآنية من أمر بإعطاء الأقرباء الذين لم يكن لهم نصيب من الإرث: حظاً من التركة إذا حضروا القسمة وأن يقابلوا بقول المعروف والكلمة الطيبة. وفي ذلك ما فيه من توثيق عرى المحبة والود، واستلال السخائم من النفوس، وما يحدث من انعكاس خيّرٍ على بنية المجتمع.

فالمطلوب أن يسهم الورثة في رفع مستوى أقربائهم الاقتصادي برغبة جدية صادقة ابتغاء مرضاة الله، وأن يكونوا عوناً لهم في طمأنينة أنفسهم كيما يكونوا قادرين على العطاء، لا يعوقهم عوز أو ضعف، أو وضع مالي معين، عن أن يكونوا لبنات صالحات في المجتمع، وصورة صحيحة عن نموه وتطوره إلى ما هو الأجدر والأولى بمن ينتمون إلى خير أمة أخرجت للناس.

فبعد الآية الأولى من آيات الإرث وهي قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴿٧﴾﴾ نقرأ قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴿٨﴾﴾.

وطبعاً الخطاب للمؤمنين الذين يفترض أن يكون امتثال أمر الله أعزَّ لديهم من مال الدنيا جميعه، كما يفترض أنهم موقنون بالآخرة، وأنه لا ينفع يوم الحساب مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الواقع: إن تفرد الإسلام بخاصية التنظيم الموضوعي الدقيق لشؤون الاجتماع والاقتصاد، بجانب تنمية مشاعر الإيمان واليقين بما عند الله: هو الكفيل ــ أن لو فعلنا وأحسنَّا الاتباع ــ بنقلة جديدة إلى خير مما نحن فيه، خصوصاً وأن ذلك لا يحجز بيننا ــ على طريق التنمية والبناء ــ وبين الإفادة مما عند الآخرين ما دمنا على الجادة فيما تمليه العقيدة وتحكم به مقاصد الشريعة وتوجبه أخلاقية الإسلام. وأين هذا كله مما كانت عليه جاهلية الأمس المتمثلة في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ ثم ما نراه في الحضارة المادية البحتة المبتلاة بالحرج في شأن التوارث بين الأقرباء ومعاونة من لا يرثون!!.



من روافد البناء.. في سورة الفيل

يبدو من حصيلة ما يعطي المعلم القرآني في سورة «الفيل» على هدي التتبع لجزيئات الرحلة التي قادها أبرهة الأشرم، وما كان من المقدمات التي كانت في جانب، والنتائج التي كانت كما شاء الله أن تكون في جانب.. أن مما يوقع في بحران التيه عن الحقيقة، ويسلم إلى التشتت في الحكم على الواقعة التاريخية، والإفادة منها ـ على ساحة البناء ـ عند رصد الوقائع وما تخلف من آثار، ويحول دون تنمية القدرة على تجاوز الصعاب: أن تفسَّر الوقائع بعيداً عن ضوابط العقيدة التي فجَّرت طاقات الإنسان في الإسلام، ودفعت به إلى خضم الحياة طاقة بناءة ـ بإذن الله، على كل صعيد وفي كل ميدان.

وكذلك مما يجعلنا نضرب في حديد بارد، ونسلك الطريق التي تعود على ما نريد بالنقض عند مواجهة الوقائع والتعامل معها من زاوية تفسير التاريخ: أن تعلَّل الأحداث في غفلة عن سنن الله الماضية في خلقه ـ وما أكثر الأمثلة على ذلك ـ وهي سنن لا تتبدّل ولا تتحوَّل في ربطها بين المسببات والأسباب، والكليات والجزئيات، ربطاً محكماً يجري ـ في نطاق القضاء والقدر ـ دالاً على قدرة الله وعلى المحيط وحكمته البالغة فيما كان وما يكون..

فهو عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، المهيمن العليم بذات الصدور، القادر القهّار الفعّال لما يريد.. وهذا لا يعني إهمال الأخذ بالأسباب التي هي من سننه الماضية سبحانه.

وانظر إلى قوله تباركت أسماؤه:﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن وجهة النظر التي تنسجم مع طريقة التفكير الإسلامية التي عمادها أن النص متبوع ونحن تابعون، وأن من وظائف العقل أن يفهم النص، ويجتهد فيما لا نص فيه.. أقول: من هذه الوجهة: إذا روعي ما سبقت الإيحاءة إليه: فقد وضعت الأمور مواضعها، وضمنت الإفادة من ارتباط حلقات التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ـ بإذن الله تعالى ـ ووجدت الأمة ذاتها، فنظرت بأعينها هي، وحكمت على الوقائع من خلال منهجها الذاتي المتميز، ولم تنظر بعيون الآخرين لترى ما يرغبون أن يُرى، ولم تستبعد المنهج الفكري الذي لا يمت إلى وجودها الذاتي بصلة.

فأين الظلمات من النور؟ وأين الكفر من الإيمان؟؟

إنه لم يكن عبثاً من العبث ـ ولله الحكمة البالغة وله المثل الأعلى ـ أن يتنزل بواقعة التبييت الخاسر الماكر للبيت العتيق، وما حصل من ردّ الطغاة على أعقابهم خاسرين: قرآنٌ يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها وللتالي بكل حرف عشر حسنات، وأحكمت له سورة قائمة برأسها هي «سورة الفيل» وأن تكون على قلة آياتها ووجازة كلماتها إعلاناً في العالمين يتجاوز حدود الزمان والمكان يزخر بانتصار التوحيد على الكفر والضلال، وغيرة الله على بيته العتيق بإهلاك الذين دبَّروا وبيتوا، شر هلَكة وإخزائهم أمام الناس والتاريخ!!.

ذلك بأن تفسير هذه الواقعة، والإحاطة بأسبابها وما صحبها من الإعداد، ووليها من النتائج.. من قبل الفئة المؤمنة ـ مهما تباعد الزمان ـ على النهج الذي يتضح من خلال ما حصل من غيرة الله جل جلاله على بيته ـ مع تذكير قريش بها، كيما تتحول إلى ساحة الحق ـ: رافد من أعظم الروافد المنتجة على طريق الأمة، في أن تكون حصيلة تفسيرها لتاريخها، وحكمها على تاريخ من قبلها: طلباً للعبرة والانتفاع في ضوء الهدي القرآني، حين أشرقت بذلك معالمه، والمسلمون يصارعون الباطل وأهله، ويعملون على إرساء قواعد البناء المنشود، وتنميةِ الحس الداخلي بطبيعة الواقعة التي تلقيها على طريقها الأيام ـ وما أكثر ما تلد الليالي من وقائع ـ وما هي نسبتها من الرسالة التي يعمل تحت لوائها العاملون!

من أجل هذا: كان الإلحاح على أن تكون الأمة على الاحتفاظ بقوة الذاكرة، فلا تُثقَب ولا يُهمّل ما تحمله في طياتها، وعلى أن يكون التعامل مع آثار ما حصل في التاريخ وما يحصل: في ضوء عقيدة التوحيد، وسنن الله الماضية، والوفاء بعقوده التي عقدها كل مسلم ومسلمة على نفسه مع الله، مصحوباً ذلك كله بحسن النظر في العاقبة التي آل إليها المحسنون، والعاقبة التي آل إليها المسيئون.

ومن أجل هذا أيضاً: كان من نافلة القول التذكيرُ بأن ذلك كله مدعاةٌ ــ بتوفيق الله ــ لإحكام العمل، وسلامة البناء، وحافزٌ لإنماء الكفاءات النادرة على استيعاب وقائع التاريخ، فهما وسلامة نهج في الاعتبار، بحيث يجتنب الخطأ، ويلتزم الصواب، في تبيُّنٍ واعٍ وتام للعوامل التي من أجلها كان الخطأ خطأ، وكان الصواب صواباً؛ الأمر الذي يحول دون الأمة ــ وهي تواجه مسؤولياتها على الصعيد الداخلي، والصعيد الخارجي في أداء رسالتها للعالمين ــ ودون الغفلة عن أبعاد التحدي الذي يحمله الواقع وما فيه ومن فيه، وما يجب من العمل ــ بعلم وحكمة ــ على طرح الركام، وإزالة العقبات قدر المستطاع، كيما تديل للحق من أهل الباطل العادين على الأرض، والثروة، والفكر، والأخلاق، والمقدسات.

مرة أخرى: إن الوقفة المتأنية المتدبرة عند الذي كشفت عنه سورة الفيل ــ وأمثال ذلك كثيرة في القرآن الكريم ــ وأن ما حصل عند انعدام الأسباب الأرضية مما تحدثت عنه السورة وأخبرت عن وقوعه: كان بقدرة الله وحده.

أقول: إن هذه الوقفة المباركة البنّاءة كفيلة أن تمدّنا ــ بعون الله ــ على طريق تحصيل الوعي، ومواجهة التحدي المتجدد بلا انقطاع: بالكثير من العطاء، والحصانة من الغفلة وفقدان الذاكرة وأن تمدنا بنور من نور الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].



سورة الذاريات.. والبناء

هذه أربعة عشر قرناً تمضي، وهي مثقلة بالأدلة الواقعية التي تعلن إعلانها في توكيد ليس بعده توكيد لحقيقة: أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأنه لا بد ــ عن طريق البناء ــ من تنمية القناعة الإيمانية الواقعية بهذه البدهية الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لمن لا يشكون الرمد المستعصي، كيما تكون القناعة بهذه الحقيقة نقطة البدء في التغيير إلى ما هو الأفضل، وذلك على هدي الكثير من معالم الحق في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ومنها قول الله تباركت أسماؤه في خاتمة سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

ومما أسلفناه من القول على هذه الساحة التي نصطحب معها طرفاً من معالم الكتاب العزيز: ما يتبدّى للتالي المتدبر من عظم الحقيقة التي قررتها آية كريمة من سورة «الذاريات» المكية، وهي قول الله جلّ شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. والأهمية البالغة لما تلا ذلك من قوله سبحانه: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

وفي نقلة إلى دنيا الواقع: وقفنا المعلم القرآني الذي تشرق به الكلمات الهاديات في تلكم الآيات، على ضرورة أن يكون في الحسبان دائماً تبصير الأجيال ــ علمياً وتربوياً وثقافياً ــ بتلك الحقيقة أفراداً وجماعات، وبخاصة من أكرمهم الله بأن

يكونوا على الطريق الصاعدة في السفر القاصد إلى جمع القلوب والعقول على دعوة الله، فلذلك من الآثار الفاعلة، ما ينعكس على تطلعات الأمة، وتحفزها لمسيرة ظافرة بإذن الله.

ذلك بأن عظم الغاية يثير البواعث الحقيقية في نفوس البُناة أهل الإيمان، وينمي الحوافز التي ترقى بأصحابها ــ مع العلم ومعرفة الواقع ــ إلى مستوى المواجهة الواعية المدروسة للتحديات أياً كان لونها، أو الدافع إليها.

وليس عجباً من العجب أن تتنزل هذه الآيات ونظائرها في العهد المكي ــ عهدِ الإعداد النفسي بالإيمان والصبر ــ، ورحى الصراع بين الشرك والتوحيد دائرة على أوسع نطاق، ومحاولةُ فتن الفئة القليلة المؤمنة عن دينها بشتى الأساليب القمعية وغيرها، لا تهدأ ليل نهار..

إنه ليس عجباً من العجب والأمر كذلك: ولكن الذي يجب الوقوف عنده: ما يعطي ذلك من الأهمية البالغة لما ينبغي من الجودة في إعداد الإنسان على تمثل الحقيقة قلباً وعقلاً، ووضعها موضع الموجه الأساسي في حياته، والعمل على تكييف تحركه ليكون وفق تلك الحقيقة!.

من أجل هذا ــ والله أعلم ــ ختمت السورة بشديد الوعيد للكفار، وهو أن لهم من العذاب مثل عذاب من سبقهم، وكانوا على طريقه حذو القُذة بالقذة.

ذلكم قول الله جلت حكمته: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

إن هؤلاء الكفار، بما كانوا يواجهون دعوة التوحيد من الإعراض والأذى باستكبار ودأبٍ كانوا يؤذون الإنسان ــ بوصفه إنساناً ــ أنّى كان وحيثما وجد، ويقفون حجر عثرة دون البناء القويم الذي يراد له من قبل أهل الحق بقيادة النبي عليه الصلاة

والسلام، أن يأخذ أبعاده هنا وهناك ـ لا تستثن ميداناً من الميادين ـ في نجوة من أوضار الجاهلية وعقابيلها، وعوامل تعويق الإنسان عن الخير على صعيد كل من الفرد والأسرة والقبيلة والمجتمع.

وفي المقابل: كانت الفئة المؤمنة، وهي تخط طريقها بإيمان وصبر على لأواء هذه الطريق، ضمن تلك الظروف شديدة الصعوبة، والمحن بالغة القسوة.. كانت تعمل ـ على الحقيقة ـ لإسعاد الإنسان أياً كان هذا الإنسان، وأينما كان وحيثما وجد.

ولو عدنا إلى الوراء قليلاً، في السورة المباركة، لرأينا بعضاً من صفات المتقين، التي تشمل الأفراد، كما تشمل ذلك المجتمع الذي بنته يد محمد ﷺ الصانع، وهو المجتمع القدوة في تاريخ الإنسان!.

ذلكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

إنها ـ وايم الله ـ صورة من صور التكامل التي تؤذن بما يكون من انعكاس التمثل المؤمن الواعي للغاية الكبرى ـ كما أرادها الإسلام ـ على السلوك، وبضرورة أن يأخذ هذا الأمر الجلل طريقه إلى مناهج التربية والتزكية والتعليم، وأن لا تفتقده ثقافة المسلمين والمسلمات بحال!!.



من لمحات الإعجاز.. على ساحة البناء وسورة النحل

سبحان من أنزل على عبده ورسوله ﷺ الفرقان الحكيم، ولم يجعل له عوجاً، فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومن الإعجاز أنه لا تنفد كلماته، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وددت التذكير بهذه الحقائق بالغة العظم ـ التي لا يدرك كنهها إلا من أنار بصيرته الله رب كل شيء ومليكه سبحانه ـ وأنا بسبيل متابعة الرحلة على ساحة العطاء القرآني في شأن الرباط الوثيق بين العمل والسلوك وبين مبدأ المسؤولية والجزاء، وحظ المرأة المسلمة من ذلك؛ حيث وقفنا واحد من المعالم القرآنية الكريمة على الخطوط العامة المؤذنة بذلك، في مجموعة من الآيات في سورة النحل بدئت بالآية التسعين، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

وكان من هذه الآيات قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾الآيات، حيث ختمت الآية الأخيرة بقوله عز وجل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[النحل: ٩٦].

وليس بعيداً عهدنا بأن الآية التي دلت على ترتيب الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل، وأشعرت بأن المسؤولية كما شرف بها الرجل شرفت بها المرأة «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...» هي قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ..﴾ الآية وقد جاءت بعد تلكم الآيات في السياق.

وهنا أيضاً ختمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد كان فيما أسلفت من القول: أن من المفيد حقاً التنبُّه إلى فحوى هذا التشابه المعنوي الذي يكاد يصل إلى التماثل حتى في الألفاظ: بين ما ختمت به كل من الآيتين الكريمتين، وهما على التوالي: الآية السادسة والتسعون، والآية السابعة والتسعون.

قلت هذا، لأن ما يمكن أن ندعوه بالتطابق على محور الجزاء، يعطي فيما يعطي من قيم ودروس، أن الذين يلتزمون حدود الله منطلقين من قاعدة إيمانية راسخة يجزيهم الله ذكوراً كانوا أو إناثاً، بأحسن ما كانوا يعملون. وهذه المضاعفة للأجر هي من فضل الله الكريم سبحانه وتعالى.

وعندما نرى هذا الأمر الذي ينطق به نص قرآني قطعي الدلالة بالإضافة إلى كونه قطعي الثبوت: لا يخامرنا شك في أن الذين يوفقون لصالح العمل ـ بما له من أبعاد وشعب ـ ويُكرمون بهذه البشارة العظيمة التي يتحقق شطرها الأول في الدنيا كما يتحقق شطرها الآخر يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً: لا تقاس أعمالهم بالجنس الذي هم منه في الخلق من حيثُ الذكورةُ والأنوثةُ، بل إن القاعدة النورانية التي صوبت الأخطاء، وردّت الأمور إلى نصابها في هذا الباب: قوامها﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أجل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإذا عمل الرجل عملاً صالحاً وهو مؤمن: استحق تلك البشارة العظيمة إعظاماً للأجر في الآخرة، مسبوقاً بالحياة الطيبة التي تسودها الطمأنينة والبعد عن القلق والتشاؤم في الدنيا، ومثل ذلك المرأة سواء بسواء.

ولعل من الخير أن نضيف إلى ما نحن بصدده في هذه البابة من الموضوع: ما يدركه التالي المتدبر للآيات: من أن الآية التي ذكر فيها الصبر مرغَّباً فيه أشد الترغيب: جاءت بعد طائفة كبيرة من الآيات التي حملت إلى الأمة الكثير من الأوامر والنواهي، وهي أوامر ونواه تذكرنا بقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك؛ فإنما هو خير يأمر به أو شر ينهى عنه».

فهي أوامر ونواة للعلم والعمل والتطبيق على صورة يتوافر فيها ــ مع العلم بالحكم ــ الإخلاص لله عز وجل، وليست لاستزادة من الترف المعرفي وكفى ــ بله التفكه لا سمح الله؛ الأمر الذي يدل على أن مرحلة العمل والسلوك التي تكون ترجماناً مخلصاً أميناً للمبادىء والقيم، بحيث يتحول مضمون الأوامر والنواهي ــ افعل لا تفعل ــ مع الترغيب والترهيب أو بدونهما أحياناً، إلى وجود حي يملأ ميادين البناء، ويوجه الحركة إلى حيث الإقبال على الله بتجديد العمل الصالح المصحوب بمراقبة الله عز وجل، والقدرة على تحمل ما يعترض المؤمن أو المؤمنة من المصاعب والمتاعب، مع الصبر على ذلك، وهو صبر أولئك الذين يجزيهم الله تبارك وتعالى أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وتحسن الإشارة إلى أن المراد بالصبر الذي لا بد منه: الصبر بكل أبعاده ومدلولاته؛ فهو صبر على الطاعة، وهو صبر عن المعصية، وهو صبر على لأواء الطريق الصاعدة إلى الله، وهو صبر على البلايا والمحن، وصبر على تكاليف التغيير إلى ما هو الأقوم. وما أحلاها كلمات مبشرات تلك التي يعلنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[النحل: ٩٦].

والحياة الطيبة: هي التي تجعل كلاً من المسلم والمسلمة يسهم بإدارة حركة الحياة في ضوء رسالة الإسلام بتفاؤل وعزيمة لا يقهرهما حب العافية، أو الركون إلى الشهوة والهوى، ناهيك عن الرغب والرهب الدنيويين.

وبعد: فإن الحقائق التي نومىء إليها مما أشرقت به النصوص، حرية أن تعلن إعلانها في نفس المؤمن ــ وهو يعمل بها ــ مؤذنة بكمال التصديق بوعد رب العالمين الذي لا تنفد خزائنه، ووعده هو الوعد، وعهده هو العهد، ولا أوفى بعهده من الله.

بوادر اليقظة.. وسورة العصر.. التنبُّه.. وأخذ الحِذر

بوادر اليقظة في دنيا المسلمين اليوم تستدعي كثيراً من التنبيه وإحكام خطط المتابعة التي تضمن الاستمرار وتنفي أذى التعويق والتخذيل. ذلك لأن هذه البوادر تجيء بعد سنوات عجاف طال أمدها، وأصاب الأمة فيها ما أصابها من الضعف والتخلف، وغشّاها ما غشّاها من ظلام التبعية في كثير من الميادين الفكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها، ناهيك عن انحسار تحكيم الشريعة في كثير من بقاع العالم الإسلامي. الأمر الذي بات الرواد يخشون معه الوقوع في المهلكة التي حذر منها قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾.

والدرس البالغ الأهمية في ذلك: ما كان عليه أولئك الذين صنعوا تاريخنا وحملوا عبء البناء من أول الطريق؛ فقد جمعوا إلى العطاء المجدي على ساحات البناء التي عليها يقوم المجتمع المتكامل القوي: أخذَ الحذر من المعوقات والمثبطات التي قد تحول دون الحجم الكبير للعمل الدائب المطلوب من الفرد والجماعة، كما تحول دون استمرار البناء سليماً معافىً تنمو من خلاله قدرة الأمة الذاتية التي تجعلها صاحبة الكلمة في قضاياها، ونظرتها إلى الحاضر والمستقبل، وما يلزم لذلك من استثمار خيِّر لطاقاتها البشرية والمادية وما أولاها الله من رسالة كانت بها خير أمة أُخرجت للناس.

فلقد كان على هؤلاء الرواد أن يكونوا ــ مع السعي الحثيث لترسيخ قواعد البناء وتنمية الطاقات الناعلة المؤثرة ــ أن يكونوا مفتحي الأعين على ذلك التحالف غير المقدس بين المشركين واليهود من جهة، وبين المنافقين الذين يعايشونهم ويشايعونهم في المدينة من جهة أخرى.

وثقل المهمة الملقاة على العواتق ـ وهي تأخذ الطابع العالمي تبعاً لعالمية الرسالة الخاتمة ـ صحِبَهُ الكشفُ عن صنيع المنافقين في محاولة التعويق وإشعاف الهمم عن تحمُّل الأعباء الجسام، وبخاصة على صعيد القتال في سبيل الله، حيث يواجه المسلمون تحديات الكفرة ـ على اختلاف عناوينهم ـ إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل وامتثالاً لأمر الله في إبلاغ دعوة الإسلام للناس.

ولقد تبيّن من خلال الوقائع التي زخر بها التاريخ ـ على اختلاف ألوانها وبواعثها ـ أن غرس العقيدة في النفوس، وبناءَ الأجيال عليها وعلى العمل بحقها، ثم تفتيح الأعين على الأخوة النابعة منها، هو المحور الذي يرسِّخ قدرات الأمة في كل الميادين، لما أن هذه العقيدة منهج كامل للحياة أولاً، ورباط وثيق بين المؤمنين يتعاونون من خلاله على البر والتقوى بأوسع مدلول وأشمله ثانياً: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وإنه لتعاون خوطب به أبناء الأمة بوصفهم مؤمنين، تشد بعضهم إلى بعض هذه الأصرة العظيمة، آصرة عقيدة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وانعكاس ذلك على الواقع العملي الذي يتولى المؤمنون إنشاؤه في ضوء الإسلام: نتيجة طبيعية تجعل من هذا الواقع ترجمة عملية حيّة ناطقة للدين الذي آمنوا به، وأعطوا لله ولرسوله الموثق من أنفسهم أن لا يبخلوا بأي بذل مستطاع من الوقت والجهد والمال والنفس، في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا، وشريعته هي المحكّمة.

هذا: والكلمات القليلة الجامعة التي حملتها سورة (العصر) بقصرها وغزارة معانيها تشير إلى هذا المنهج المتكامل في العقيدة والعمل الصالح الذي يجب أن يكون ديدن جماعة المسلمين ـ وهو العمل بمدلوله العملي الشامل لأمور الدنيا والآخرة ـ وما ينبغي لذلك من تواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر.

ولكم يحتاج بنيان الحق الذي يقوم به المكلفون في مواجهة تحديات الباطل، من هذه العُدَّة العظيمة وهي الصبر على تحمل التبعات امتثالاً لأمر الله وطمعاً بفضله ورحمته، والربح العظيم متيقَّنٌ عند ذلك؛ إذ إن الصابرين يوفَّون أجرهم بغير حساب ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

ذلك لأن العقيدة ــ كما أسلفنا غير مرة ــ منهج حياة، والذين آمنوا بها وارتبطت قلوبهم بآصرتها العظيمة: هم إخوة يتعاونون صادقين على تحقيق ذلك المنهج بإنشاء الواقع العملي من خلاله، والمؤمن للمؤمن كالبنيان كما جاء في الحديث الصحيح يشد بعضه بعضاً ــ وشبّك ﷺ بين أصابعه.

من هنا تقتضينا أمانة الكلمة: أن نشير إلى أن بوادر الصحوة التي تفرح لها قلوب المؤمنين، لا بد أن يصحبها ــ مع المعرفة الدقيقة الواعية بالواقع لما هو ــ انتهاج السبيل الواضحة الحكيمة في ترسيخ العقيدة وبيان ارتباطها بالعمل الصالح بمدلوله العملي الشامل الآنف الذكر، وأن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما ظاهرة التعاون الحقيقي وبرهانه على كل عمل بنّاء يؤدي إلى رفعة شأن الأمة وإبراز تميزها وذاتيتها، ويزيح من طريقها ما يعرض من معوقات ينسجها المكر والعداء الدفين للإسلام، وقد يقع ضحيتها المبتلون بقابلية التأثر بزخرف القول وخبيث المخططات وأهلية التقليد الأعمى، وما أكثر ضحايا الغفلة والجهل!!.

وللتاريخ كلمة لا بد أنه قائلها في هؤلاء وأولئك أجمعين وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.



البناء.. وصراع الوجود في عودة إلى سورة الأحزاب.. وصورة كل من المؤمنين والمنافقين

« ١ »

الصورتان المعبرتان اللتان تقفنا عليهما سورة الأحزاب لكل من المنافقين والمؤمنين عندما واجهوا أحزاب الكفر وقد حشدت يوم الخندق من العَدد ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل، ومن العُدة ما يتناسب مع هذا العدد. هاتان الصورتان تنزلت بهما آيتان كريمتان هما قوله تعالى في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾. وقوله تباركت أسماؤه في شأن المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾. وقد أشرت إلى ذلك في مناسبة سلفت.

وفي نقلة إلى الواقع المعاصر وما يمكن أن يصنعه المصلحون انتفاعاً ببدهية أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، يتبدّى أن الذي تجدر الإشارة إليه من خلال هذا الواقع الذي تعيشه الأمة ــ وهي تتوثب لمنطلق جديد يعود بها ــ إن شاء الله ــ سيرتها الأولى في القوة الفاعلة والريادة، ويقف أعداؤها من ذلك موقف التربص الماكر حيناً، والعداء السافر تحت سمع الدنيا وبصرها حيناً آخر ــ.

والذي يجدر الإشارة إليه من خلال هذا الواقع، لتكون الجسور موصولة بين معالم الكتاب العزيز التي وجهت إلى بناء الإنسان والمجتمع، وأنشأت أمة القرآن: هو الدقة البالغة لوضع الصورتين، كما دلت عليهما الآيتان الكريمتان في إطار غزوة الأحزاب التي تمثل حلقة من حلقات الصراع بين الإيمان والكفر والحق والباطل، وهو ذلك الصراع الدامي الذي كان يهدف أولَ ما يهدف إلى استئصال شأفة الدعوة

الإسـلامـيـة وأهلهـا، والحـيلولة دون عـمليـة البناء الشـاملة أن تبلـغ مـداها، بعـد أن شـرعت تملأ سـاحات الحـياة فـي السـيـاسـة والفكر والاجـتمـاع والاقـتصـاد ووضع الإنسان موضع التكريم على هدي عقيدة التوحيد وشريعة الله المباركة التي أنزلها الله للإنسان، أياً كان هذا الإنسان وفي أي زمان أو مكان وجد. والله تبارك أعلم بما يصلح لعباده في عاجلهم وآجلهم، ويسعدهم في الدنيا، ويضمن لهم الفوز العظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والوضع الدقيق الذي نعنيه، يعتمد على أن الصراع من وجهة النظر السليمة هو صراع على وجود أمة تصوغها رسالة الإسلام في أن تكون أو لا تكون، وإذن فالذين يحملون عبء تحقيق هذه الرسالة على ساحات البناء في الداخل وجهاد الأعداء في الخارج: ما بد من أن يسلم لهم محور التحرك تصوراً وتطبيقاً، وهم يوسعون لمنهج الله أن يأخذ وجوده الحقيقي، فيبني الإنسان والمجتمع والأمة وفق مراميه، وينمي كل واحدة من قدرات هذه الأمة وطاقاتها، ويسيِّرها في قنواتها الطبيعية التي تجعلها عناصر إنتاج وعطاء حضاري سليم.

وكان المحور هو الإيمان: الإيمان الذي يبدو الجهاد في سبيل الله والصبر في مستلزماته: من أوضح الأدلة على صدقه واستنارة القلب بضيائه. فالمنافقون ــ بنفاقهم ــ كانوا أحطَّ من أن يشرفوا وتنالهم كرامة الجهاد الصادق والبذل في سبيل الله، فهم متهالكون قلباً وقالباً، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ولا يستحيون من النطق بالكلمة الضالة المخربة وهي أن وعد الله ورسوله بالابتلاء والنصر: كان باطلاً من الباطل ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢﴾﴾[الأحزاب: ١٢]. كبرت كلمةً تخرج من أفواههم وساء ما يزرون.

وعلى العكس من ذلك كان المؤمنون الذين لم يزدْهُمْ هول الموقف إلا طمأنينة وثقة بوعد الله ورسوله بالابتلاء والنصر ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

موقف المنافقين كان نقضاً للعهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولّون الأدبار، أما المؤمنون الذين خالط الإيمان بشاشة قلوبهم: فهم مستمرون على العهد والميثاق يستشعرون عِظم المسؤولية، وأن الأمر يتجاوز الأفراد إلى مصلحة الجماعة، بل إلى تحقيق الوجود العملي لرسالة الإسلام التي تسعد بها الجزيرة العربية والبشرية كلها من وراء ذلك. وأنت واجدٌ أنه تكريماً لموقف هؤلاء المؤمنين جاء قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

إن امتداد تاريخ أمتنا الإسلامية زماناً ومكاناً ـ في ظل تلك القيم ـ يحمل الأهمية البالغة لتلك البدايات التي جعلت من صدق الإيمان وطهارة النفوس، شرطاً لازماً كافياً لمن تناط بهم عملية الإنجاز العظيم في أنفسهم وعلى الثغر الذي يقومون عليه، وإنشاءِ الواقع النابع من تلك القيم، والنظرِ إلى المستقبل من خلال ذلك.. إن امتداد التاريخ على هذه الشاكلة يجعل من المسلّمات أن البداية السليمة على طريق طويلة يعتريها كثير من الملابسات المستجدة في العالم الإسلامي، وفي العالم كله: تقتضي إعطاء هذا العنصر من عناصر التكوين حظه الأوفى من المنهج والتطبيق، والحظ الأوفى يعني الفسح للمنهج الذي تطرحه عقيدة التوحيد على ساحات العلم والعمل وكل ما يلزم لعمارة الأرض واستثمار طاقات الأمة وخيراتها، لتكون في عزة ومنعة لم تكونا لأسلافها الأمناء، إلا بصدق الإيمان والتصور الصحيح للمنهج الرباني، وجعل المعرفة بريداً لاستشعار المسؤولية والقيام بأعبائها؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان والله ولي الأقوياء الأمناء، يجزيهم بما صبروا ويتقبل عنهم أحسن ما حملوا. وهنيئاً لأحبائه المقربين!.



البُناة.. والمؤمنون.. سورة الأحزاب.. ودلالات أخر

«٢»

إن المشقات والمصاعب التي تنتظر أولئك الذين يسعدهم الله بحمل عبء الدعوة، وما يكتنف المسيرة الخيِّرة المرتقبة للأمة من معوِّقات.. كل ذلك يدعو إلى تأكيد ما قلناه قبلاً من ضرورة الدقة في تحليل الموقفين اللذين عرضت لهما سورة الأحزاب عندما واجه المسلمون ـــ وهم في قلة من العدد والعدة ـــ عشرة آلاف مقاتل أو يزيدون في غزوة الخندق.

والموقفان هما: موقف الهدّامين المنافقين وموقف البُناة المؤمنين؛ فالدقة في تحليلهما ووضع كل منهما موضعه في إطار تلك الغزوة التي تمثل حلقة من أبرز حلقات الصراع بين الحق والباطل، مقروناً ذلك بشراسة أهل الباطل في رحلتهم من مكة إلى المدينة لتحقيق ما يبتغون من القضاء على الإسلام وأهله. لذا كانت الدقة في التحليل: أمراً على غاية الأهمية من حيث التصور، ومن حيث العمل والإفادة من وقائع السيرة والتاريخ؛ ذلك لأن المحور الإيماني وما يثمره كان هو مناط القضية في كل من الموقفين اللذين عرضت صورتيهما الكلمات الهاديات في سورة الأحزاب.

ففي الصورة التي عرضتها آية كريمة لموقف المنافقين ترى أن مرد الأمر إلى قلوب خاوية من الإيمان، ونفوس مقطوعة الصلة بالله عز وجل، ناهيك عن الشح الهالع والجبن الخالع، والرغبة الملحة في الحطام الهابط.. وأي خير يرتجى من أمثال هؤلاء الهدامين؟؟.

وكان مرد الأمر في الصورة الأخرى التي تشرق بما كان عليه المؤمنون البُناة وهم يتوشحون سيف الجهاد الصادق الذي يرتفع بصاحبه إلى مستوى رغبة الشهادة في سبيل الله واليقين بصدق ما وعد الله ورسوله.. كان مرد الأمر في تلك الصورة

المباركة إلى إيمان صادق خالطت بشاشته القلوب، فكانت الطمأنينة في النفوس، وكانت السكينة في القلوب، وكانت الشدة التي حملتها ريح المواجهة أضعف من أن تنال من تلك النفوس وتلك القلوب، بل إن جو المواجهة الذي ينذر بالمعركة التي يمكن أن تلتهم ما تلتهم.. لم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً، ومزيداً من الحرص على طلب الشهادة بتنامي الحافز العظيم للقتال.. وكيف لا وهم يؤمنون بنصر الله وعونه ــ إن هم نصروه ــ إيمانهم بطلوع هذه الشمس وغروبها.

ورافد مكين لا بد منه لهذا الذي نقول: هو أن الدقة في وضع كل من الصورتين موضعهما في إطار المعركة على طريق الصراع الدامي بين المشركين وأعوانهم من اليهود والمنافقين، لا تعني المحاصرة بالحد الزمني للصورتين، بل على العكس من ذلك: إنها تعني ــ والأمة تتحفز إلى التغيير النافع والعمل على إنشاء واقع ذاتي صحيح النسبة إلى أصالة الإسلام ــ ضرورةَ التنبه إلى الارتباط بين الظاهرة وبواعثها في موقف كلٍّ من المسلمين وأعدائهم، ومكانة المحور الإيماني المرتبط بالعمل المثمر المجدي، وبذل المال والنفس عن رضى وطمأنينة في سبيل الله.. وذلك ما يرشح صاحبه لحمل أعباء البناء المنشود، والعطاء الذي يعود بالخير على المجتمع والأمة.

كما تعني ضرورة التنبه إلى الترابط الواضح بين التخاذل والهلع وسوء الأدب الجاحد مع الله ورسوله، وبين النفاق الذي أطبق بظلامه على القلوب، فجعل من أصحابها طاقة معطلة عن البر، بل مؤذية للمجتمع والأمة، لأنها كانت مهيأة دائماً لأن تُظاهر اليهود والمشركين على الأمة ورسالتها الإنسانية الحضارية، وأن تكون أبداً أداة هدم وتخريب تحت ستار التظاهر بالإسلام، والإسلامُ منها براء، وذلك بعض ما توحي به حال المنافقين، وفلتات ألسنتهم عند مواجهة الأحزاب.

هذا: وتنمية الإدراك للترابط الذي نومىء إليه: قضية كبرى تعمل عملها في إزالة الغشاوة عن كثير من الأعين التي يسحرها الزخرف والبريق المصطنع.

وإذا كان الأمـر كذلك، من حيث تجاوزُ صورةِ الموقف للحدِّ الزمني الذي وقعت فيـه، لأنها مرتبطة بقيمة كانت هي السبب في الصورة والباعث على الموقف.. إذا كان الأمـر كذلك: فما أشـد احتياج الأمـة ــ وهي تحاول أيضاً ترجمةَ تطلعاتها وآمالها المستقبلية إلى واقع ملموس كما يريد المخلصون من أبنائها ــ .. ما أشد احتياجها إلى تنقية الصفوف من الدخيل، والبعد عن الاكتفاء بالتكديس، بُعداً يُستبدل معه الكم المتراكم على غير هدى: بالكيف والنوع.

أضف إلى ذلك ما تمسُّ إليه الحاجة من تحرير البداية الأولى على تلك الطريق الشاقة المتشعبة المسالك والابتلاءات، في ضوء العقيدة الصحيحة التي شاء الله أن تكون قاعدة وجود هذه الأمـة، وناظم حياتها الذي لا يعول، لأنها تضيء القلوب بالإيمان، وتكرِّم الإنسان، وتدعو إلى العلم والعمل، واستثمار خيرات الكون المذلَّل المسخَّر للإنسان في مرضاة الله تعالى، وبذلِ كل ما من شأنه إعداد القوة التي تهب الأمة وجودها الذاتي الأصيل، وترتفع بها إلى المستوى اللائق بمواجهة ما يبيَّتُ لها في الظلام من مؤامرات مدروسة تشغل كثيراً من الميادين.

ولقد وقفنا المعلم القرآني في سورة الأحزاب ــ كما سبق ــ على ما خوطب به المصطفى عليه الصلاة والسلام ــ وهو يصارع العقبات في الداخل والخارج كيما يستقيم أمر القضاء على رواسب الجاهلية وإحكام البناء على الوجه الذي ينبغي ــ .. وقفنا على ما خوطب به صلوات الله وسلامه عليه بأن لا يأذن للمنافقين بالخروج معه إلى القتال لو استأذنوه، بعد أن تخلفوا عن القتال فرحين بمقعدهم خلافه، يوم توجه مع الصحابة في الحر اللاهب إلى تبوك؛ إذ دل صنيعهم على خراب النفوس، والمرض المستعصي في القلوب، وذلك ــ والله أعلم ــ كيما يكون الرجال الذين يناط بهم العبء وتلقى على عواتقهم رسالة التغيير إلى ما هو الأفضل في ميزان الإسلام ــ على كفاية إيمانية تباعد بينهم وبين التخلخل والتعويق.

أما الكفايات الأخرى: فتبنى على تلكم القاعدة الإيمانية، لأنه إذا اختل أمر العقيدة: كان شأن أصحاب الكفايات شأن أولئك المنافقين لا يجدي أهل الإيمان فتيلاً، بل إن قابلية الأذى والإضرار بالأمة قائمة عندهم، موجودة لديهم، لأنهم فاقدون لرابطة الانتماء الحقيقية التي لا رابطة أقوى منها، مُسْلِمو أنفسِهم للهوى والشيطان.

وكم نكون موضوعيين مخلصين للحقيقة التي نتحرك تحت رايتها، حين لا نخلط بين الحرص على العقيدة ركيزة أساسية للبناء، وبين عدم التخصص والقدرة على الإنتاج المثمر؛ ذلك بأن الحرص على العقيدة لا يعني التهاون بالإعداد المتكامل، بل العكس هو الصحيح: لأن العقيدة نفسها تملي ذلك وتدعو إليه، ومؤيدات هذه الحقيقة القوليةُ والفعلية تكاد تفر من الحصر.

كما لا يصح أن تنسينا بعض الكفايات موقعَ العقيدة من البناء، بما يحمل صاحبها من الأمانة، وعميق الحوافز وصدق الانتماء، والله غالب على أمره ولكن كثيراً من الناس عن هذا غافلون!!.



البنية الثقافية.. ودرس من سورة المائدة

«١»

ما تقفنا عليه آيات سورة القصص في شأن من أسلموا من أهل الكتاب بعد أن قدموا من الحبشة، كما تدل بعض الروايات، وهي مما تنزَّل في العهد المكي ـ، والفئة القليلة المؤمنة تخطو أولى خطواتها على طريق البناء بدءاً من ساحة الصراع بين التوحيد وبين الشرك والجاهلية ـ ما وقفتنا عليه تلك الآيات وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]. من مؤشرات لها ما لها من آثار طيبة مباركة على البنية الثقافية، يأخذ بيدنا إلى العهد المدني حيث تطالعنا آيات من سورة المائدة بقضية، بينها وبين آيات سورة القصص المكية نوعٌ من صلة القربى ـ كما أسلفنا من قبل ـ.

ونجد من خلال ذلك، ما يدل على أن منهج البناء ـ ومنه ما يتعلق بالكيان الثقافي والفكري، أخذ حظه من العناية في كلام الله تبارك وتعالى، خالقِ الإنسان والكون، الحكيمِ في تدبيره، العليم بما يصلح عباده.

وأنت ترى في الآيات المباركات من سورة القصص إعلاماً من الله عباده بما كان من هؤلاء الذين تحوّلوا شطر رسالة الإسلام وآمنوا بالقرآن.

وها نحن أولاء نقرأ في سورة المائدة ما يخبر الله تعالى به عن الذين بلغ من صدق إيمانهم بدين الإسلام ورقة قلوبهم: أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من كلام الله والحكمة، ترى أن أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق لدى الفريق الآخر.

ذلكم قوله جل وعلا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أرأيت إلى هذا الوضوح وإعطاء كل ذي حق حقَّه دون وكْسٍ ولا شَطَطٍ. ثم ألا تَعْجب ممن يتوهم أو يظن أن هؤلاء الذين يعرض القرآن موقفهم الإيماني بهذا الوضوح الجازم، هم على غير دين الإسلام، مع أن الذي تعطيه الآيات بصورة يقينية تقطع أيَّ احتمال أن القوم قد شرح الله صدورهم للإسلام، وآمنوا بالقرآن عند سماعه، عن معرفة ووعي، إيماناً لا يتزعزع، وتذوقوا ـ صادقين ـ حلاوة هذا الإيمان، وبلغ من خشوعهم أن بكوا أشد البكاء حتى فاضت أعينهم من الدمع؛ ولم يكن ذلك من عاطفة عابرة، ولكن بما عرفوا من أحقية هذا الكتاب بأنه من عند الله، وأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه صادق في دعوى الرسالة.

ولا يرتاب النارُّون إلى الله السالكون إليه جل شأنه، أن الدمعة الخاشعة في هذا المجال: عنوان رقة القلب ووَجَله وصفائه، وأنه قد استضاء بهذا النور العظيم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[الأنفال: ٢]. وما أعظم ما قررته الكلمات المعجزات من الترابط بين خشوع القلب وبين ما عرفوا من الحق ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[المائدة: ٨٣].

إن الأمانة في تربية أجيال الأمة وتكوينها الثقافي، تقتضي أن يُتَّخذَ من هذا الذي يهدي إليه المعلم القرآني في عرض هذه القضيَّة ـ كما هي ـ في كليّاتها وجزئياتها، وأن هؤلاء القوم ـ ومنهم قسيسون ورهبان ـ قد آمنوا عن معرفة

ووعي، وأنهم تأثروا التأثر البالغ بالقرآن فبدا أنهم قد توافر لهم خشوع القلب ـ، حتى بكوا أشد البكاء عند سماع القرآن ـ واستثارةُ العقل وقناعته بالدليل، إذ كان تأثرهم لما عرفوا من الحق.. أن يُتَّخذَ من ذلك نبراس يهتدي بنوره من يحملون أمانة التثقيف والتربية والإعداد بشتى صنوفه وألوانه، ضمن ما يجدُّ من تطوُّر الوسائل والتحديات!!.

والحق أن هنالك قضيتين لا بد من وضعهما في الحسبان:

أما أولاهما : فهي أن إبراز ذلك في القرآن الكريم، يزيد من يقين المؤمن بأنه على الحق ـ والحمد لله ـ وأن المعرفة إذا اقترن بها التجرد في طلب الحقيقة، وصلت بصاحبها إلى شاطئ السلامة بإذن الله. ومن جرى الحديث عنهم أنموذج واضح كلَّ الوضوح لذلك.

وأما الثانية: فهي أن ما يجب أن نتعلمه من هذه الآيات: هو مما يغني البنية الثقافية وينمي فاعليتها في معركة الصراع بين الحق والباطل، كما يريدها الإسلام، وهي بنية إذا توافرت لها السلامة على الوجه الذي ينبغي، بعيداً عن الزغل، واستبطان المساءة. كانت لها الانعكاسات الطيبة على الجماعة والمجتمع بكل ميادينه وألوان النشاط فيه، بل على الأمة صاحبة الرسالة جمعاء.

ذلك لأن الثقافة، تحمل ما تحمل من الفاعلية والتأثير في الفكر والتصور والسلوك..

ومما يجب أن نتعلمه من الآيات على هذه الساحة: ما ينبغي من تعميق الوعي في نشدان الحق وحسن استخدام وسائل المعرفة ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ انظر إلى هذا التحديد!! إنه الحق، وليس وراء الحق إلا الباطل.. وليس بعد الهدى إلا الضلال! وليس بعد الهدى إلا الضلال!.

وأحسب أن التكامل بين المعرفة وصلاح النفوس وانعكاس ذلك على السلوك: واضح في قوله تعالى على لسانهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ إذن هناك صلة بين التزود من المعرفة، وبين العمل على تزكية

النفوس وصلاحها ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وذلك ما يبعث في النفس الاعتزاز بالإيمان وصدق اللجوء إلى الله، بل هذا ما يجب أن يكون لبنة مضيئة في الكيان الثقافي، والله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة وأنت تقع من خلال ذلك على درس عظيم في ارتباط الجزاء بالعمل﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.



أجيال البناء.. ومؤشرات في سورة السجدة
« ٢ »

كلما عاود المرء النظر في كتاب الله ـ وهو الكتاب المعجز ـ ازداد يقيناً على يقين بأن الكلام الذي انتظمه، هو كلام الخالق الحكيم، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وكلما عاود النظر في آية من آيه أو آيات، أو سورة أو سور: ازداد يقيناً على يقين أيضاً، بأن ما تهدي إليه معالمه الخيِّرة في كلماته النورانية، هو الحق الذي لا مرية فيه، والطريق الأقوم الذي لا يخضع للتجربة التي تحتمل الخطأ والصواب.

كيف لا والذي أنزله هدىً ورحمة، هو الذي خلق الخلق، وأبدع الكائنات، وأقام العلاقة بين الإنسان والكون والحياة على سُنَنٍ لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، وهو سبحانه أعلم بما يُصلح عباده، وما ينبغي أن يكون عليه أمر الدنيا والآخرة.

وهذا بعض ما يفترق به منهج المخلوق من منهج الخالق إذ إن ما يصدر عن عباد الله المخلوقين الضعفاء، لا يستوي هو وما يصدر عن رب العباد الخالق القادر الحكيم.

أقول هذا وأنا أنظر في إحدى السور المكية سورة «السجدة» أستضيء بنورها ويقع ناظري فيها على تبكيت الكفار، في مشهد يكونون عليه يوم القيامة وهم ناكسو رؤوسهم يتمنون لو يعودون إلى الدنيا ليؤمنوا على زعمهم بما كفروا به من قبل، يوم كانوا في دار العمل.

كما يقعان على ما يؤذن بقصر الإيمان الصادق بآيات الله على أولئك المؤمنين على إحكام البناء الذين إذا ذكّروا بتلك الآيات، خرُّوا سجَّداً وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون.

يقع منهم ذلك وهم على حالٍ من اليقظة في تطلُّعٍ إلى كل ما فيه مرضاة الله، والخشوعُ بين يديه، ينضم إلى ذلك أنهم ينفقون مما رزقهم الله. وهذا يُشْعر بأن صلاحهم لا يقتصر على ذواتهم، ولكن يتعدّى إلى المجتمع إسهاماً في الخير، وتعاوناً على ما فيه قوة الجماعة وسلامة كيانها؛ ذلكم قول الله تباركت أسماؤه في شأن الكافرين: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي شأن أهل الإيمان يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

والحق أن القضية التي تستوقف الناظر المتدبر في تاريخ تلك الحقبة، أيام العهد المكي: هي طرح صفات للمؤمنين المؤتمنين مع البناء الأمثل: تميُّز سلوكهم، ومنها الإنفاق مما رزقهم الله؛ إذ أن الإنفاق على الشكل المثنيِّ عليهم فيه ــ وهو مختلف كلّياً عن كثير من ألوان الإنفاق في الجاهلية ــ يعني ــ فيما يعني ــ حسّاً جماعياً نابعاً من العقيدة، يحفزهم إلى المشاركة في حمل العبء ــ ابتغاء رضوان الله ــ على ساحة التكامل والتعاون المجدي دون منٍّ ولا أذى، والإسهام بشكل تلقائي، في تقوية البنيتين الاجتماعية والاقتصادية.

وهنا ــ في الآيات الكريمات ــ جُعل الإيمان الصادق مقصوراً بكماله، على من يقدِّمون البرهان على وجوده؛ والبرهان: هو هذه الصفات التي منها الإنفاق ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

وما يزال مُجْدياً استذكار أن هذه الصفة، قد جرى ذكرها ــ ثناءً على صحابها ــ في غير ما موطنٍ من الآيات المكية ــ كما سلف من قبل ــ.

ولعل في هذا: إشعاراً للمؤمنين ـ على قلة عددهم وأن قياد المجتمع ليس بأيديهم ـ أن دعوتهم التي ينالهم الأذى في سبيل نصرتها: هي دعوة للحياة بكل ميادينها بدءاً من إحياء القلوب والنفوس بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي إن طريق البناء الطويل الذي بدأت خطواته الأولى في مكة المكرمة ـ حيث أشرق نور الدعوة ـ إنما يصبر على تبعاته في كل ميدان، وعلى كل ثغر، أولئك الذين يسلم لهم ـ مع العلم وكفاية التخطيط والعمل ـ حسن الصلة بالخالق تبارك وتعالى؛ الأمر الذي يمنّي الحوافز، ويضمن قابلية الاستمرار، طمعاً برضوان الله تعالى وحسن العاقبة يوم الدين؛ فلقد كشفت الآيات التي حولها ندندن ـ بعد ذكر الصفات التي يتحلى بها أولئك الذين رزقوا صدق الإيمان ـ أن لهم من إكرام الله في جنات الخلد ما لا يحيط به علم البشر المحدود ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ولكم يكون الرواد الأمناء على التنهيج لأجيال البناء: موضوعيين حقاً، حين يعملون على أن يكون من الأهداف الكبرى، إعداد الإنسان إعداداً متكاملاً، يحسّ معه الفرد ذكراً كان أو أنثى ـ ومن ورائه الجماعة ـ بأنه حين يقوم بعمارة الأرض، والإسهام في تحصيل القوة الذاتية للأمة، يعبد الله تعالى، ويترجم ـ في طلب لمرضاة الله ـ منهج الحياة الذي تطرحه العقيدة، إلى وجود عملي في دنيا الواقع، صنيع الأسلاف الذين فهموا الإسلام هذا الفهم، فشادوا تلك الحضارة الإنسانية المؤمنة، حضارة الإسلام.

البناء في إطار التكامل.. وجزاء العمل في سورة السجدة

« ٣ »

كان عظيماً جداً ما أعطى القرآن من التصنيف العملي لصنيع الكافرين وصنيع المؤمنين ـ فيما رأينا من آيات سورة السجدة ـ كما سبق بيانه ـ بدءاً من الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا . . .﴾الآيات.

وقد ترتب على ذلك، تقرير أن ما لقيه الكفرة المجرمون ـ من نسيان الله لهم وتعذيبهم في الآخرة ـ إنما كان بسبب ما كانوا يعملون.

فبعد الإزراء بصنيعهم جزاءَ كفرهم باليوم الآخر مع قيام الدليل عليه، وعرضِ مشهدهم يوم القيامة وهم منكسو الرؤوس، يدعون الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وبيان أن الأمور بيد الله سبحانه جاء قول الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي بسبب ما كنتم تعملون، مما يدل على أن الكفر الذي كانوا يتمرغون في أفعاله في الدنيا، هو في الحقيقة عمل، ولكنه عمل سوء وهدم لأنفسهم وللمجتمع.

أما عن المؤمنين: فقد أثنى عليهم رب العزة، ذاكراً من صفاتهم: صدقَ تذكُّرهم، وعميقَ تأثرهم بآيات الله إذا ذكِّروا بها، وما يطبع سلوكهم من علو الهمة في طاعة الله، حتى إنهم ليجفون المضاجع ـ والناس نيام ـ يتخشَّعون قياماً بين يدي ربهم ويدعونه خوفاً من عقابه وطمعاً في رحمته، وفي الوقت نفسه، لا يبخلون بالإنفاق مما رزقهم الله؛ إذ تمتد آثار سلوكهم، إلى نفع الآخرين؛ لما أن إمداد المجتمع بما ينمي طاقاته، ويقيم أوده الاقتصادي؛ ودفعَ غائلة الفقر والعوز عن إخوانهم، هو

عبادة مرغّبٌ فيها شديد الترغيب، مثوب عليها في دين الإسلام: تنضمُّ إلى ما يقومون به من عبادات توقيفية أو غير توقيفية أخر ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد ذلك كله: نجد في الآية التالية البشارة العظيمة بما هم صائرون إليه من حسن العاقبة وجميل المثوبة في الآخرة، فإن أحداً لا يعلم ما اختبىء لهم مما تقرُّ به أعينهم، وتطمئن به نفوسهم.

وكُشف النقاب في ختام الآية أن ما نالهم من الخير كان جزاء بما كانوا يعملون، وفي ذلك ما فيه من تقرير العدل الإلهي المطلق، وأن الله جلّ شأنه لا يضيع عنده مثقال ذرة من عمل، ناهيك عما تحمله هذه البشريات من الترغيب الشديد في سلوك مسلكهم الطيب النافع في الدنيا والآخرة. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي جزاءً بسبب ما كانوا يعملون.

هكذا أعطي السلوك عند كل من الفريقين صفة العمل، وترتب الجزاء على ذلك العمل؛ هنا نرى ما نرى في بشارة أولئك البررة من المؤمنين الصادقين الذين يمتد نفعهم إلى الآخرين ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ومن قبلُ رأينا في وعيد أولئك الكفرة الجاحدين وقوع اليوم الآخر: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

والواقع أن مسؤولية البناء لا تفارق المسلم، لأن المسلم متعبَّدٌ بعمارة الأرض والإفادة مما سخر الله له في هذا الكون العريض لبناء القدرة الذاتية للأمة.. هذه المسؤولية إنما يقدرها حق قدرها، ويعمل على أداء حقها؛ عبوديةً لله تعالى: أولئك الذين يَعُون حقيقة الإسلام، ويسارعون إلى كل ما فيه مرضاةُ الله عز وجل؛ علماً وعملاً وسلوكاً وفي ذلك ما يغني المجتمع ـــ في شتى النواحي ـــ ويضمن نموَّ قدرته العلمية والاجتماعية والاقتصادية، وما إلى ذلك، ناهيك عما يضمن بناء القوة التي ترهب عدوَّ الله وعدوَّ أمة الإسلام، والتي يراد منها: حماية الحق، ودفع الظلم، ونشر دعوة الخير في العالمين.

وهذا ما يجعلنا نعاود ـ بكثير من الثقة واليقين ـ تأكيد أن الدلالة العظيمة التي ينطوي عليها وصف المؤمنين الصادقين بأنهم ـ بجانب الفضائل التي يوصفون بها ـ ينفقون مما رزقهم الله: هي دلالة على ما يمكن أن يصنعه الجمع بين العقيدة والسلوك القويم في النفس الإنسانية؛ بما يحدث من تسيير الطاقات في قنواتها الطبيعية، ووضع الأمور مواضعها؛ وهي دلالة بالغة الأهمية تأخذ مكانها الدقيق المناسب في نسيج التكامل الذي لا يعوزه الاهتمام بالأولويات، وتصنيفها بإحكام، فيما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون تصوّراً وتطبيقاً عملياً في دنيا الواقع.

وقد لا نعني التكامل ـ على إطلاقه وبأبعاده جميعاً ـ فذاك يؤخذ من مجموع النصوص هنا وهناك، وما أوفر وأوضح دلالاتها!!.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الآيات وأمثالها ـ بمؤشراتها المبكرة في العهد المكي، حيث المصاعب والأذى، ومحاولة الفتنة عن الدين في مجتمع لا حول فيه للمسلمين على الصعيد التنفيذي ولا طول ـ كما ترتفع بالمؤمنين إلى مستوى الفاعلية والتأثير في صنع المنهج وتنفيذه، والتكامل الدقيق الذي يمكّن ـ بعون الله ـ من دفع عجلة البناء والإنماء في إفادة من التطور العلمي وآثار هذا التطور، فهي ـ أعني تلك الآيات وأمثالها ـ حجة على كل أولئك الذين يفهمون الإسلام على هواهم، وينظرون في عقيدته وشريعته وتاريخه بعقول الآخرين.

مع أن الأدلة من النصوص، ومن الواقع التاريخي، والتطبيق العملي ـ مع وجود بعض الصفات التي لا يبرأ منها تاريخ وإن كانت في تاريخنا لا تعد شيئاً أمام ما جرى عند الآخرين ـ .. مع أن هذه الأدلة واضحةً وضوح الشمس في رابعة النهار، على أن هذا الإسلام دعوة الحياة بأوسع مفهوم؛ فهي تبني الحياة على نور من الله، وتسلك بالإنسان سبيل كرامته وحريته. وترتفع به إلى ما تسعد في الدنيا ويوم يقف الناس لرب العالمين.

ولكن أين التجرد في الحكم حتى من بعض أبناء جلدتنا هداهم الله؟! ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

عمارة الأرض.. والآفاق الحضارية البناة والتأسي.. وسورة السجدة

« ٤ »

بمقدار ما تبدو عملية البناء التي اضطلع المسلمون بحمل أعبائها ضخمة متسعة الأرجاء، متعددة الميادين: كانت العناية واضحة في إعداد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وتنمية الحوافز النابعة من العقيدة عنده، ليكون على المستوى المطلوب؛ وقوفاً عند حدود الله تعالى فيما تعبَّده به من التفكر والتدبر، والإفادة مما سخَّر للإنسان من الكون براً وبحراً وجواً وما أودع في هذا الكون من خيرات وثروات، وعناصر لها وزنها العظيم في ميادين العلم والبناء الحضاري، وحقول التجارب والإنجاز وأثرها الفعَّال في تطوير طرائق المعرفة والإفادة من التسخير.

ومن حكمة الله تعالى: أن المؤشرات لرحلة البناء الطويلة التي تتسم بسلامة المنطلقات، ووضوح الغاية، كانت مبكرة منذ أوائل العهد المكي، كما دلت على ذلك آيات عديدة أسعدنا اصطحاب زمرة كريمة منها والاستنارة بهداها في بعض ما سبق من القول.

ومع آيات كريمات من سورة السجدة ـ وهي إحدى السور المكية ـ كانت لنا وقفة أمام الأهمية التي يحملها لون من التكامل في الصفات التي تطبع سلوك المؤمنين الصادقين بإيمانهم؛ إذ إن هذا التكامل يعني ـ فيما يعني ـ أن المؤمن، مطلوبٌ منه أن يحقِّق عبودية الله في الأرض، لا في نفسه ـ فحسب ـ طاعةً وخضوعاً بين يدي الله عز وجل، ولكن فيما وراء ذلك أيضاً؛ حيث تمتد دوائر العبادة إلى الإنفاق مما رزقه الله من الحلال الطيب، عن رضىً وطيب نفس.

وفي ذلك ما فيه من إسهام في تكوين بنية سليمة للجماعة على طريق المجتمع الأمثل المنشود، ورفع قواعد الحضارة المثلى وروح التعاون والحسّ الجماعي بين أولئك الإخوة، الذين تلاقت قلوبهم على كلمة الله، وعقدوا الخناصر على أن يكونوا أوفياء للعقيدة التي شاء الله أن تكون منهج حياة لا يغادر ميداناً من الميادين، إلا أشاع فيه الحياة.

والآيات المشار إليها هي قول الله جل شأنه: **﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾**.

ولكن ما كان لنا أن نلقي عصا التسيار، بعد تلك العجالة من القول، قبل أن ننظر في بعض ما ورد في السنة المطهرة مما له صلة بهذه الآيات، ويعطي مزيداً من وضوح الرؤية في شأن صفات المؤمنين الذين يتحركون في ميادين البناء.

فعند تفسير قوله تعالى في شأن أولئك البررة الذين ينطق سلوكهم وصالح عملهم بصدق إيمانهم: **﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾** يورد المفسرون ما روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**عجب ربُنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه، من بين حِبِه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي، ورجلٍ غزا في سبيل الله تعالى، فانهزموا فعلمَ ما عليه من الفرار وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهريق دمُه رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي، رجع رغبةً فيما عندي ورهبةً مما عندي، حتى أُهريق دمُه**» وهكذا رواه أبو داود في الجهاد.

وواضح أن هذه الكلمات النورانية قالها رسول الله بعد فرض الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام كما سنرى قريباً إن شاء الله.

ولئن كان رسول الله ﷺ ــ كما تدل أحاديثه القولية والفعلية ــ قد حرص على التكامل في بناء الفرد المسلم الذي يخوض به معركة البناء.. إن الطابع العملي في سيرته ﷺ حجة قائمة على أمته في أن تتخذ من هديه الذي هو بيان الكتاب العزيز، نبراساً يضيء المسالك ويعين في مسيرة التغيير، فرسول الله ﷺ وهو المبلغ عن ربه ما أراد ــ كان يقول ما يقول ويفعل ما يفعل ويقرّ ما يقرّ، وهو يمارس بكلتا يديه عملية البناء، ولا يني ينمي الطاقات والفاعليات حتى أرسى القواعد وأحكم الأسس، فهل تتدبّر الأمة أمرها، وتترجم العواطف إلى واقع عملي يعيد لها بالكتاب والسنة سيرتها الأولى؟؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.



بات التي يفترض أن يضطلع بها في ميادين البناء الحضاري السليم.

كان مما رأينا من ذلك ـ فيما سبق ـ ما روى أحمد وأبو داود من قوله

ب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه من حِبِّه وأهله إلى صلاته،
عندي وشفقةً مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله تعالى، فانهزموا فعا
من الفرار، وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهريق دمه رغبةً فيما عندي، و
عندي؛ فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي، رجع رغبةً فيما ع
ةً مما عندي، حتى أُهريق دمهُ».

هذا الحديث الذي نطق به رسول الله ﷺ بعد مشروعية الجهاد، يدل بادي
على تعظيم شأن الصلة بالله تعالى، وفضل هذا الرجل الذي ثار من و
فه، من حِبه وأهله إلى صلاته في جوف الليل، رغبة فيما عند الله وخوف
؛ إنه واحد من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ما يدل الحديث أيضاً على مكانة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهدين؛
ى يثني على رجل غزا في سبيل الله تعالى، ورجع إلى مكانه من الصف
م مع من انهزموا، وظل يقاتل حتى أهريق دمه رغبة فيما عند الله وما
داء من العطاء، ورهبة من العقاب الذي يحلُّ بمن يفرُّ من الزحف. وهذا
الإيمان.

ولاه، ضارع إليه يستمدّ منه العون والقدرة على تحمل التبعات، ويسأله النجاة يو
دين. مجاهدٌ في سبيل الله؛ فإما النصر وإما الشهادة وكذلك كان أصحاب
رسول ﷺ؛ وذلك مما أقدرهم ــ والله أعلم ــ بعد أن انتصروا في ميدان النفس
فلحوا في تزكيتها ــ على تحقيق ما أنجزوا من التعفية على آثار الجاهلية
لانتصار في مواجهة التحديات التي لم تقتصر على ميدان القتال، بل كانت
ديدة الضراوة في عدد آخر من الميادين.

على أن الحديث يشير ــ كما يبدو ــ إلى نوع من الوجود العملي يصنعه تكام
عمل والحركة والسلوك بين المؤمنين؛ ولعل هذا يفسّر ما قيل عن أصحاب رسو
له ﷺ ــ وحق ما قيل ــ بأنهم **«رهبان في الليل أسود في النهار»**.

ونخطو من السنة المطهرة في بيان الكتاب الكريم خطوة أخرى، لنرى ما رو
إمام أحمد بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ ف
فر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعم
خلني الجنة ويباعدني من النار، قال: **«لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على م
سّره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصو
مضان وتحج البيت»** ، ثم قال: **«ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنّة والصدق
طفىء الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل»** ثم قرأ **﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَ
مَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّ
رَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾** ثم قال: **«ألا أخبرك برأس الأمر وعموده، وذرو**

وبعد: فأحسبُ أن هذا التكامل الذي طرحه الرسول ﷺ حين أتى على أركا
لإسلام وبيّن بجلاء أهمية الصدقة ومنزلة الصلاة والجهاد من الدين، بعد أن قرّ
ن رأس الأمر الإسلام، حتى وصل إلى عِظُم أهمية الصمت إلا عن خير...

أحسب أن هذا التكامل الذي ترجمه المسلمون إلى واقع عملي في حياتهم تصو
طبيقاً: يلقي الأضواء على ما تحقق من الفتوح والتأهيل الحضاري في حِقبة تبد
أنها من الخوارق.

والمهم أن توظف هذه الحقائق في دنيا الواقع ــ وحال المسلمين وما يعانونه م
فسهم ومن أعدائهم هي الحال.. ضماناً لسلامة المنطلق. واتساع الخُطى عل
ريق اليقظة والتغيير!!.

❧

سورة إبراهيم... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر

« ١ »

كثيراً ما يمر التالي لسورة إبراهيم، بالآيات المشتملة على دعائه عليه السلام ربَّه أن يجعل البلد الحرام مكة آمناً، ويُجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام، فيأخذه المعنى العام المتعلق بالبلد الحرام، وأن مكة وُضعت ــ أول ما وُضعت ــ على عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن إبراهيم عليه السلام ــ الذي كانت بسببه عامرةً آهلةً ــ تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن، واستجاب الله دعاءه، فكانت هذه الحقيقة العظيمة...

يمر التالي بالآيات، فيأخذه المعنى العام، وقد لا يستوقفه هذا الوضوح في إشراك بَنيه ــ عليه السلام ــ في الدعاء...

والآيات الكريمات هي قول الله تبارك وتعالى في السورة المومى إليها بدءاً من الآية الخامسة والثلاثين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

القضية التي يدعو بها إبراهيم عليه السلام، قضية تتعلَّق بالأصل الذي قام عليه بناء البيت، يوم رفع هو وولده إسماعيل قواعده ــ وهو التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ــ.

لقد دعا الله بأن يجعل البلد الحرام مكة ذا أمن، ويجنبه وبنيه أن يعبد الأصنام؛ فكأنهما أمران مقترنان.

ثم إن إبراهيم يريد أن يظلَّ لبنيه وذريته شرف التوحيد، شرف إفراد الله تعالى بالعبودية التي هي أرومة الخير والطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ إنه يخاف على بنيه أن يعبدوا الأصنام، فدعا ربّه أن يجنبه وإياهم ذلك؛ وإنما كان خوفه من أن تزلَّ القدم، فيعبدوا الأصنام؛ لأن الأصنام ضلَّ بهن كثير من الناس، عن طريق الهدى؛ حتى عبدوهنَّ والعياذ بالله.

ولكن إبراهيم ــ بجانب هذا الدعاء ــ كان يقف ــ وهذا أمر بالغ الأهمية ــ عند حدود مسؤولية كل عما يعمل وتكسب يداه؛ فيقول في دعائه بعد ذلك: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومعنى: فإنه مني: أي من أهل ديني وملتي؛ فالهدف الكبير أن يكون بنوه على الحق ــ وهو التوحيد الخالص هنا ــ وذلكم هو الاتباع الحقيقي، والله غفور رحيم لمن تاب عن جنوحه وعصيانه وأناب.

والحق أن الذي ينبغي أن يستوقف الناظر المتأمل ــ إضافة إلى ما تحمل الآيات من العطاء الكبير، وكلماتُ الله لا تنفد ــ هو ما يحمل هذا الدعاء الضارع الخاشع من إبراهيم عليه السلام، من توجيه مبكّرٍ للمسلمين في العهد المكي إلى موقع الأولاد، ومن يولّي الله الإنسان أمرهم: من القضية الكبرى التي يصبرون ويصابرون تحت رايتها، ويتحمَّلون ألوان الاضطهاد والعسف، ومحاولات الفتن عن الدين. إنه موقع بالغ الأهمية أيضاً من أجل الأولاد أنفسهم، ومن ولي المرء أمرهم في الدنيا ويوم الدين، وكما هو بالغ الأهمية من أجلهم، هو على المستوى نفسه من أجل مسيرة البناء الخيِّرة التي يقودها ــ برسالة الإسلام ــ النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام.

فإذا كان كثير من الناس قد أضلَّتهم الأصنام عن طريق الهدى، فالواجب الحتم أن يربَّى الأولاد تربيةً تحول ــ بعون الله ــ دونهم ودون أن يتحوَّلوا إلى عبادة غير الله، مراعىً في ذلك شديد اليقظة لما قد يكون من الأسباب القريبة أو البعيدة لذلك، ظاهرة كانت أو مموَّهةً مبطَّنة!!.

وإذن: فالتوجيه المبكر واحدٌ من المؤشرات الميمونة، على طريق بناء الإنسان المسلم الذي يكون له من إعداده الحقيقي، ما يؤهله لحمل أمانة البناء ومواجهة التحديات من داخل النفس ومن خارجها، ويكون ــ في الوقت نفسه ــ طاقةً تنمو وتتعاظم بزيادة الإيمان ــ لأن الإيمان يزيد بالطاعات وعمل الصالحات، وينقص بالإهمال والمخالفات ــ كما تنمو وتتعاظم بالممارسة الفعلية ــ في ظل الضوابط المشروعة ــ على أرض الواقع من أجل إعلاء كلمة الله.

وهكذا تتحوَّل القضية من علاقة عاطفية بين الوالد وولده... ومن هم على هذا السنن.. إلى مسؤولية يتقاسمها كلٌّ منهما ــ حسب موقعه في تلك المرحلة.

ومما يقرر ذلك ويؤكده: ما سبقت الإشارة إليه آنفاً: من أن إبراهيم عليه السلام كان ــ مع الدعاء الضارع الخاشع ــ وقَّافاً عند العمل وتحمُّل التبعة بصدق وإيمان ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إن هذا المؤشر على طريق العملية الجذرية. عملية بناء الإنسان المسلم، والعناية بالنشء ــ تربيةً وإعداداً ــ أن يكونوا على الجادة، بُناةً أمناء: ينبغي أن يزيد من الشعور بمسؤولية بناء الجيل من قِبل المؤتمنين بدءاً من المنزل، وهي مسؤولية لا خيار معها لأمة تحرص على أن تستأنف طريقها إلى العلاء، لتنهض من عثار، وتأخذ ــ من جديد ــ مكانها القياديَّ تحت راية الرسالة الخاتمة في العالمين.

سورتا إبراهيم والبقرة... ومؤشرات البناء في التوجيه المبكر «٢»

ما يزال الحديث موصولاً بومضات مشرقة من دعاء إبراهيم عليه السلام ـ كما جاء ذكرها في سورة «إبراهيم» ضمن آيات كريمات بدئت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

ومن الخير استذكار ما استوقفنا من دعاء إبراهيم عليه السلام من إشراك بنيه معه، في أن يجنبهم الله عبادة الأصنام، وما وقفتنا عليه الآيات من كونه عليه السلام قد وضع القضية في إطار المسؤولية، وأن يتحمَّل كلٌّ من أولاده تبعة ما يعمل وتكسب يداه ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولعل من الخير بمكان: أن أشير أيضاً إلى أن هذه القضية ـ قضية المسؤولية وإشعار الإنسان المكلَّف بأبعادها، وما يترتب عليها ـ قد جاء أمرها واضحاً على الصورة التي اقتضتها الحكمة الربانية في سورة البقرة، حيث أعلم الله تبارك وتعالى عباده من طريق الخطاب لإبراهيم عليه السلام، أن المسؤولية كائنة في أعناق من هم أهل لها في التكليف، وأن الجزاء مرتبط بهذه المسؤولية. يقول الله تعالى بدءاً من الآية الثالثة والعشرين بعد المائة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فالذي ينال شرف الإمامة: من كان على الطريق الهادية، مستقيماً على توحيد الله وطاعته، يحمل مسؤوليته بأمانة، لا يحيد ولا يريم.

أما الظالمون ــ المتجاوزون حدود الله ــ فليسوا من ذلك في شيء، جزاءً بما كانوا يعملون ﴿ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال ــ جل ثناؤه ــ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

ويطالعنا في أعقاب ذلك توكيد المقولة المشار إليها، مقولة المسؤولية وارتباط الجزاء بها، فنقرأ في الآية التي تلي: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

بل إن هذه الآية قد جاءت على الصورتين المتقابلتين؛ صورة من آمن بالله واليوم الآخر، وأن ذلك طريق سعادته، واستمتاعه بالأمن والرزق الحسن، ثم نجاته يوم القيامة، وصورة من كفر وعتا عن أمر الله، كيف أنه يتمتَّع في الدنيا، وهذه المتعة قليلة مهما كان شأنها؛ لأن الدنيا إلى فناء... وغير هنيئة مهما كان شأنها؛ إذا قيست بما يكون له من سوء العاقبة يوم القيامة ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أمتعه قليلاً مدة حياته ــ وإن كان صفو الدنيا مشوباً بالكدر ــ ثم ألجئه في الآخرة إلى العذاب البئيس في النار، فلا يجد عنها محيصاً، ولا يغني عنه يومئذ شيء من حطام الدنيا، وبئس المصير جهنم.

هكذا تتصل الحلقات بدءاً من العهد المكي، وحتى العهد المدني، ويتضح للفئة المؤمنة التي يخوض بها ــ على الصعيد الإنساني كله ــ رسول الله ﷺ معركة البناء في ميادينه جميعاً... يتضح لها أن البيت ــ وفيه الأسرة ــ لبنة أساسية في بناء الصرح المرتقب، وخليَّةٌ بالغة الأهمية، لأنها الخلية الأولى في المجتمع.

هذا: والمؤشر في تكامل حلقاته التي بدأت منذ العهد المكي، من خلال الحيِّز الذي أخذه في دعاء إبراهيم عليه السلام، ومن خلال الأهمية التي أعطيت للمسؤولية، وعلاقة الجزاء الوثيقة بها في الدنيا والآخرة... هذا المؤشر على دروب

البناء التي سلكها أولئك الذين استجابوا لدعوة الحياة: جدير بالكثير من الاعتبار والعظة والتأمل؛ سيما وأن القضية التي كان يدعو بها إبراهيم عليه السلام، قضية جذرية تتعلق بوحدانية الله التي قام عليها البيت المعظّم.

وغير خافٍ أن الكلمات الهاديات، كانت واضحة فيما دلّت عليه من وجوب وضع المكلّف أمام مسؤولية بوصفه أهلاً للتكليف والمسؤولية ــ وفي هذا مزيد من التكريم والإكرام ــ فلا تكاد تقف مسؤولية من أولاهم الله أمانة التربية والإعداد، والتعليم والإعلام؛ من الوالدين، والمعلمين والمربين ومسؤولي الإعلام... وما إلى ذلك! حتى تبدأ مسؤولية ذاك الإنسان الذي ربَّوه وأعدُّوه، وقد أصبح أهلاً للتكليف وتحمّل تبعات الواجب..

وإذن: فالمفروض أن تأخذ القِيَم مكانها اللائق في البناء، وأن تكون التربية على المسؤولية ــ **«كلكم راع وكلُّ راعٍ مسؤول عن رعيته»** ــ وحبٌّ أداء الأمانة فيها من داخل النفس قضيةً لا تقلب المهاودة؛ وكل ذلك مرتبط أيَّما ارتباط بسلامة القاعدة التي يقوم عليها البناء، وهي عقيدة التوحيد الطاهرة المباركة التي من أجلها رفع إبراهيم قواعد البيت المعظم ومعه ولده إسماعيل وكان من دعائهما: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾**.

العناية بتحديد المناهج للتربية والإعداد في ضوء الرسالة الخاتمة: ضرورة يقدرها حقَّ قدرها أهل البصيرة في هذا الشأن، علماً، وغيرة على الأجيال أن تحيد عن الطريق، وتتعطّل ملكاتها عن العطاء الخيِّر، وحرصاً على أن يكونوا من أهل الرضوان عند الله عز وجل: وفي الآيات المكية والمدنية فيضٌ من التوجيه إلى العمل على كل ما فيه سلامة الإنسان المسلم على ساحة البناء؛ وهذه أمانة في الأعناق لا يخرج القادرون من العهدة في أدائها على الوجه الأكمل إلا بذلك الأداء...

وقد وقفتنا معالم مضيئة ــ وكل المعالم القرآنية هداية ونور ــ في سورتي إبراهيم والبقرة على المؤشر البيِّن ــ بوجوده ودلالته ــ على طريق البناء؛ بدءاً من البيت أول خلية من خلايا المجتمع؛ حيث الواجب المؤكد في تربية الأولاد ــ على

عموم الكلمة في الدلالة ــ وإعدادهم حسب أهليتهم للتلقي ــ والكلام على التغليب بين الذكور والإناث ــ في كل مرحلة من مراحل السن، ثم العملِ على وضعهم بدقة وأمانة أمام مسؤولياتهم عندما يصلون إلى المرحلة المناسبة، وتنمية إحساسهم بهذه المسؤولية، بحيث تتكوّن عندهم الرغبة الصادقة بأداء الأمانة على هذه الساحة والوفاء بالواجب المنوط بكلٍّ منهم الوفاء به من داخل النفس، عن طمأنينة ورضى؛ الأمر الذي ينشيء ــ إذا أحسن البناء ــ حوافز الخير مهما كانت الصعاب، وينميها.

ذلك بأن الأمور ــ حسبما تقتضي العقيدة وما لها من حقوق ــ لا تجري في إطار من العواطف المتبادلة وتزجية الوقت، بعيداً عن مهمّات، بما لا يُسمن ولا يغني فتيلاً، ولكنها تجري في إطار تلك المسؤولية التي هي واحد من مظاهر تكريم الله للإنسان، حين جعله ــ بتكوينه واستعداده العقلي والقلبي والفطري عموماً ــ أهلاً للتكليف، ثم أنار له الطريق بنور الهداية، وحمَّله مسؤولية البناء في نفسه وفي أهله ومن ولاه الله أمرهم وفي المجتمع ــ قدر الطاقة ــ وجعل الجزاء مرتبطاً ــ على خط سواء بتلك المسؤولية، ولا يظلم ربك أحداً...﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

والآيات التي جرى الإلماح إليها في صدر هذه الكلمات في سورة «إبراهيم» إحدى السور المكية هي قوله جلت حكمته ــ بدءاً من الآية الخامسة والثلاثين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد الاستنارة بالمعلم القرآني في هذه الآيات المكية التي أوردتها بكاملها من عهد قريب، يُتيح النظر في آيات سورة البقرة المدنية التي تنصبُّ بعض معانيها في هذه القنوات المباركة على ساحة البناء.. يُتيح النظر المتبصِّر فيها استشفاف التكامل بين حلقات المؤشر الذي حوله ندندن على طريق بناء الإنسان في ضوء رسالة الإسلام، وضرورة أن يكون الاهتمام بالذرية من رحلة البناء ــ على تنوُّع شعابها ووعورة مسالكها.

والمسؤولية عهد في ذمم الجميع، كلٌّ حسب موقعه من تلك الرحلة، والثغر الذي أقامه الله عليه، ثم الميدان الذي عُهد إليه أن يضرب في جنباته بناءً وإنماءً، في سعي إلى تحقيق الصيغة المثلى لمجتمع مسلم قوي متوازن.

ولعل من الخير تجديد العهد بتلكم الآيات المباركات وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٥].

وتنتقل بنا الآيات إلى ما يؤكد المسؤولية، ويُشعر المكلَّف بحجمها وأبعادها، فنقرأ قول الله تبارك وتعالى في الآية التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

كثيرة وفيرة هي تلك الدروس، وبواعث العمل التي تفيض بها تلكم الآيات المكيُّ منها والمدنيُّ في هذا الموضوع المهم العميق، وهي ـ فيما هي علية ـ أمانة تجدر ترجمتها في واقع البناء ـ حيث الشكوى من ضعف الصلة بحقائق الإسلام والتحديات الموجَّهة التي لا تكاد تنحسر عن ميدان ـ إلى وجود حيٍّ في المناهج المرتقبة التي طال انتظارها وتنفيذها ـ بعد الغَفْوَة الطويلة في دنيا المسلمين ـ على صعيدي التصوُّر والتطبيق.

وهنيئاً للذين يعملون بجدية على مختلف التخصصات راجين رحمة الله وتجارةً لن تبور.

❊❊❊

دعوات إبراهيم.. ومؤشرات البناء السليم

« ٣ »

الدعوات الصادقة الخاشعة التي توجه بها إبراهيم الخليل عليه السلام إلى ربه ـ كما نرى في سورتي إبراهيم والبقرة ـ وقفتنا ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ على مدى الارتباط بين العمل الصالح المنبثق عن عقيدة التوحيد في ضيائها وعطائها، وبين ما يرجوه إبراهيم لبنيه وذريته من حياة كريمة مثلى وعاقبة حسنة في الدنيا ويوم الدين.

وإذن: فالتوجيه الذي برز في الآيات وتأكد في الآيات المدنية: واضح في حمل الجماعة على الجادة في شأن العناية بالبيت الذي هو الخلية الأولى التي لا يستقيم بناء المجتمع الفاضل إلا بأن تأخذ وضعها السليم كما ينبغي، تربيةً وإعداداً، وأخذاً بالأسباب في كل المراحل التي يتقلب فيها الأولاد مرحلة بعد مرحلة.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وكنت على أن أؤخر النظرفيما أكرم الله به الأمة ومهّد من طرائق الهداية في شأن الأولاد والذرية من الآيات في العهد المدني، حتى نكمل الرحلة مع ما ورد من ذلك في العهد المكي، ولكن ثناني عن ذلك أن قصة إبراهيم عليه السلام وما كان من دعائه وحرصه على ذريته أن تستقيم على أمر الله وتكون لها الإمامة في الخير، كل أولئك كان من مضمونات آيات مكّية وآيات مدنيّة على تنوّع في التفصيل؛ وشاهد ذلك ما نعمنا به في واحد من السور المكية هي سورة إبراهيم، وأخرى من السور المدنية هي سورة البقرة.

وبين يدي العودة إلى الآيات المكية نستضيء بهداها ونستلهم معالمها الخيّرة، أود أن أشير إلى أن إبراهيم ومن ورائه ولده إسماعيل عليهما السلام، كان واضحاً ـ والله أعلم ـ عندهما أن الضمانة التي لا ضمانة تدانيها، كيما تكون لذريتهما الإمامة في الدين والدعوة إلى الخير: هي أن تكون هذه الذرية على الإسلام ـ أن تسلم الوجه لله عز وجل، أن تستسلم له وتنقاد طائعة مختارة لأوامره ونواهيه ـ وكل ما هو من ذلك بسبيل.

ومن هنا كان من دعائهما عليهما السلام ـ وهما يرفعان قواعد البيت، بيت الله الحرام: أن يثبتهما الله على الإسلام، وأن يجعل من ذريتهما أمةً مسلمة لله عز وجل وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يبلغ دعوة الإسلام.

إنها نظرات عميقة، تنتقل من الحلقة الضيقة ضمن الأسرة المحدودة التي هي الأساس إلى ما هو أوسع من ذلك بكثير... إلى الأمة المسلمة، كيما يعمَّ الخير والهدى، وتكون هذه الأمة موئل البشرية، ومعقل التوحيد الذي فيه سعادة الإنسان وطمأنينته، وتحقيق وجوده؛ لما أن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي تعني إسلامَ الوجه لله عز وجل في أكل أمر وفي كل شأن، والطاعة للرسول ﷺ لأن طاعته من طاعة الله، وهي منهج حياة يحمل في ثناياه ـ مع عمقه وشموله ـ كل مقومات الطمأنينة ولاسعادة وما فيها الوجود الحقيقي للإنسان، بالحفاظ على إنسانيته وكرامته وحريته، وإقداره على تحقيق ما خلقه الله من أجله في نفسه وفي الآخرين.

وإلى أن تتاح ـ بعون الله ـ متابعة تلك النظرات العجلى في الآيات التي أشرقت بدعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أجد من الأمانة التذكير بثقل الأمانة في استخدام ما تحقق عند غيرنا من منجزات لا تجفو قيمنا على صعيد التربية والتهيج، ووضع ذلك بأمانة على طريق المسيرة البانية التي يراد من ورائها ـ بدءاً من النواة الأولى في البيت ـ إعداد الجيل المسلم ـ والحال هي الحال ـ لخوض معركة البناء كما هي في أبعادها، وجذورها ـ ضمن متغيرات العصر، واهتزاز القيم في بعض النفوس ـ وفي إطار توحي به عقيدة الأمة التي تمكّن للذاتية والأصالة في كل ميدان والحمد لله.

دعوات النبيين الكريمين ومؤشرات البناء القويم

« ٤ »

هذه عودة إلى ما دعا به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان قواعد البيت، وما تحمل تلك الدعوات من أهمية المرتكز الأول في بناء المجتمع وهو؛ الأولاد وامتدادهم من الذرية، وما كان واضحاً فيها من الأمل بفضل الله أن ينتقل الخير من الدائرة الأولى إلى الأفق الأرحب، فيجعل الله من الذرية أمةً مسلمةً له سبحانه، وأن يبعث في تلك الأمة رسولاً يحمل رسالة السماء إلى الناس، يهديهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور. كل أولئك يحملنا على معاودة النظر في تلكم الآيات التي شملت ـ فيما شملت ـ تلكم الدعوات، كيما نتبيَّن مدلول ذلك الضَرَع على ساحة البناء والإعداد.

والآيات الكريمات هي ما نجده في سورة البقرة بدءاً من الآية السابعة والعشرين بعد المائة وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

هذه الآيات التي أخبرنا الله فيها خبر إبراهيم وإسماعيل ـ في رفعهما قواعد البيت وما كان من دعائهما الصادق الخاشع ـ تهدي ـ والله أعلم ـ إلى أن بناء الفرد والأسرة والمجتمع والأمة بوجه عام ـ إذا أريد لهذا البناء أن يكون بناءً سليماً يحمل القدرة على العطاء ويتسق مع الفطرة وما أوجد الله عليه الإنسان منذ خلقه في أحسن تقديم: لا بد أن يكون محورُه الإسلام... الإسلام الذي يعني الاستسلام لله عز وجل، والانقياد لأمره ونهيه وطاعته في كُل شأن من الشؤون مهما دق أو جل...

كما تشير تلك الآيات إلى العناية بالخلية الأولى وهي البيت؛ فإذا سلم لها التكوين الصحيح، كان ذلك أدعى لسلامة البنية فيما بعد، حتى يصل الأمر إلى الأمة ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

وهذا الاقتران في دعوات الخليل وولده عليهما السلام، بين أن يجعلهما الله مسلمَين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له: يدل ــ فيما يدل والله أعلم ــ على مدى الأثر الذي تحمله التربية بالتعليم والموعظة وبالقدوة، فكونهما مسلمَين ــ بالمعنى الدقيق للكلمة ــ نموذج يُحتذى لمن بعدهما، يضاف إلى ما يكون من دعوة الذرية إلى الإسلام بالتعليم والموعظة وما إلى ذلك.

هذه واحدة: والثانية هي أن الأمة المسلمة التي تتسق حركتها على ساحة الواقع ــ عملاً ومضموناً ــ مع العنوان الذي تحمله في نسبتها إلى الإسلام ورسالته الربانية: هي تلك الأمة التي تُعنى أشد العناية بالأولاد والذرية تربيةً لا تهمل المرحلة، ولا تغفل عن سنة الله في التكوين، وتعطي العقل والقلب والجسم والمشاعر، كل ما يستحق من الإعداد وتنمية الطاقات الفاعلة المؤثرة.. وتلكم هي الخطوة السليمة على طريق التنمية السليمة للموارد البشرية، التي هي محور الإفادة من الموارد الأخرى، اقتصادية كانت أو غيرها.

ولكم كانت مشرقة دلالة الآية على السلوك العملي عند إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فالعمل العظيم الذي يقومان به وهو رفع قواعد البيت المعظّم، إنما يكون له شأن حين يكون مقبولاً عن الله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ السميع للقول والدعاء العليم بالأفعال والنوايا.

وكل هذا وذاك بالنسبة لهما ثمرة من ثمار إسلام الوجه لله. وهما يريدان ذلك لنفسهما ولمن يسعده الله من ذريتهما.

وتلكم هي النظرات المبصرة التي تتجاوز الحاضر إلى المستقبل، وتريد للخير أن يتسمر في الذرية والولد.

وكم نحسن إلى أنفسنا ومجتمعاتنا إذا وضعنا هذه المواقف موضعها من بناء الإنسان المسلم القادر على مواجهة الحياة. بإدراك الحقيقة أن وجوده الذاتي في هذه الحياة، لا يتحقق على الوجه المرضيِّ إلا بالإسلام!!.

جيل البناء... والسنن الإلهية فيه ونور الدعاء والطاعة عند إبراهيم وإسماعيل

« ٥ »

الآيات التي سبق اصطحابها، والتي وقفنا المعلم القرآني من خلالها على واحد من مؤشرات البناء التي تتعلق بالنشء والذرية وتتسع إلى ما وراء ذلك... هذه الآيات التي كان منها قول الله جل ثناؤه على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ مما يلفت النظر فيها أن النبيَّين الكريمين لم يقولا واجعل ذريتنا أمةً مسلمة لك بإطلاق، ولكن جنحا ـ بأدبهما ـ إلى التبعيض، فكان من تلك الدعوات ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ و«من» هنا للتبعيض..

إنه الموقف الذي يتسق مع واقع الناس ومقدار استجابتهم لدعوة الحق وتساميهم إلى مستوى يزينه إسلام الوجه لله، وتطويع العمل والسلوك لذلك..

ثم إن القرآن الكريم لم يُقم تَقَدُّم الولد أو تأخُّره على العلاقة النَّسبيَّة بأبيه، ولكن أقامها ـ كما هو من المسلَّمات ـ على مقدار الاستقامة على دين الله والأمانة في تحمل المسؤولية.

وفي بعض الآيات التي سبقت الدعاء الذي نلمح إليه ما يدل على هذه الحقيقة دلالة لا تقبل الاحتمال؛ ففي الآية الرابعة والعشرين بعد المائة، نقرأ قول الله جل وعز: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فإبراهيم عليه السلام ـ وقد ابتلي بكلمات فأتمهن ومن هذه الكلمات ابتلاؤه بأن يذبح ولده إسماعيل ـ امتثل لمولاه خير ما يكون الامتثال حين أبلغ ولده ما أمر به من ذبحه، واستجاب إسماعيل أفضل ما تكون الاستجابة وتلَّه والده للجبين، حتى كان إكرام الله بالفداء ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٨].

إبراهيم عليه السلام ـ وقد ابتلي فأتم ما ابتلي به من كلمات ـ: يكرمه الله تبارك وتعالى فيقول: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فيقول إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فيردُّ الله الأمر إلى السنة الإلهية التي لا تتخلف في ارتباط الجزاء بالإيمان والعمل، لا بالنسب، ونقرأ قوله سبحانه: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

فالكافرون الظالمون من ذريته، لا ينالهم عهد الله بأن يكونوا أئمة يقتدى بهم في الدين، ولكن هذا العهد ينال المؤمنين الصادقين الذين لا يرضون بالاستقامة على الدين بدلاً، ولا يبغون عنها حولاً.

تلك هي السُّنة التي يتبدى فيها العدل الإلهي بأجلى مظاهره، وتلكم هي السُّنة التي ينبغي أن يُنشَّأ على تصورها وإدراكها الأجيال في كل الأعصر والظروف.

إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ـ وهو في أسمى حالات العبودية الصادقة وأداء ما ابتلي به من كلمات تامات غير منقوصات ـ ويرده الله ـ تعليماً للناس وتوجيهاً إلى الطريق الأقوم ـ يرده إلى سنته الحكيمة، بأن الإمامة التي ترجوها لهم منوطة بإيمانهم وصدقهم، والقيام بما يوجبه الإيمان الصادق من صالح العمل واستقامة السلوك.. أما الظالمون المتجاوزون حدود الله، المنتهكون حرمات عباده: فليسوا من ذلك في قليل ولا كثير، مهما ارتفع نسبهم، وتكاثرت دعاواهم، وزُخرفت أقوالهم!!.

ومن هنا كان الأدب النبوي الجمّ في دعاء النبيين الكريمين ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ثم سألا الله تعالى أن يعلمهما شرائع العبادة التي هي من مقتضيات إسلام الوجه لله.

وفي تواضع يليق بأدب النبوة وخالص العبودية لله، سألا الله التوبة مما قد يقع من الزلات﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

والأنبياء معصومون، ولكنه الأدب وتعليم الذرية ومن ولاهما الله أمرهما، والتنبيه على أن ذلك من لوازم التكوين الصحيح للمسلم مما لا يخفى على ذي بصيرة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].



السنة الإلهية.. وتكافؤ الفرص على طريق البناء الدعاء.. والعطاء

«٦»

كانت لنا من قريب وقفات أسعدتنا بآيات من سورة البقرة، كان منها ما جاء في شأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ورفعهما قواعد البيت الحرام، ودعائهما ــ وهما يرفعان هذه القواعد المباركة الميمونة ــ دعاءً يشير إلى المرتكز الذي هو قوام سعادة البشرية وهو الإسلام، حيث يستجيب الإنسان لداعي الفطرة، فيسلمُ وجهه في عقيدته وعبادته وعمله وكل شأن من شؤونه لله.

وذلك ما سألا الله أن يثبتهما عليه، لأنهما بعد دعائهما أن يتقبل عملهما في رفع قواعد البيت، قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

إنهما مسلمان حقاً، قد وجّه كلٌّ منهما وجهه للذي فطر السماوات والأرض. وما هما فيه من رفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود: ثمرة طيبة من ثمار إسلامهما وانقيادهما الصادق لأمر الله عز وجل، ولكنهما يريدان التثبيت، ودوام الحال التي يكونان فيها مسلمين حقاً في كل شأن من الشؤون، مهما كانت العقبات والصوارف.

ولما كان من فطرة الإنسان حرصه على أن يمتدَّ الخير الذي هو فيه إلى ولده وذريته، وكان من محبة الله تعالى الاستسلام لأمره، وإخلاص التوجه إليه: حبُّ المرء أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له.. لما كان الأمر كذلك، دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما عز وجل أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له أيضاً؛ فلم يكتفيا باستحضار الخير والرحمة من الله لنفسيهما فحسب، بل انتقلا

إلى دائرة أرحب ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ثم سألا الله أن يعلِّمهما شرائع العبادة؛ وفي تذلل خاشع لله عز وجل، سألاه التوبة، مع أنهما معصومان بعصمة الله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ والأدب النبوي في قولهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ مرتبط أيَّما ارتباط ـ كما أسلفنا من قبل ـ بالوقوف عند ما تقتضيه واحدة من سنن الله الحكيمة ـ وكان سنن الله كمال وحكمة ـ وهي قياس الأمور بإيمان والعمل الصالح والاستقامة على أمر الله، لا بالأنساب والعناوين..

وكان ذلك واضحاً فيما دل عليه قول الله جلت حكمته: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ هذه الكلمات النيِّرات الجوامع...، كانت القولَ الفصلَ في قضية، لا تنحصر بجماعة من الناس أو جيل في عصر من العصور، ولكنها تصحب الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها...

إن هذه السنة الإلهية في ربط القيم بالإيمان والعمل والسلوك، لا بالأنساب والدعاوى: عزّزها من النصوص ما يدل أن على المسلمين أن يضعوها الموضع اللائق، وهم يعملون على بناء الإنسان، وإغناء المجتمع والأمة بالموارد البشرية القادرة ـ بإذن الله ـ على عمارة الأرض واستغلال خيرات الكون في طاعة الله تبارك وتعالى، على هدي الانقياد لأمره وإسلام الوجه إليه.

وهذه السنة التي لا تتبدل: كفيلة إذا أخذت مكانها الطبيعي على صعيد التربية والإعداد، أن تعطي تكافؤ الفرص ما يستحق من عناية، وأن تنشىء الحوافز الحقيقية التي تدفع بالمسلم ـ ضمن الظروف كلها والمتغيرات كلها ـ إلى ساحات العمل والإنجاز ـ بما في ذلك بذل المال والنفس ـ عن رضىً وطمأنينة، وتصور سليم للمنطلق والغاية؛ الأمر الذي يسهم إسهاماً حقيقياً في بناء القوة الذاتية للأمة ويتيح لها ـ وهي تتطلع إلى مستقبل أفضل ـ أن تضع أقدامها على الطريق المأمونة بإذن الله.

وربما يكون من الخير أن نشير إلى ما قد يتوهم من التعارض بين منع الإمامة عن أولئك الكافرين الظالمين ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وبين ما يعطون من متاع الدنيا: يدفعه قول الله تعالى في سورة البقرة نفسها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.



البناء.. وثروة البشرية من سيرة الأنبياء عليهم السلام

ثروة البشرية من سيرة الأنبياء عليهم السلام: ثروة لا يقدُرها حق قدرها إلا أولئك الذين توافر لهم الحظ الأوفى من العقل الراجح والبصيرةِ النافذة، والقدرة على إدراك الترابط بين وقائع التاريخ، وخطوات الإنسان في ميادينه هنا وهناك..

فإذا تحقق ذلك ـ بجانب العقيدة الصحيحة ـ كانت النظرة السليمة المناسبة إلى تلك الثروة المضيئة المعطاء، ووضعُها الموضع الملائم من مسيرة البناء التي تأخذ أبعادها الحقيقية في ميادين الحياة، إذا توافر لها الإنسان المؤهَّلُ كما ينبغي المبنى بناءً روعي فيه التكامل والتناسق مع الفطرة، وما كان من تكريم الله لبني آدم وخلقِ الإنسان في أحسن تقويم وما أودع الله فيه من أهلية الإفادة من تسخير ما سخّر له في هذا الكون العريض.

أقول هذا في متابعة للحديث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وما كان من دعائهما أن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة له سبحانه. فلقد تبيّن لنا من قبلُ ما للسنة الإلهية في ربط الأمور بالإيمان والعمل والاستقامة، لا بالأنساب والدعاوي ـ مهما كان لونها ـ من آثار على العملية الكبرى في بناء الفرد والجماعة وتنمية الموارد البشرية التي لا غنى للبنية الحضارية عن وجودها والتي تسهم في سعادة بني الإنسان.

أما الجاحدون الظالمون: هم هدامون في الدنيا أشقياء محرومون في الآخرة كما دلت الآية التي استضأنا بنورها فيما سبق ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الآية.

وما من ريب في أن قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يحمل في طياته الحرص على الوقوف عند هذه السنة الربانية الحكيمة؛ فمن لا يكون مؤمناً ولا يستقيم على الطريقة، أنَّى له هذا الفضل العظيم!.

والحق أن الذي نراه هنا عند النبيين الكريمين، الوالد والولد عليهما السلام، رأينا نظيره في دعاء الخليل عليه السلام الوارد في سورة إبراهيم، حيث الإعلان الواضح عن أن النسَب الحقيقي إنما يكون بسلامة اتباع النبي وطاعته فيما بلَّغ عن الله عز وجل...

أما من سلك الشُّعْبَ الآخر، وانحرف عن الصراط السوي: فليس من ذلك النبي في شيء، وإن كان ولدَه من صلبه.

والدعاء الذي نلمح إليه في سورة إبراهيم، هو ما جاء في قوله تعالى ــ في حديث عن الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

ولا يخفى على ناظر منصف في البناء الحضاري المتكامل الذي أقامه الإسلام، ما كان لهذه السنة الإلهية الحكيمة ــ حيث يتفاضل الناس بالتقوى ويرتبط الحكم عليهم بما يُقَدِّمون ابتغاء مرضاة الله...﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ــ من أثر فعَّال في تهيئة تكافؤ الفرص، وإنشاء الحوافز عند القادرين، والإفادة من الطاقات، بصرف النظر عن أصحابها ــ جنساً ولوناً وما إلى ذلك ــ ما داموا مسلمين صادقين..

وهكذا أسهم في عملية البناء الكبرى وأعطاها عنوانها الإسلامي الأصيل: كل أولئك البررة الأكفياء الذين أسلموا وجوههم لله عز وجل إيماناً بالرسالة التي أوحيَ بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام وتحركوا بإمكاناتهم تحت رايتها..

وهذا الذي يبدو من تهيئة المناخ الملائم، وإتاحة تكافؤ الفرص للجميع، لأن التفاضل كائن بالإيمان والعمل الصالح المثمر، والسلوك الذي يدل على صدق الانتماء... جدير أن يزيد من ثقة الأجيال بمنهج القرآن في البناء واعتزازهم الشديد به، وأن ينمي في نفوسهم حوافز الانطلاق المجدي، والأخذ بالأسباب الموصلة ــ في ساحات العلم والعمل والجهاد ــ إلى ما فيه خير الأمة ووضع تطلعاتها المستقبلية موضع الحركة والتنفيذ إن شاء الله.

التربية والبناء.. والأنموذج الصالح التساوق مع السنة الإلهية.. وقصة نوح عليه السلام وابنه

« ١ »

تدقيق النظر فيما هدت إليه معالم الكتاب العزيز في شأن الذرية والولد: أمر تفتقر إليه العملية التربوية التي يفترض منهجياً ــ على الأقل ــ أن يكون فيما تهدف إليه على هذه الساحة: إنشاء الحوافز الذاتية في النفس وتنمية التطلعات التي تنعكس على عملية البناء؛ ما كان من ذلك على صعيد الإنسان ــ عموماً ــ وما كان على صعيد المجتمع بخاصة.

ولعل من النماذج التي تؤكد ذلك، ما وقفنا عليه المعلم القرآني في مكي الآيات ومدنيِّها من أن سُنَّةَ الله الماضيةَ في الناس، تجعل قيمة الإنسان وعاقبة أمره، مرهونتان بإيمانه وعمله الصالح، وما يقدم لنفسه من الخير وللآخرين، لا بنَسَبِه وما يكون من دعاوى وعناوين.

والتوجيهُ الربانيُّ في أعقاب دعاء إبراهيم بمفرده، ودعائه هو وإسماعيل عليهما السلام ــ كما ذكرت آنفاً ــ يعتبر بحق كلمة الفصل في هذه القضية الكبرى التي كان من ثمراتها فسح المجال لتكافؤ الفرص، وأن يتاح للطاقات أن تعمل عملها، فتنموَ وتتعاظم بالممارسة والإنجاز.

فإبراهيم عليه السلام يقول ــ كما رأينا في سورة إبراهيم ــ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ وفي سورة البقرة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وفيها أيضاً: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فالأهمية لم تعطَ للنسب والعنوان، ولكن أُعطيتْ للإيمان والعمل الذي يرضى الله عنه..

وهكذا يتسع ميدان التنافس على الخير، ويتقدم من يتقدم بإيمانه الصادق، وترجمة هذا الإيمان إلى عمل صالح وسلوك قويم، ويكون له من وراء ذلك حسن العاقبة وخير المآب.

ويتأخر من يتأخر بجنوحه عن طريق الهدى عقيدةً وعملاً وسلوكاً، ويَحِلُّ عليه من وراء ذلك غضب الله في الآخرة والعذابُ الأليم.

ولقد كان من حكمة ربنا جل شأنه، أن عرض على الجماعة المسلمة في العهد المكي واقعةً عملية تبرز فيها السنة الإلهية التي نشير إليها ـ على أتم وجه وأكمله ـ، ذلكم ما حصل لنوح عليه السلام مع ولده الذي لم يكن من أهل السعادة، مع أنه ولد نبي كريم..

الطوفان يحاصر الناس، وقد تفجرت الأرض عيوناً، والتقى الماء على أمر قد قدر، وخطرٌ يحدق ـ إلا بأهل الإيمان ـ فلا يستجيب هذا الولد لدعوة أبيه أن يركب في السفينة!! فيدركه الغرق، ويتوجه نوح عليه السلام إلى ربه في شأن ابنه فيقول: ﴿ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمين﴾ [هود: ٤٥]. فيأتيه الجواب: ﴿إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. ففي سورة هود وهي إحدى السور المكية تطالعنا آية القصة ـ وهذا بعضها ـ بدءاً من الآية الحادية والأربعين في قول الله جل ثناؤه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فكأنها للواقع دائماً بصرف النظر عن الظروف والملابسات.

ولسوف تحمل إلينا سطور قادمة إن شاء الله ما تشرق به تلك السنة الربانية من نفاذ مهيمن يتجاوز حدود الزمان والمكان والأشخاص، وترى خط الواقع وافراً من ذلك في كل عصر.

وهذه الركيزة في منهج التربية والإعداد، والتي تملي على المجتمع أن يتيح للكفايات والطاقات أن تتحرك على محورها المناسب: جديرة أن تصحب تباشير اليقظة المرتقبة، وتعفّي على ما داخل الصلة بالمنهج الرباني من جهالة وفتور وتخلّف، وذلك مؤذن إن شاء الله بسلامة الخُطا إلى غد مأمول في ظل العزة والتمكين. ولله الأمر من قبل ومن بعد.



البناء التربوي.. والمنهج في قصة نوح عليه السلام
«٢»

من عجائب تقدير الله وحكمته في نصرة دينه القويم، الطريق التي اختارها لمن حُمِّلوا أمانة الإسلام وشرف الإيمان به والدعوة إليه.. أنَّ الصراع الدامي الذي كانت تخوضه الفئة القليلة المؤمنة في مكة لم يكن نثاراتٍ من الحوادث التي تقع هنا وهناك. دونما رابط يربط بينها أو فكر يوجه أصحابه ومنطلقات موزونة آخذٍ بعضها برقاب بعضٍ تحدِّد الخُطا، وغاياتٍ نيِّرة تتسق مع تلك المنطلقات.

بل العكسُ هو الصحيح؛ فقد كانت تلك التحركات كلها منضبطة بضوابط الرسالة، في تمايز واضح بين أهل الإسلام الذين يسيرون وفق منهج متكامل رسمته عقيدة التوحيد، وبين سَدَنة الجاهلية التي يحكم الإنسانَ فيها الهوى والتقليد الأعمى؛ ناهيك عن اختلال القيم واضطراب المعايير، نتيجة العدوان على الفطرة والعقل في هذا الإنسان.

وفي الجانب الذي سبق أن ألمحنا إليه من قصة نوح عليه السلام: ما يدل على أن الصراع الدامي الذي تجري الإشارة إليه: كان مصحوباً بتلك المنهجية الرائعة التي تحدِّد للمسلمين القيم والمعايير، وترتفع بهم إلى المستوى الذي لا يُعجزهم معه أن يخوضوا معارك التحويل وإنقاذ البشرية من الضياع المحتوم ــ كما يبدو ــ وأن تمتد أيديهم إلى أن يرفعوا قواعد البناء الحضاري السليم، وفق منهج ظهرت بوادره منذ العهد المكي في عصر الرسالة، حيث المجتمع ما يزال قياده بأيدي من يطوِّفون حول اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، متبعين ما ألفوا عليه آباءهم ولو كان هؤلاء الآباء لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

إن ما حصل لنوح عليه السلام مع ولده النَّسَبي ـ كما أخبر عن ذلك الكتاب العزيز ـ وَضَعَ المسلمين على المنهج الراشد وحدّد لهم القيم التي يجب أن يُحتكم إليها في تقدير قيمة الإنسان والعاقبة التي يؤول إليها، وما يجب أن يوضع في الحسبان عند التربية والإعداد.

فأين المفاخرة بالآباء والأجداد ولو كانوا على غير سبيل الهدى ـ معطلة عن العمل عقولهم، مضروباً عليها بالأسداد قلوبهم ـ، وجعلُ التفاضل بالنسب ولو كان صاحبه من أهل الغواية وشياطين الإنس.. الأمر الذي تثور معه الفرقة، ويضطرب حبل الودّ، ويُحرم المجتمع من إمكانات وطاقات كان من الممكن أن تعمل عملها في إقامة بنية سليمة لذلك المجتمع، لا تشكو في جانب اقتصادي أو اجتماعي أو غيرهما، وتمهد للكيان الذاتي المستقل للأمة.

أين ذلك كلُّه مما قصَّ الله علي نبيه ﷺ والمسلمين، من أن ولد نوح عليه السلام لم ينفعه في حومة الطوفان المعتصَم الذي أراد أن يأوي إليه، خلافاً لما دعاه إليه أبوه، فكان من المغرقين.

بل أين ذلك كله مما أعلنه القرآن من أن هذا الولد ليس ـ على الحقيقة ـ من أهل نوح عليه السلام، وإن كان ولَده الصلبي لما أنه عملٌ غيرُ صالح؛ خالف عن الصراط السويّ الذي يدعو أبوه الناس إلى سلوكه كيما يكونوا من الناجين يوم الدين.

وفي شأن النقطة الأولى نعاود ذكرى ما جاء في سورة هود المكية من قول الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ونقـرأ ــ مـرة أخـرى ــ في شـأن النقطة الثـانيـة التي تقـرر بـأسلوب غـاية في الوضوح، يحمل ما يحمل من التوجيه والبيان المعجز: أن ولد نوح الرسولِ المكرم عند الله ــ وقد جنح هذا الولد عن الصراط المستقيم ــ لم ينفعه النسب المجرد إلى أبيه المبلغ عن الله. ذلكم قول الله جلّت حكمته: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

إنه المنهج الذي أريد للفئة المؤمنة التزامه من أول يوم، في شأن القيم التي يحتكم إليها في إعداد الإنسان وتقدمه في المجتمع وتنمية الموارد البشرية.

وأنت واجـد أن القـرون المتطاولة لم تحُلْ في الماضي ولن تحـول اليـوم دون التبصُّر في الحجم الكبير الذي تأخذه هذه القضية على الساحة الإنسانية في حضارة الإسلام.



البناء التربوي والمنهج في قصة نوح عليه السلام

« ٣ »

أن تكون الواقعة التاريخية العملية مع نبي كريم من الأنبياء عليهم السلام، ومع إنسان هو ولدُه وفلذة كبده: أمر يفسح للقضية المراد تثبيتُها من خلال هذه الواقعة، أن تأخذ أبعادها في العقل والقلب والمشاعر.

وأنت واجد أن المسلمين ــ وهم يخوضون معركة الصراع بين التوحيد والوثنية، وما لها من عقابيل جاهلية على صعيد القيم والمعايير ــ كانوا ــ والمجتمع الجاهلي يئن من أذى المفاخرة والمكاثرة بالباطل ــ بأمسِّ الحاجة إلى مثل هذا النموذج الحيِّ، الذي حصل لنوح عليه السلام مع ولده من صلبه، الأمر الذي يزيد وضوح الرؤية ويضاعف القدرة على مواجهة التحديات الجاهلية التي قد تكون من الوالد أو الولد أو غيرهما من القرابة؛ والابتلاء بذلك أمر لا يحتمله وينجو من فتنته إلا المؤمنون الصادقون.

إن نوحاً عليه السلام دعا ربه متسائلاً عن حال ولده الذي غرق.. لقد غرق مع أن الله، وعده بنجاة أهله ــ كما نصَّت الآيات ــ ووعدُ الله الحقُّ الذي لا يُخلف ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ فبيَّنَ الله لنوح ــ وهو الأب الشفيق ــ أن ولده هذا ليس من أهله الذين وعده الله إنجاءهم، لأن الله وعد نوحاً بنجاة من آمن من هؤلاء الأهل؛ فهم لا ينجون لأنهم أهله، ولكن لأنهم مؤمنون، شأنهم في ذلك شأن من آمن من قومه ذلكم قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ .

وهكذا بمنتهى الوضوح ــ كيما يكون أهل الإيمان على بينة من أمرهم على تقلب الأجيال والعصور ــ يأتي الرد معلّلاً لا لَبْسَ فيه ولا احتمال: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

لقد كان الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيَّ الله نوحاً عليه السلام، وذلك متسق تمام الاتساق مع سنة الله في ارتباط الحكم على الإنسان بما يكون من إيمانه أو جحوده، وما يكون استقامته على أمر الله أو مخالفته عنه.

ومن عجب أن الآية التي حملت هذا الإعلان على طريق التربية وبناء الإنسان المؤهل لحمل العبء، وضبط المعايير التي يقاس بها قدرُه ويحكم من خلالها عليه.. من عجب أنها جاءت مثقلة بالتأكيد الذي صحب النفي والإثبات ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

هذا في النفي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وهذا في الإثبات. ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وما كان أسرع نوحاً عليه السلام ـ وهو الرسول المبلغ عن الله ـ إلى الوقوف عند حدود الله، والرضا بأمره، ولو كان الغريقُ ولدَه وفلذةَ كبده! فرضا الله أولاً، وهو يرجو بعد ذلك مغفرة الله ورحمته، فهو الأعلم بما يصلح عباده وما فيه خيرهم في الدنيا ويوم الدين ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وأكرم الله نوحاً عليه السلام بهذه البشارة: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

إن حاجة الأمة اليوم ملحة إلى التبصُّر في هذه القضية التي تأخذ مكانها في قواعد المنهج الرباني، حيث تنزلت هذه الآيات على الفئة المؤمنة تزيدها وضوحاً في الرؤية وتضبط خطاها، وتحدد لها المعايير وهي تضارع الوثنية والعادات الجاهلية ورواسب التخلف.

والشَبَه من بعض الوجوه قائم ـ دونما ريب ـ بين اليوم والأمس، خصوصاً فيما يتعلق بالانضباط والمنهجية والمعافاة من التشرذم على طريق بناء الإنسان المسلم الذي يُراد له أن يتحمَّل مسؤولية التحوُّل وتبعات استئناف المسيرة الخيِّرة والاحتكام.

إلى القيم المنبعثة عن العقيدة ووضع معيار الإيمان والاستقامة موضعه اللائق على ساحة التطلعات المستقبلية وتنمية الموارد البشرية القادرة ــ بكفاياتها العلمية والتجريبية، وفكرها النيِّر المتميِّز ــ على حمل العبء والإفادة مما وضع الله لدى الأمة من طاقات وإمكانات، وتسييرها في قنواتها التي تؤول بها إلى أن تكون مورد قوة تعيد لهذه الأمة مكانها الطبيعي تحت الشمس إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر: فلا بد من إثبات حقيقة، يجدر إثباتها هنا، وإن كان المقام ليس مقام التفصيل فيها؛ وهي أن الله تبارك وتعالى ــ وهو أعدل العادلين المتفضل بالحب والإحسان ــ قد بشَّر أولئك الذين لا يحيدون عن الصراط السوي بطاعتهم وأخلاقهم، بشّرهم بالجنة التي وعد المتقون، وضم إلى ذلك بشرة أخرى بأنهم يدخلون جنات عدن ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب؛ فالذرية الصالحة التي تنتهج طريق الآباء الصالحين تنال ما ناله السابقون.

ذلك ما جاء في صفات أولي الألباب التي جاءت على ذكرها آيات كريمات من سورة الرعد وما يكرمون به من عقبى الدار جنات عدن والحمد لله. يقول الله جل ثناؤه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

إنه قانون إلهي كريم: من صلح من الآباء والأزواج والذرية يشاركون ذوي قرابتهم أولي الألباب الصالحين، بأن تكون لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها، ويتفضل الله عليهم بأن تقول لهم وهم يدخلون عليهم من كل باب الملائكة: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وهذا ــ في الواقع ــ متوائم كل التواؤم مع قوله تعالى لنوح عليه السلام في شأن ولده الذي حاد عن الصراط السوي: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ومع قوله جل وعز: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وسبحان من إليه يرجع الأمر كلُّه وهو الحكيم الخبير.



البناء التربوي.. والحقيقة العلمية في قصة نوح عليه السلام

« ٤ »

الحصيلة التي صحبناها في صفحات قريبات لقصة نوح عليه السلام مع ولده، والطوفان وما رافق ذلك من نتائج: أكّدت وهي تُعرَض على المسلمين في العهد المكي، والإنسان مستهدف من رواسب الجاهلية. أكّدت مكان تلك الوقائع على ساحة المعايير والقيم التي مَرَدُّ الأمر إليها في تحديد المؤهلات الحقيقية التي ترشح الفرد للمشاركة في مسيرة البناء الخيِّرة، المسيرةِ التي تخطُّ معالمها عقيدة التوحيد، والتي كان الإنسان في المقدمة على سلم اهتماماتها، لما أنه هو المؤهَّل لأن يتفكر ويتدبر، وأن يعلم ويعمل، وأن يفيد تسخير الكون وخيراته، ويستخدم ذلك في بناء الحياة في إطار من التعامل السَّمح الموضوعي مع الكون والحياة.

من أجل هذا أفرد هو بخطاب التكليف.. وترى أنه ذكر مرتين في الآيات الخمْس الأُوَل التي تنزلت على رسول الله ﷺ في أول يوم خاطبه جبريل بالرسالة وحياً من الله عز وجل.

والآيات هي فواتح سورة العلق؛ ذلكم قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ ففي الآية الثانية ذُكِرَ الإنسان ضمن إشارة إلى الخلق، وما أكثر وأغزر الآفاق التي تحملها هذه الإشارة. وفي الآية الثالثة ذُكِرَ في بيان لأهمية العلم ومصدره الأول عن الله عز وجل: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

لقد حمل نوح عليه السلام إلى قومه الذين أرسل إليهم رسالة التوحيد، فما آمن معه ـ على طول الرحلة الزمنية ـ إلا قليل، حتى ولده النَّسبي ما استجاب لدعوة الإيمان ولا انصاع لكلمة الهدى وظلَّ معرضاً عن الحق وأتى يوم الابتلاء العملي،

فكان الطوفان، وقعدت بالولد جهالته، عن الانصياع لنصح والده النبي الذي دله على سبيل النجاة، فلم يركب معه في السفينة وكان مع الكافرين، وحال الموج العارم بينه وبين أبيه، فكان من المغرقين.

ها هما الآيتان الثانية والأربعون والثالثة والأربعون من سورة هود تكشفان عن موقف هذا الابن الجانح عن الصراط والعاقبة التي آل إليها؛ يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وسأل نوح ربه بأدب ورجاء، سؤالَ كشف عن مصير ولده، وذلك قوله تعالى في الآية الخامسة والأربعين: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فجاء الجواب الذي يجعل الأمر منوطاً بالإيمان والعمل؛ فكون هذا الإنسان المتمرد على الحق ولدَ نوح الصلبيَّ، لا يقتضي أنه من أهله ولذلك ينجو من الغرق!! وإذن فهو لا يدخل ضمن من وعد نوح عليه السلام بنجاتهم من الغرق.

وانظر إلى هذا الوضوح الذي لا يُغني غناءه شيء في منهج سلامة التصور على ساحة بناء الإنسان بناءً متكاملاً يُشعره بمسؤوليته، وأن نسبه لا يغني عنه من الله شيئاً إن لم يكن صادق الإيمان صالح العمل. وأكدت الكلمات الهاديات أن هذه حقيقة علمية على الرسول نوح أن يتمثلها فلا يسأل ربَّه ما ليس له به علم ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أجل: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فالأمر ليس عشوائياً ولكنه الحقيقة التي يغذوها العلم، علم الله المحيط بما يصلح عباده، وإلا فهو الجهل ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

فتلك مجموعة من الوقائع عزّزها وأعطاها مزيداً من الأهمية في تاريخ البناء عند الإنسان: أن القرآن الكريم كشف ـ وهي وقائع حصلت في تلك الحِقبة عن أنها حقائق علمية من أنباء الغيب ما كان يعلمها محمد ﷺ ولا قومه قبل أن يوحى بها إليه ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

إن وضوح هذه الحقائق في عالم التصور: له انعكاساته الفاعلة في عالم الواقع والتطبيق.

وموعدنا كلمات قادمات تقفنا إن شاء الله على ما يحمل إدخال هذه الوقائع في حيِّز العلم، وما يعنيه الأمر بالصبر وأن العاقبة للمتقين.



الوحي.. والحقيقة العلمية فاعلية هذه الحقيقة.. في بناء المسلم الفاعلية والتربية البناءة.. والبناء

الآية التاسعة والأربعون من سورة «هود» وهي قول الله جل ثناؤه خطاباً لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ هذه الآية الكريمة من تلك السورة المكية، هي التي خُتمت بها قصة نوح عليه السلام مع قومه وولده وما كان من أمر الطوفان وذيوله؛ حيث استأثرت هذه القضية ـ بوقائعها المتنوعة ـ بخمس وعشرين آيةً بُدئت بالآية الخامسة والعشرين.

والحديث فيما سلف من القول عن المكانة التي تأخذها ـ على صعيد التربية والإعداد وتحديد المفهومات ـ وقائع ما حصل لهذا الرسول الكريم مع أقرب الناس إليه نسباً، وما أعقب ذلك من أمور... هذا الحديث قادنا إلى هذه الآية التي تدخل هذه الوقائع في حيِّز العلم؛ وإدخالها في هذا الحيِّز يعني الكثير على ساحة المعتقد والثقافة جميعاً ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ....﴾.

يقول الله جل ذكره وتقدست حكمته لخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ـ وهو يعمل على بناء الإنسان المسلم وإنشاء المجتمع المنضبط بضوابط الإسلام ـ: هذه القصة وأشباهها ـ بما فيها من وقائع ـ من أخبار الغيوب السابقة، نوحيها إليك ـ نعلمك بها وحياً منا إليك ـ على وجهها الحقيقي كما وقعت وجرت لأصحابها، كأنك شاهدها، وقد مرَّ عليها قرون وقرون.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ ينفي الله سبحانه وتعالى أن يكون عند محمد ﷺ أو عند قومه علم بها؛ لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يواجهها بالتكذيب: إنك تعلمتَها منه، بل أخبرك الله بها مطابقةً لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد بذلك كتب الأنبياء عليهم السلام.

هكذا تحمل الكلمة القرآنية إلى الرسول الأمي صلوات الله وسلامه عليه، وإلى أمته هذه الحقيقة بأسلوب واضح لا يحتمل أيَّ لبس، وهي حقيقة أن مضمونات قصة نوح عليه السلام مع قومه وولده ــ كما أوردها القرآن الكريم ــ في غير موطن، ومنها ما دار بين نوح وبين هذا الابن، والمصير الذي انتهى إليه مع الهالكين، وما كان من سؤال التبيُّن من هذا الرسول الكريم، وما تلقاه من ربه عز وجل جواباً عما أراد الكشف عنه وتبيّنه في شأن ابنه، وإعلاماً له بالقيم والمعايير التي يخضع لها تقويم الإنسان ــ صلاحاً أو فساداً ــ وتنبيهه على أن ما كان من حكم الله على الولد هو من العلم الذي نُبِّه نوح عليه السلام على أنه كذلك، ونهي عن أن يسأل ربَّه ما ليس له به علم، مع ضرورة الاتعاظ بذلك خشية أن يكون من الجاهلين.. ــ الأمر الذي تتضح من خلاله العلة في كون ابن نوح الصلبيٍّ ليس من أهله ــ ثم ما كان من مسارعة هذا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الموقف الذي يليق بأدب النبوة والتسليم المطلق لله عز وجل والرضى عن طمأنينته بحكمه جلّ شأنه.. كل أولئك يدخل في نطاق الحقائق العلمية بلا ريب..

وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن الإخبار عنها كان من طريق الوحي الذي هو كلام رب العالمين ــ ومن أصدق من الله حديثاً ــ ولا يداخلها أدنى احتمال ــ مهما ضعف واشتد ضعفه ــ في إمكان أن لا تكون وقعت بكلياتها وجزئياتها التي أحاط بها الكتاب الكريم كلام الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾.

أما بعد أن تنزّل بها الوحي: فقد علمها النبي ﷺ وقومه المسلمون منهم وغير المسلمين.

كما أن القاعدة التي بني عليها ما كان من عاقبة ولد نوح في انتظامه مع الهلكى الغارقين، نتيجة إعراضه عن الحق، وعدم انصياعه لنصح والده الذي كان يتمنى له النجاة: كل أولئك من العلم ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وإذن: فالوحي ـ وهذا ما يجب أن يكون أقوى ركيزة من ركائز البناء الفكري الذي يجب أن يصاغ عليه العقل المسلم ـ هو أول مصدر يقيني من مصادر العلم؛ فقد يكون العلم من طريق الوحي ـ عند الحاجة إلى الخبر الصادق ـ وقد يكون من طريق الحواس.. وما يذكر من مصادر المعرفة هنا وهناك.. وقد يكون من طريق التجربة ـ وهو العلم التجريبي ـ وكل هذه الأنواع، مما دلّ عليه القرآن الكريم.

فبجانب ما نحن بصدده من تقرير أن الوحي هو المصدر الأول من مصادر العلم عندنا، نقرأ في سورة «الغاشية» ـ مثلاً ـ قول الله الحكيم الخبير: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

وهذا النظر الذي يدعو إليه القرآن ويحض عليه في معرض الاستدلال على وجود الله بعظيم خلقه وحكمته في هذا الكون، وآياته في الآفاق.. إنما هو نظر الملاحظة والتجربة، والتدقيق العلمي بمقدماته ومراحله التي يخالطها العلماء ـ على تنوع تخصصاتهم ـ أجل: التدقيق الذي يوصل إلى النتيجة السليمة من طريق المقدمة السليمة، وسبحان من علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

وهل يتحقق هذا بدون علم؟.



السلوك وتكامل البناء في سورة الحجرات

« ١ »

لعلّي لا أجد غضاضة في التذكير بأن ما يقفنا عليه المعلم القرآني عند اصطحاب الكلمات الهاديات في القرآن الكريم، كثيراً ما يكون إشارات لا يتسع المقام لتفصيل القول فيها، وللتفصيل مكانه لمن أراد. وعلى هذا السَّنن كان اصطحابنا فيما سبق من القول للآيتين التاسعة والعاشرة من سورة الحجرات، حيث وقفنا المعلم القرآني من خلالهما على الأهمية البالغة لارتباط الإيمان بالسلوك، والعلم بالعمل، وعلى ما للأخوة الإيمانية من أثر في التعاون على البر والتقوى، والقدرة على حل المشكلات الطارئة على صعيد ما يجب من رفد المجتمع بما يقوي بناه، وينمي طاقاته على مختلف الأصعدة في ظل ذلك المحور الإيماني، الأمر الذي يحقق تماسكه واستقراره، وقدرته على دفع العاديات بإذن الله.

وفي حديث موصول بهذا: ننتقل إلى الآية الحادية عشرة من السورة وهي قول الله جلّ وعز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

والذي يستوقف الناظر المتدبِّر ـ بادىء ذي بدء ـ في هذه البصيرة النيِّرة: هذا التكامل الذي يهدي إليه الكتاب العزيز، في الحفاظ على بنية المجتمع فالقضية الكبرى التي حصدت الأمة من انحسارها عن حياتها البلاء الكبير، والتي كانت محتوى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ الآية.. هذه القضية الكبرى في حياة الأمة والتي تأخذ ـ كما هو ظاهر ـ طابعاً أعم من

السلوك الفردي، في التعامل: تلاها التذكير بالقاعدة التي يقوم عليها كيان المجتمع المسلم وهي أخوة العقيدة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ولذلك ما له من دلالة هي الأمانةُ في أعناق المسلمين، والمخالفةُ عن أدائها من الجرائم العظام..

وها نحن نرى ضوابط السلوك بين الأفراد في حياتهم اليومية، وقد تتعدى إلى الجماعات، خصوصاً إذا لاحظنا تنوّع مسالك الحياة وشعابها المعقّدة والأمر الذي يدل على أن سلوك الفرد مع أخيه هو البداية؛ فإن كان سلوكاً خيِّراً كانت النهايات الخيّرة، وإلا كان الأمر غير ذلك وبنية المجتمع تتأثر بهذا وذاك.

ذلكم ما تشرق به الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات نفسها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

فالآية الكريمة تنهى عن السخرية، سواء كان ذلك بين الرجال أو بين النساء، أو في صور أخرى يكون فيها من هؤلاء وأولئك. والمعنى لا يسخر جماعة من جماعة ولا فرد من فرد ذكوراً كانوا أو إناثاً؛ لأن مقابلة الجمع بالجمع ــ كما يقول العلماء ــ قسمة على الأفراد؛ فكل رجل مطلوب منه هذا، منهي عن الوقوع فيما نهي عنه. وكل امرأة أيضاً. وتذكّر الآية بأن الأمر مردُّه إلى الله لا إلى المعايير التي من خلالها يستكبر من يستكبر ويحتقر من يحتقر والعياذ بالله ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

والملاحظ أن النهي عن السخرية بين المسلمين ــ وهي الاستهزاء والتنقُّص والازدراء ــ اقترن بما يثير العقل كيما يفكّر ويتثبت؛ فقد يكون من سُخِر منه، أو من سخر منها، خيراً ممن سُخِر أو سخِرت، وذلك مما يعين على الأوبة والعدولِ عن هذه الحماقة إن كان لدى الساخر المستهزئ بقية من إحساس تشعره بمقارفة الإثم لأنه يأتي خُلقاً نهى الله تعالى عنه، والنهي هنا للتحريم.

ثم جاء النهي عن اللمز والتنابز بالألقاب في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ اللمز: التنقص وإسناد إنسان لآخر ما يعيبه قالوا: لمز: ازدرى وعاب، وقد يكون ذلك بشتى صور التعبير، ولمز الإنسان أخاه لمزٌ لنفسه ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ المؤمنون إخوة؛ فعندما يعيب أحدهم الآخر، فقد عاب نفسه ولا تعيبوا فتُعابوا، وهذا غير التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الفرق بين ما هو لله وما هو للنفس والهوى، وقد تكرر الوعيد على الهمز واللمز في القرآن، والهمز: الغيبة من ورائه، وترى الخلقين مقترنين قال تعالى في سورة «القلم»: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ لأن الهمَّاز اللمَّاز مذموم ملعون ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١]. إذ الويل كلمة عذاب، أو وادٍ في جهنم، وللهمز واللمز صور شتى قولية وفعلية.

ولا تسل عن المفاسد التي تترتب على الهمز واللمز وما يكون من سوء العلاقة بين الناس بسبب هذا الخلق الذميم. كما نهى الله عن التنابز بالألقاب، وهو التداعي بالألقاب التي يسوء الشخصَ سماعُها.. فالمؤمنون منهيون عن أن يعيب بعضهم بعضاً بالقول أو بالفعل أو بأية وسيلة أخرى، وعن أن يدعو بعضهم بعضاً بلقب يكرهه، ومن ذلك: يا فاسق يا كافر، وما أكثر ما تسوِّل النفس ويزين الشيطان من ألقاب وكلمات!! وآثار ذلك لا تخفى على من يتبصَّر في الأمور، ويرقب المسار الاجتماعي، والعوامل السلوكية التي تسهم في وهن المجتمع وتقطيع الأواصر بين أفراده؛ من هنا كان الوعيد شديداً على التخلق بتلك الأخلاق التي تجرُّ وراءها ما تجرُّ من الأذى والفرقة وتعكر صفو النفوس، فقال تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بئس الاسم الخروج عن دائرة الحق والخلق المستقيم بعد الإيمان الذي يقتضي دفء الأخوة الإيمانية وحسن التعامل الذي يثمر ما يثمر من القوة والتعاون على البر والتقوى، ناهيك عما يكون من الطمأنينة والتحابِّ في الله وكم للمتحابين في الله من عظيم المنزلة عند الله. وختمت الآية بالدعوة إلى التوبة من ذلك كله ووعيدٍ من لم يتوبوا عن ذلك، ويستأنفوا السلوك المستقيم: بأنهم هم الظالمون لأنفسهم وللآخرين ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

هكذا رُتِّب الجزاء على الشرط في الآية، ومن هنا من أدوات العموم؛ فكل من أصرَّ على ذلك النهج الأخلاقي الظالم، فهو ظالم لنفسه ظالم لغيره، وهذا مجاف لأدب الأخوة وأخلاق أهل الإيمان.

إنها لمحة من لمحات الإعجاز في المنهج القرآني في تربية الإنسان المسلم وإعداد الموارد البشرية المذهلة لحمل العبء، والقيام بتبعات البناء ـ في جو من التآخي واستشعار الواجب في ظل الرسالة الخاتمة ـ، فالسلوك المستقيم عون لا عون يماثله ـ بعد عون الله ـ فيما عند الناس؛ على أن يأخذ العلم والكفايات والتخصصات كلُّها سبيلها الأمثل على صعيد التعاون الذي يمدُّه الحب في الله والثقة المتبادلة بين الإخوة ويحرِّك الأفراد بحوافز المودة والتضامن والرغبة في التعاون المجدي على هدي من الإيمان والأخوة المنبثقة عنه. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



خطوة أخرى مع السلوك والبناء في سورة الحجرات

«٢»

في نظرة عجلى إلى بعضٍ من آي سورة الحجرات التي رسمت للمسلمين ملامح المنهج السلوكي الذي يَهَبُ ـ بعون الله ـ المجتمعَ استقرارَه ونماءَ طاقاته الفاعلة، نعود مرة أخرى إلى الآية الحادية عشرة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقبل أن نعاود اصطحاب الآية الكريمة، استزادة من عطائها ودلالاتها، يحسن التذكير بما سبق أن أشرت إليه من هدي القرآن في تنبيه الفرد والجماعة إلى صيغة التكامل في السلوك، والكشف عن الارتباط الواضح بين الجزئيات والكليات، حيث ينعكس سلوك الفرد مع أخيه على الجماعة.

وتأثرُ المجتمع في ميادينه المتعددة كائن حسب نوعية السلوك، والعلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض.

وإذا كان هذا الأمر قد أخذ طابع التأكيد، وشديدِ الوعيد على السلوك المخالف بين الأفراد والجماعات؛ فالمطلوب ممن ولأهم الله أمور التربية والتثقيف أن يكونوا أشد حرصاً على الاستقامة في ذلك، والبعدِ عن كل ما يؤذي الفرد أو الجماعة لأن ذلك من الظلم، فسلامة السلوك تعني دوام الود ونماء القدرة على التعاون البناء بطمأنينة وثقة، الأمر الذي يعطي الموارد البشرية مزيداً من الفاعلية والقدرة على الإنجاز.

واضطرابُ هذا السلوك وانحـرافه يعطي عكس ذلك، ويؤثر بشكل تلقائي على نمو الطاقة المرتبطة ميدانياً بأولئك الذين اتسمت علاقاتهم بعضهم ببعض بهذا الانحراف.

تبدأ الآية الكريمة بخطاب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للتذكير بالقاعدة التي ينبني عليها العمل والسلوك؛ فهذا الخطاب الندي المثقل بالتكريم، يُشعر المؤمن بأن من مقتضيات إيمانه، أن يكون وقافاً عند حدود الله في أموره كلها ـ كائناً ما كان موقع المسلم أو المسلمة في المجتمع ـ ما دقَّ منها وما جلَّ، وهذا واحد من أسرار التكامل في منهج التربية والإعداد في القرآن الكريم؛ فإذا استقام له هذا الوقوف عند حدود الله، كان ذلك برهان صدق الإيمان.

ثم نهى الله تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

ولقد جاء التصريح بذكر النساء مع أن أكثر ما يكون خطاب التكليف في القرآن على التغليب، تأكيداً لأهمية هذا الخُلُقِ في الابتعاد عن السخرية بالناس، لما لاحتقار الناس والاستهزاء بهم من انعكاسات سيئة على علاقة الأفراد بعضهم ببعض، بل وعلى المجتمع نفسه.

وكثيراً ما تؤدي إلى الفتنة والتمزق والضعف. ولقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن رسول الله ﷺ قوله: «**الكِبْر بطر الحقِ وغَمْطُ الناس**». ويروى «**وغَمصُ الناس**» بالصاد، والمراد من ذلك ـ كما يقول العلماء ـ انتقاص الناس وازدراؤهم، واحتقارهم فإنه قد يكون من سُخِر منه أعظمَ قدراً عند الله تعالى وأحبَّ إليه من الساخر منه ومزدريه وبطر الحق: دفعه وإنكاره ترفُّعاً وتجبُّراً.

والعبرة دائماً للمعايير الحقيقية في العظمة والصغار، هذا بالإضافة إلى أن المؤمن أخو المؤمن، والمؤمنة أخت المؤمنة تجمعهم جميعاً كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فمن مقتضيات الإيمان أن لا يقع ذلك. وأن يُبتعد عن كل ما يؤدي إليه.

وقد صرَّحت الآية بأن الحق هو فيما عند الله، لا فيما يصدر عن هذا الساخر المنتقص. بعد أن ذكَّرت بالقاعدة الإيمانية، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال تعالى: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

ولو أخذ باحث اجتماعي عيِّنات من بعض المجتمعات لدراسة السلوك وأثره على الجماعة والمجتمع، لرأى قبساً من إعجاز القرآن في هذا التوجيه الذي لا يُحَدُّ بمجموعة من الناس في زمان أو مكان، ولأدرك شيئاً من عظمة المنهج الرباني فيما يرسُم لقواعد البناء وسلامة استمراره معافى من الأذى وعوامل الضعف.



سورة الحجرات.. وانعكاسات السلوك على البناء الاجتماعي «٣»

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول على بعض من عطاء الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات هذه متابعة نرمي من ورائها إلى التعرف على قبسات أخر من ضياء هذه الآية الأمر الذي يقتضينا معاودة النظر والتبصُّر؛ والآية الكريمة هي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وكون سورة الحجرات سورة مدنية؛ يعني أن هذه الآداب الإسلامية التي هي نبض الحياة في المجتمع المسلم ـ بعد أخوة الإيمان ـ تنزلت وقد استوى المجتمع على سوقه، واستضاءت تباشير الدولة المسلمة؛ فهي أخلاق لا بد منها للحياة الإسلامية دونما قصر على أزمنة أو أشخاص.

لقد صُدِّرت الآية بخطاب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشعاراً بالقاعدة التي يبنى عليها العمل والسلوك عند المكلفين أولئك الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وعلى أساس منها يخاطب المؤمنون بالتكاليف.

وما من ريب في أن هذا الخطاب النديّ بالخير والعطاء: جارٍ على سنة التغليب من معهودات العرب في الخطاب؛ فالمقصود: يا أيها الذين آمنوا ويا أيتها اللواتي آمنّ؛ ولكن أفرد النساء أيضاً بالذكر: تأكيداً لأهمية البعد عن هذا الخلق الذميم ـ وهو السخرية من الناس والاستهزاء بهم واستصغارهم ـ : لما له من آثار هدامة، ومن انعكاسات سيئة في دخائل الأنفس مع الأخوة، غير محمودة العواقب على ساحة التعامل وتصنيف القيم. ولأن ذلك قد يكون في غير الرجال أكثر أحياناً: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

وهذا يدل فعلاً على أن النساء شقائق الرجال؛ فخطاب التكليف واحد كما يدل على أهمية العناية بتربية المرأة في المجتمع المسلم وتأهيلها التأهيل الكافي، كيما تكون تلك المرأةَ المسلمة التي تعتز بدينها، فتقف عند حدود الله في عملها وسلوكها، كما يجعلها قادرة ــ بعون الله وفضله ــ على الإسهام في بناء المجتمع المتكامل المتوازن ــ الذي لا يعبث به التناقض ونمو جانب على حساب جانب آخر ــ وضمانِ قدرته على العطاء.

والواقع أن فسح المجال للعقيدة أن تأخذ مكانها في منهج البناء والإعداد للذكور والإناث، كفيل ــ بإذن الله ــ أن يباعد بين الفرد ــ ذكراً كان أو أنثى ــ وبين الغفلة. والوقوعِ في مثل هذه الخصال الذميمة التي تفرِّق ولا تجمع، وتزلزل الثقة في النفوس، وتباعدُ بين الأفراد وبين أن يركَن بعضهم إلى بعض. فارتباط السلوك ومنهج الأخلاق بالعقيدة التي من مقتضياتها طاعة الله في أمره ونهيه عبر طمأنينة ورضى، يجعل المؤمن على حذر من سوء العاقبة؛ لأنه عندما يقع في المخالفة فقد سلك سبيلاً مغايراً لما يقتضيه الإيمان، وتُمليه عقيدة التوحيد. وهذا يعني سوء المصير يوم يقوم الناس لرب العالمين لأنه قد رضي لنفسه أن يتمرغ في حمأة الظلم ويكون ــ إن لم يتب ــ من الظالمين.

ولذلك يبدو من الضرورة بمكان، أن يحافَظ ــ بمنهجية وصدق في الوجهة ــ على هذا الارتباط بين الإيمان والسلوك عند المرأة والرجل على السواء وإلا دخل النقص وكانت السوأى هي العقبى. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهي تعني ــ كما أسلفنا ــ فيما وراء ما تختص المرأة دون الرجل أو العكس.. تعني (ويا أيتها اللواتي آمن). ما دام خطاب التكليف واحداً ــ كما ذكرت آنفاً ــ وما تختلف به المرأة عن الرجل من أحكام، تابع لحكمة الله في التكوين وسبحان الحكيم الخبير.

ثم إن البعد عن حقائق الإيمان كثيراً ما يكون من الفراغ، فالفراغ يساعد على التطلع الفارغ إلى ما عند الآخرين، ورصد تحركاتهم، وقد يوقع في السخرية والاستهزاء والاستصغار. فالوقت عند هؤلاء: بدل أن يكون وعاء خير ونماء في

طاعة الله، ينقلب إلى مباءة إثم، ولا غبن أشد ــ على ساحة التعامل مع الوقت ــ من هذا الغبن كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري والترمذي وغيرهما: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»** .

فإذا شغلت المرأة بالنافع: باعد ذلك بينها وبين أن تشغل وقتها بما لا يجدي وكذلك الرجل.

إن كثيراً مما نشكوه في مجتمعاتنا الضيقة أو المتسعة اليوم من سوء السلوك وتناقض العلم مع العمل واضطراب حبل العلاقة بين الناس والأقربين منهم بخاصة، مردّه إلى هذا الانفصام المريع بين الإيمان والسلوك ــ الأمر الذي يدل على ضعف سلطان العقيدة على عقل المسلم وقلبه ــ ثم عدم شغل الوقت بما ينفع الإنسان نفسه وأهله ومجتمعه. ومن الخطل بمكان ما قد يظن بأن هذه القضية قضية هامشية بل إنها من القضايا الجذرية في بناء الإنسان والتي لها انعكاساتها العميقة الجذور في المجتمع.



سورة الحجرات.. وبناء المجتمع المتماسك بوجوده الذاتي
« ٤ »

المجتمع النظيف المتماسك الذي أقامه المنهج القرآني في المدينة وزاول بناءه على أرض الواقع والحركة رسول الله عليه الصلاة والسلام ومعه أصحابه الكرام الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا النور الذي أنزل معه.. هذا المجتمع ما كان ليكون كذلك لولا تلك الهداية الربانية في رد العمل والسلوك إلى الإيمان الذي من مقتضاه إحكام البنية الأخلاقية، والحيلولة دون أن تتحكم في السلوك العملي والأخلاقي مصالح قريبة قد تسيء إلى الآخرين، أو هوىً متَّبع يعمي صاحبه عن مراعاة حق الأخوة، ومقتضيات الإيمان، وما تعنيه رحلة البناء ضمن الجماعة المسلمة التي تهدف ـ فيما تهدف إليه على هدي الرسالة الخاتمة ـ إلى أن تقيم المجتمع الأمثل المعافى في بُناه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها والذي يحمل قابلية النمو والتطور إلى ما هو الأفضل.

وأقول إلى ما هو الأفضل، لأنه ليس كل تطور يكون سليماً، وأخذ كلمة التطور على إطلاقها كما يعنٌّ للمأخوذين ببهرج الغزو الفكري أن يأخذوها، دون النظر المتبصِّر فيما يراد منها، وتاريخِ وجودها عند غيرنا نتيجة ملابسات معينة، ليس أقلُّها فصل الدين عن الدولة، وما كان موقف الكنيسة من العلم. ثم الدعوة إلى أن يكون الأخذ بها عنوان التقدم والرقي، والانعتاق من ربقة التخلف، ويعنون بذلك الإيمان بوحي السماء والغيب وما إلى ذلك. وقل مثل ذلك في الدعوة إلى ما يسمونه «التحديث» على إطلاقه؛ لأنه يجمع بينهما جنوح مشبوه إلى التحلل من الثوابت في الكتاب والسنة، ومحاولة تفسير التاريخ والوقائع تفسيراً مجافياً للحقائق التي يشهد لها الوحي.

والمسلم مدعو إلى أن يطوِّر أساليب العمل والحركة، وأن يأخذ بالوسائل التي هي من ثمار العلم، والتي يصل ـ بعون الله ـ من طريقها إلى التمكين للإسلام وأهله في الأرض، بما لا يتعارض مع شيء من الكتاب والسنة ومفهوم أئمة الهدى والعلم منهما ـ لأن الحق من عند الله لا يعتريه شك في نفس المؤمن، والإسلام دين الله، والكون والإنسان والحياة من خلق الله.

وذلكم ـ دائماً ـ هو الطريق السليمة في مزاولة عملية البناء الكبرى بتعدد ميادينها والحاجات المتجددة الطارئة في المجتمع، بحيث يستفاد من التجربة ومن النتائج التي يصل إليها العلم التجريبي وغيره، دونما عدوان على الأصالة وحقيقة الانتماء إلى الرسالة الخاتمة التي جعلت ـ كما أراد الله تعالى ـ من أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، وهداها الله إلى عمارة الأرض وبناء الحضارة الإنسانية في ظل العبودية الحقة له، وسخر لها ما في الكون جميعاً، بمنهج شامل كامل متوازن مبرأ من تلك الثغرات ـ وما أكثرها ـ التي تعاني منها الحضارة المادية الراهنة في المنهج الذي قامت عليه.

أقول هذا ـ والحديث موصول ـ بعطاء الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات التي يحسن تجديد الذكرى بها، وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقد سبق أن أشرت إلى دلالة الآية ـ بالنهي القاطع ـ عن السخرية بالآخرين وازدرائهم، سواء كان ذلك على صعيد الأفراد أو الجماعات.

ولا يرتاب منصف في أن تنزه المجتمع المؤمن عن هذه الخصلة الذميمة مدعاة إلى الصفاء النفسي والتماسك والتآزر، والإفادة من الطاقات الفاعلة، في إطار من التعاون المثمر بين أفراد المجتمع على اختلاف الطاقات والقدرات، وتآزرهم على كل ما فيه سلامة هذا المجتمع وتنمية فاعليته لتحقيق رسالة الإسلام، وتسامي القدرة الذاتية عند الجماعة، والسير بها نحو بنية حضارية لا يعوزها النقاء والشمول.

ثم جاء النهي الجازم في الآية أيضاً عن أن يلمز بعض المسلمين بعضاً بالتنقُّص والالتماس للبرءاء العيب. وعندما يطعن بعض المسلمين ببعض، فقد طعنوا أنفسهم لأنهم إخوة، وهذا من أسوأ عوامل التخلخل والضعف، وقد يرتدُّ على ذلك البعض، طعنه لأن العيب فيه وليس في إخوانه.

وتقرير هذه الحقيقة حقيقة أن الأخوة الإيمانية تجعل من إيذاء الأخ لأخيه إيذاءً لنفسه لأن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ هذه الحقيقة تنوّعَ في القرآن التعبير عنها في عدد من المواطن؛ من مثل قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [النساء: ٢٩]. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. حيث جاء الخطاب بردِّ الضمير إلى الجماعة، فقتل المسلم المسلم ـ لا سمح الله ـ قتلٌ لنفسه بالمآل، وأكل المسلم مال المسلم بالباطل اعتداء على ماله هو.. وهكذا... ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وإن كان للمعنى وجه آخر ـ كما ذكرت آنفاً ـ ولا تعارض.

والحق أن بناء المسلم على هذه الحقيقة يشعر بمزيد من المسؤولية عن حراسة القيم التي تحكم المجتمع، وتضمن قابليته للعطاء، بعيداً عما يعكر صفو العلاقة بين الأخ وأخيه أو بين جماعة وجماعة أخرى من المسلمين وهم يعملون لتحقيق غاية كريمة واحدة.

ذلك بأن ذلك يشعر الجماعة بوحدتها، وإشعار الجماعة بوحدتها ـ وأعني بذلك جماعة المسلمين ـ ينمي في نفس المسلم أيضاً إدراك أن إيذاء الفرد إيذاء للجماعة، فلمز الفرد والطعن عليه لمز للجميع، وأكل ماله بالباطل عدوان على الجميع، ناهيك عن العدوان بالقتل أو غيره والمعاذ الله!!.

وللكلام بقية تتعلق بالنهي عن خلق ذميم ثالث وهو التنابز بالألقاب فيما يأتي إن شاء الله.

سورة الحجرات... وإلى قراءة جديدة في البناء

«٥»

ألقينا عصا التسيار في كلمات قريبات عند قول الله تبارك وتعالى في الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى ما تدل عليه الآية من نهي عن اللمز وهو أن يعيب المسلمون بعضهم بعضاً، فيطعن فيه بأي صورة من الصور قولاً كان ذلك أو فعلاً أو ما هو منهما بسبب، وذلك كثير. ولقد جاء النهي عن الانتقاص بالفعل في القرآن وتُوُعِّد فاعله في أكثر من موطن.

فلقد سميت إحدى السور القصار ــ كما أشرت من قبل ــ بسورة الهُمزة وهي مبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ فهذا المتوعَّد بالويل جمع بين شدة الاغتياب، فهو مغتاب غيّاب للآخرين، وهو يتنقص ويلتمس للبرءاء العيب وفي التعبير القرآن ﴿وَيْلٌ ...﴾ الآية من التهديد والوعيد ما هو ظاهر؛ فالهمَّاز اللمَّاز معلون والعياذ بالله.

والويل ــ كما سبق ــ وادٍ في جهنم أو لون من ألوان العذاب كما يقول أهل التأويل وفي معرض الذم قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ فهو يحتقر الناس ويلمزهم طاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي من اللمز بالمقال.

ثم انتقلت الآية الكريمة ــ من سورة الحجرات ــ إلى النهي عن خصلة ذميمة أخرى وهي التنابز بالألقاب؛ فالمؤمنون منهيون عن أن يدعو بعضهم بعضاً باللقب السوء، لأن الأصل أن لا يسيء الأخ إلى أخيه، وأن يكون سلوكه في التعامل معه على الشكل الذي

يحفظ الود، ويقوي الأواصر؛ فإذا كان هنالك لقب يسوؤه، فدعوته به لا تجوز، وتأكيداً للنهي عن هذا التنابز جاء التنديد به والوعيد عليه كما هو واضح في قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي بئس الصفة والاسم: الفسوق والتنابز كما كان أهل الجاهلية يتداعون ويتناعتون، بعد ما أنعم الله عليكم بالإسلام وعقلتموه. وأين أخلاق الجاهلية التي قد يهين بعضها الإنسان ويسهم في زلزلة المجتمع: من أخلاق الإسلام التي تكرم الإنسان وتبنى صروح المودة والتعاون على الخير.

ولعل ما يزيد الأمر وضوحاً: ما جاء في الواقعة العملية التي كانت سبب النزول؛ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن أبي جَبيرة بن الضحاك رضي الله عنه قال: فينا نزلت هذه الآية بني سلمة، قال: قدم علينا رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان، أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا فلان»، فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم: فأُنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ هذه رواية أبي داود.

والمراد طبعاً بعض من الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات. وعند الترمذي قال: كان الرجل منّا يكون له الاسمان والثلاثة، فيُدعى ببعضها، فعسى أن يكره، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

هكذا يُعنى القرآن هذه العناية ببناء الإنسان على هذه الشاكلة، كما يُعنى بالحرص على سلامة العلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض، فيتابع السلول حتى فيما يجوز أن يدعو بعضهم بعضاً به أو لا يجوز. فما بالك بما هو أكثر وأكثر، وذلك كله كائن ــ ولله الحكمة البالغة ــ كيما يتسنى لهم بناء المجتمع وصيانته عن كل ما يضطرب معه حبل الود وتختل بسببه مسيرة التعاون البنّاء بين الأخوة المنوط بهم حمل العبء والنهوض بالتبعات على هدي دعوة الإسلام التي هي دعوة الحياة: فهل من قراءة جديدة متدبرة لمعالم العطاء في القرآن الكريم، يترجمها الإخلاص والصدق إلى واقع حي على ساحة التغيير! نرجو من الله ذلك.

البناء.. وما يعنيه ختام الآية الحادية عشرة من سورة الحجرات

«٦»

حاجة المجتمع إلى ضوابط الأخلاق الكريمة في نظرة الأفراد والجماعات بعضهم إلى بعض، وفي السلوك الذي ينتظم التعامل فيما بينهم: حاجة على غاية الأهمية. والعلاقةُ الوثيقة بين الأخلاق والعقيدة التي تتمثَّل في سلامة السلوك ــ كما أراد الإسلام ــ: لا تخفى، وقد كان من عناية القرآن بهذا الأمر الجلل: أن عرض له في مواطن عدة من آيه بل رأينا سورة مدنية ــ هي سورة الحجرات ــ تفرد تقريباً لهذا.

ورحلتنا المباركة مع معالم هذه السورة انتهت بنا إلى الآية الحادية عشرة التي رأينا من عطائها على ساحة العلاقات الاجتماعية، توجيه المسلمين وهم يمارسون عملية البناء لهذا المجتمع القدوة في العالمين ــ إلى ما فيه تقوية أواصر المودة والتآخي بين المؤمنين وصيانة هذا المجتمع عن التفكك الذي يعود على عملية البناء وصيانتها بالضعف والانحلال.

وقد ختمت الآية بما يؤكد وجوب الالتزام باجتناب تلك الأخلاق الذميمة التي جاء النهي صريحاً عن الوقوع في شيء منها، حيث رأينا ما يشي بوجوب التوبة إن حصلت المخالفة، وتوعُّد من لم يتب، بالحكم عليه بأنه ظالم لنفسه وللآخرين، ولذلك ما له من عقابيل لا تحمد عقباها في الدنيا ويوم الدين.

وما ختمت به الآية هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

هكذا يلاحظ بوضوح: أنه بعد النهي الجازم عن أن يسخر قوم من قوم أو نساء من نساء وعن أن يعيبَ المؤمنون أنفسهم فيطعنَ بعضُهم على بعض بمقاله أو فعاله أو غير ذلك..، وعن أن يدعو بعضهم بعضاً باللقب الذي يسيئه والتنديد بذلك... بعد هذا كله ختمت الآية بقوله جل وعز: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إنه تنديد واضح بتلك المنهيات والوقوع فيها أو في بعض منها ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ﴾ الخروج على الحق، والعدول عن الصراط السوي بعد الذي يوجبه الإيمان من استقامة السلوك. ومن لم يتب عن ذلك كله وهو مجموعة تلك المنهيات أي شيء منها إذا تمرَّغ في حمأة ذلك: فقد تجاوز الحدود المشروعة في التعامل بين المؤمنين الذين جمعت آصرة التوحيد بينهم وألّفت بين قلوبهم كما شاء الله جل شأنه. أجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لا فرق بين ذكر وأنثى من أهل التكليف، والتنبُّه لذلك غاية في الأهمية.

وإذا كنا على ذكر مما يشرق به المنهج القرآني من التكامل في منهج البناء ـ بشتى ميادينه ـ نجد من الدقة في تطبيق هذا المنهج بالنسبة للفرد والجماعة: ما يلاحظ من الأهمية لتنزيه المجتمع عن تلك الخلائق الفتاكة؛ فالنهي ـ في الأصل ـ يقتضي التحريم، ومن أجل ذلك يفترض بالمسلم رجلاً كان أو امرأة أن ينتهي ـ بدافع من إيمانه ـ عما نهى الله عنه لأن حراماً عليه أن يعصي الله فيرتكب المحرم الذي نهاه سبحانه وتعالى عنه، ومن الإعجاز: ما صحب الحكم من الدليل الناصع المقنع لمن أراد مقنعاً، وحسبك أن أحكام النهي عن تلك المذمومات بدئت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكيراً بالقاعدة التي تبنى عليها الأحكام المطلوب العمل بها ـ كما سبق غير مرة ـ، وإن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات من مقتضيات الإيمان.

فالإلتزام برهان صدق هذا الإيمان، والآية الكريمة جمعت إلى النهي هذا التنديد بمن لا يتوب عن ذلك كله حين يقع فيه وَوَسْمَهُ بسمة الظلم على سبيل الحصر، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وإذا كان الظلم في الأصل هو التجاوز ـ كما ذكرت آنفاً ـ ووضع الشيء في غير موضعه الشرعي؛ فهؤلاء ـ المقصودون

بالوعيد ــ هم الظالمون لأنفسهم بمعصيتهم ومخالفتهم، وهم الظالمون للجماعة والمجتمع بإتيانهم نوعاً من السلوك يتنافى مع أخوة العقيدة، ويعرِّض الجماعة للتفكك، والمجتمعَ لألوان من الاهتزاز هو في غنى عنها، لأن التفكك في الجماعة وضعف الأواصر التي تربط الأخ بأخيه، وتنمي ــ لأنها من الإيمان وإليه ــ حبَّ التعاون على البناء من أعماق النفس، وكلٌّ ذلك ينعكس على بنية المجتمع بشتى وجوهها وميادينها، وكم ذا ترى من الأمثلة الناطقة بهذا على كل صعيد، ولكن أين القلوب؟؟.

وواضح أن منهج القرآن في بناء الفرد والمجتمع لم يقتصر على وضع الأسس السليمة، بل شفع ذلك بتوجيه من يزاولون عملية البناء، إلى السلوك الأمثل الذي من ثمراته: ضمان استمرار البناء، وتنمية قدرته على العطاء، تحقيقاً للهدف الكبير، وهو تقديم الإسلام وأحكام الإسلام وأخلاق الإسلام خالية من الشوائب، كي تمثل الصورة الحركية على أرض الواقع، لا أن يظل الإسلام حبيس الأوراق وعقول أصحابه المنحسرين عن العمل راضين، أو مغلوبين على أمرهم بقهر الظلمة والطغاة أعداء الله والإنسان.

والعظيم في الأمر: تعميق إحساس الفرد بالعلاقة الوطيدة بين معتقده، وبين النهج الأخلاقي الذي يلتزمه وهو يتعامل مع الآخرين، أولئك الذين يصحبهم بخطأ تظللها أخوة العقيدة في رحلة البناء ــ على أنقاض موروثات جاهلية هنا وهناك ــ بكل تبعاتها ومسؤولياتها؛ فإن زلت قدمه فظاهَرَ على الخلق الإسلامي. فقد خالف عما به يؤمن وإليه يدعو ويرفع عقيرته به حيث دعوى الحرص على أن تكون كلمة الله هي العليا، والذود عن حياض الإسلام، وصدق فيه من بعض الوجوه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢].

وأنت واجد أن ذلك كله، محال أن يقتصر على زمان أو مكان أو مجموعة من الناس؛ فهو دائماً ــ كما ينطق الفرقان المعجز ــ للمسلمين في واقع حياتهم، وممارستهم لشؤونها، وهم ينشئون بشرعة الإسلام وأخلاق الإسلام هذا الواقع،

ويأخذون بأسباب للتمكين في الأرض، فيعمرونها كما أراد الله، ويسهمون في إعداد القوة التي أمر الله بإعدادها لإرهاب عدو الله وعدوِّهم، فيضربون في كل ميدان من ميادين الحياة التي لا تنفصم عراها عن النظر إلى الآخرة وما يمكن أن تكون العاقبة فيها، إذ إنه ليس بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار.

كل أولئك ـ كما هو المطلوب المؤكد ـ على هدي من معالم الكتاب العزيز، وبيانه المبارك من سنة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وإذن: فالنظرة من خلال الواقع المعاصر ـ والمسلمون وهم يعانون ما يعانون، على عتبة انطلاقة جديدة بعون الله ـ توجب أن يؤخذ جيل البناء اليوم بما أُخذت به أجيال البناء الأُوَل الذين صنعوا من الخير ما صنعوا في تاريخ الإنسان عبر القرون. وهدايةُ القرآن، وبيانه من سنة النبي ﷺ، وما فقهه أئمة الهدى من النصوص فيهما.. أمانة في أعناق المسلمين ـ بعامة ـ وفي أعناق من بيدهم كلمة الفصل والنفاذ فيهم على ساحات البناء والإنماء ـ بخاصة ـ لما أن مسؤوليتهم تضاعف بمقدار الثغور التي أقامهم الله عليها، وأوتوا من المكانة والقدرة على التنفيذ ما لم يؤت غيرهم..

والمُخلِص كلُّ المخلِص لهم وللأمة: مَنْ حذّرهم سطوة الجبار وعقابه، إن هم تهاونوا في أمر الأمة واتخذوا أعداء الله أولياء. ولله عاقبة الأمور.



البناء الاجتماعي.. وآية من سورة الحجرات

«٧»

المحور الذي أدير عليه الحديث في صفحات قريبات، حمل الإشارة إلى ما تعطيه بعض الآي في سورة الحجرات ـ وهي سورة مدنية ـ إلى ما تعطيه ـ وهي تنير السبيل لمن حملوا أمانة البناء في المجتمع الوليد ـ من إحاطة للعلاقات الاجتماعية النديّة بشذى الإخاء الإيماني، بسور من الأخلاق الكريمة، وتحريم نقيضها، وبالسلوك المنضبط بضوابط العقيدة عند تعامل الأفراد بعضهم مع بعض في المجتمع المسلم. وأنَّ الجنوح عن ذلك الصراط السويّ: أمر جدُّ مستنكر؛ فإن تاب عنه صاحبه فبها ونعمت وإلا كان ظالماً والظلم غير محمود العقبى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وعلى هذا المحور المضيء، ينتقل بنا المعلم القرآني إلى الآية الثانية عشرة من السورة نفسها وهي قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

إنه ما دام المسلمون حَمَلَةَ رسالة ختمت بها الرسالات، يراد لهم أن يبنوا المجتمع المنوط بهم قياده على هديها، كيما يكون صورة عملية ناطقة، تحكي صلاحيتها المطلقة لبناء الحياة بعيداً عن الزغَل ونسيان الله واليوم الآخر، على الوجه الأكمل... ما دام المسلمون على مثل هذه القضية الكبرى في بناء المجتمع القدوة في الأعصر كلها: فلا بد أن يكون الفرد المسلم، والجماعة المسلمة، على المستوى الذي يتواءم مع عظم المسؤولية وضخامة التبعات.

من أجل هذا، نرى في معالم الكتاب العزيز ما نرى من حرص على استقامة السلوك عند الجميع، وعلى حسن العلاقة بين الأفراد والجماعات، في إطار الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما يرتبط بها ـ وهو من بعض حقها ـ من أخلاق تزين التعامل، وتطبع سلوك العاملين.

وقد رأينا شيئاً من ذلك فيما صحبنا من آيات سورة الحجرات، والآية التي جرى إثباتها آنفاً، تحمل ـ أول ما تحمل من كريم التوجيه ـ أمْرَ المؤمنين باجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وتنهى عن التجسس ـ وما أقبحه ـ وعن الغيبة التي لها من سوء الأثر ما لها.

وهذا النهي عن الغيبة أتبع بصورة فائقة التعبير، تنفّر من هذه الخصلة الذميمة أشد التنفير ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ثم ختمت الآية بالأمر بتقوى الله ـ والتقوى منبع الخير ومعيار العمل ـ فالله تواب رحيم لمن تاب عن ذنبه، وأناب إلى مولاه، وصدق في التوكل عليه.

هذا: وقد بدئت الآية الكريمة ـ شأن التي سبقتها ـ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو النداء الذي يستثير القلوب والعقول لاستذكار القاعدة التي ينبني عليها التكليف. وقد جاء الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على التغليب بين الذكور والإناث؛ لأن خطاب التكليف للجميع واحد، وهذا لا يتعارض مع وجود أحكام تختصُّ بهؤلاء دون أولئك، تشير إلى حكمة الله في طبيعة التكوين، وعلى هذا: فالمراد ـ والله أعلم ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و (يا أيتها اللواتي آمن).

وبصيغة الأمر الجازم بالاجتناب، نهى الله عباده عن كثير من الظن ـ وهو التهمة والتخوُّن للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض الظن إثم أي مؤثم، وما أشدّ ما يهاب المؤمن الوقوع في الإثم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قال العلماء: وهذا الظن المؤثم كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين وهم كثير بخفه في الفسّاق منهم ومن على شاكلتهم ممن يرضون لأنفسهم الوقوف موقف التهمة ويأتون ـ فعلاً ـ ما يدعو إلى سوء الظن فلا إثم فيه في نحو ما ظهر منهم.

وإذا كان الأمر كذلك: فليُجتنَبْ كثيرٌ من الظن احتياطاً في دين الله، لكيلا يقع المسلم في تلك المعصية وتلحقه أوضارها، وقد يكون لها من العقابيل على صعيد العلاقات الاجتماعية ما الله به عليم؛ ذلك بأنه يترتب على الظن المنهي عنه مفاسد، ليس أقلَّها تقطيع الأواصر، وتفكك الروابط بين الإخوة في المجتمع الواحد ــ بل والأسرة الواحدة أحياناً ــ ناهيك عن فقدان الثقة وتعكير القلوب بين الأفراد، أو ما هو أوسع من ذلك!.

وقد يتعدَّى الوقوع في هذه الحمأة إلى فتنة هوجاء، يؤجج نارها الشيطان؛ الأمر الذي يوهن ــ إن لم تطفأ نار تلك الفتنة ــ بنية المجتمع، ويحول دون الإنجاز والتعاون على البر والتقوى.

وكل هذا ــ كما ذكرت آنفاً ــ في أهل الخير والصلاح من المؤمنين. أما الذين فسقوا، وخالفوا عن طريق أهل الإيمان وربما أعانوا الظالم على ظلمه إضافة إلى ظلم أنفسهم: فهؤلاء لهم شأن آخر.

وقد كان من توجيه النبي المعلم عليه الصلاة والسلام ــ وهو يقود عملية البناء المباركة على أنقاض جاهلية جهلاء دمّرت ما دمّرت في حياة الإنسان ــ ويرتفع بحامل الرسالة المسلم، إلى مستوى تلك العملية الكبرى، ما روى ابن ماجه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبيَّ ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظنَّ به إلا خيراً**».

والحق أنه لم يكن بدعاً ــ والبداية ترقى بالمسلم إلى هذا المستوى من الحرمة والتكريم ــ أن تكون هي التي شهد العالم فيها أسمى لون من ألوان الحضارة، تضافرت على بنائها بصدق وإخلاص، تلك الجهود التي تميَّز أصحابها ــ في ظل أن جنسية المسلم عقيدته ــ بصدق الانتماء، وانصبَّت في قنواتها كل الكفايات من البُناة المؤمنين، حيث صفاء العقيدة والجهاد في سبيل الله ــ بشتى صوره ــ وكرامة الإنسان.

البناء.. ومؤشرات في سورة الحجرات

«٨»

هذه عودة إلى اصطحاب الآية الثانية عشرة ــ أو مفتتحها ــ من سورة الحجرات، في رغبة لاستلهام ما يمكن مما تشرق به من عطاء كريم فيما نحن بسبيله من الإشارة إلى ما حفل به المنهج القرآن من العناية بحسن التخلُّق المنضبط بضوابط الشريعة المطهّرة واجتناب كل ما من شأنه التجافي عن محاسن السلوك ومكارم الأخلاق.

وميدان السلوك ــ عموماً ــ والعلاقات الاجتماعية: من أوضح الميادين التي تبدو فيها ضرورة هذا الانضباط، حفاظاً على بنية المجتمع أن ينالها أذى التخلخل، والمنافرة بين الأفراد الذي هم بناته ومنهم يتكوَّن، والحيلولة دونه ودون عوامل الضعف أن تتسرب إليه.

ولتد يتأكد ذلك أكثر وأكثر؛ إذا كنا على ذُكْرٍ من أن سورة الحجرات التي نسعد باصطحاب واحدة من آيها، تنزلت والمجتمع الأمثل يخطو على طريق البناء ضمن ملابسات ورواسب لا تخفى، والحياة نمور بالحركة والوقائع المتجددة يوماً بعد يوم.

والآية التي نعني هي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾الآية. وقد كانت لنا وقفة قريبة عند هذا المطلع منها حيث الأمر الجازم باجتناب كثير من الظن ــ والخطاب بالأمر للمؤمنين ــ فالواجب اجتناب كثير من الظن بأهل الإيمان المستقيمين على طاعة الله، لأن بعض الظن مؤثم ــ يوقع في الإثم ــ وما أكثرما يعبث الشيطان بعقول البعض فيسيئون الظن بأهل الخير دون تثبُّت أو تبيُّن، وقد يغُضُّون الطرف عن الفُسَّاق الخارجين على نهج

الاستقامة، غفلةً، أو تهيُّباً من الضرر في دنيا من يسيء الظن بهم. وهذا ماخلف لما يقتضيه الأمر من الوجوب في الآية ـ لأن الأمر في الأرض للوجوب، ولا يصرف عنه إلا بقرينة، ولا قرينة، بل قرينة ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تقرر ذلك الوجوب وتؤكده؛ فبعض الظن موقع في الإثم وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين ــ وهو اليوم سلاح من أسلحة المواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل ـ فما بالك إذا كان هذا الظن ــ في الأصل ــ متسع الجوانب وشعب التنقيب وتتبع العورات. أما الذين ينقادون للهوى وما يزيّن لهم شياطين الإنس والجن من الافتئات على الحق وأهله: فأولئك لهم شأن آخر، وليسوا معنيين ـ والله أعلم ـ بهذا النهي عن اجتناب كثير من الظن لأن بعض الظن إثم، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل.

هذا: وقد قادنا الحديث عن هذه النقطة في الآية الكريمة إلى ما لا بد من التذكير به وهو ما جاء عند ابن ماجه في السنن من رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، من تقرير النبي ﷺ لحرمة المؤمن عند الله وأنها أعظم حرمة من الكعبة المشرَّفة بيته المعظم، مالِه ودمِه، فالواجب أن لا يظنَّ به إلا خيراً، وفي ذلك نوع بيان نبوي للآية الكريمة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً».

يقول هذا عمر، وهو يعيش الحياة بكل شراشره في تعاون مع إخوانه على إحكام الواقع الجديد: فالأصل أن تظن الخير بما يقوله أخوك المؤمن، ولا يَعْد عقلك عن ذلك، ما دمت تجد لكلمته في الخير محملاً.

يوجه الخليفة الثاني هذا التوجيه، ولا يرتاب مرتاب في أنه كان ــ والحمد لله ــ على إرث من إرث النبوة فيما يزاول مهمة البناء المتكامل، والسهر على أن يكون الفرد والمجتمع على خير مستوى من القوة والسلامة، في توازن أقدر الجماعة المسلمة ــ بعون الله ــ مع تحقيق الوجود الذاتي على مواجهة التحديات، وإنجاز

الفتوحات العظيمة ــ التي كان بابها فتح القلوب لدعوة الخير ــ تلك الفتوحات التي حملت رسالة الإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكاً إلى كثير من بقاع العالم، ورضي الناس بحكمها عن طمأنينة واقتناع.

ولا تخفى دلالة تلكم الكلمات من عمر رضي الله عنه على فقهه الدقيق لما تتركه العلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن من أثر فيما هو بسبيله من إنجاز ذلك البناء العظيم، حتى وصل إلى التنبيه على الكلمة تقال وكيف يكون الحكم عليها؛ وذلك قبس من تدبره لكتاب الله، وفهمه عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولسنّا هنا في معرض الكلمة البيِّن سوؤها، ومعروفٌ نهج صاحبها، في الإساءة، أو ابتغاء المسلمين الفتنة؛ فتلك قضية أخرى ــ خصوصاً وأن الضوابط التي نحن بصددها في نور الكلمات الهاديات تشمل كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ذكراً كان أو أنثى من المكلفين. ولكننا في معرض الكلمة أو الفَعلة التي تجد لها في الخير محملاً حين تحسن الظن، دونما غفلة، ولا جهل بواقع الحال، وذلك كائن في مجتمع ينقاد لعقيدة التوحيد، وتحكم سلوك أفراده أخوةُ الإيمان والعمل لمرضاة الله.

وقد أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسَّسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**»، ورواه مالك في «الموطأ».

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لازمات لأمتي: الطِّيَرَةُ، والحسد، وسوء الظن**» فقال رجل: وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «**إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيَّرت فامض**».

من أجل هذا، كان واجباً أن يبدأ التغيير والإصلاح: من داخل النفس، لأن ذلك إذا حصل من داخل النفس، فانشرح الصدر للإيمان وانفسح، كان انعكاس ذلك على التصور والسلوك، وفق ما هو من مقتضيات الإيمان جميعاً.

وذلكم ما يراه المتبصر في المنهج الرباني، وفي الواقع الذي يغمر بضيائه المؤمنين طابعاً للعهد المكي، الذي كان قياد المجتمع فيه بيد العدو، فكان التركيز على بناء الإنسان المسلم من داخله وإعداده للمرحلة القادمة. وظل هذا الطابع مستمراً في العهد المدني؛ لأن الحاجة لليقظة الداخلية وتنمية الانبعاث المستثير من داخل النفس تظل قائمة، وقد تكون أشد عندما تبدأ مرحلة العمل الجاد تعاملاً وجهاداً والتزاماً بالأحكام...

يكشف عن ذلك دائماً ما تكررت الإشارة إليه فيما سبق، من الارتباط الوثيق بين العقيدة التي لها ما لها من الحق في واقع الفرد والجماعة وحركتهم في بناء الحياة، وبين السلوك، هذا الارتباط الذي يقرره ويؤكده تصدير الخطاب بالتكاليف غالباً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو ما يؤدي الغرض نفسه من إشعار المسلم والمسلمة بأن العمل بالتكاليف من مقتضيات الإيمان.

وما نحن بصدده من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ جارٍ على هذا السنن؛ فالمؤمن ـ بوصفه مؤمناً ـ واجب عليه اجتناب كثير من الظن، لما أن بعض الظن يكون إثماً محضاً، أو مؤثماً موقعاً في الإثم، والمؤمن ـ وهو ـ ينقاد من عقيدته، ويراقب ربه عز وجل، يقدر كلمة الإثم أو المؤثِّم قدرها، فيحاذر أن يتجاوز إلى ما فيه الإثم أو ما هو سبيل إليه ـ وما أكثر تسويلات النفس والشيطان.

لذا يفترض بهذا المؤمن أن يحتاط لنفسه، فيجتنب كثيراً من الظن بأهل الإيمان والاستقامة، لكيلا يقع فيما هو إثم محض، وهذا كثير ـ كما سلف من قول العلماء ـ كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين. قالوا: وهم كثير بخلافه بالفساق منهم، فلا إثم فيه في نحو ما يظهر منهم.

وبعد: فإن عنوان التوفيق في اليقظة الإسلامية، وتباشير استمرارها في صعود على الطريق المأمونة: أن يكون جيل التحويل واستئناف البناء المبتغى من جديد، على قدر لا يُحَدُّ من الوثوق بالمنهج الذي قدّمه القرآن ـ وهو كلام الله المبرأ من الخطأ بَلْهَ الباطل ـ وأوضح ملامحه قولاً وعملاً ومزاولةً لشؤون الحياة بشتى ميادينها الخيِّرة رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كانت سيرته العطرة ترجماناً عملياً محكماً لما دعا إليه وهو يبلغ رسالة السماء إلى الناس.

المنهج والعلاج على صعيد البناء

البناء وسورة الحجرات

«٩»

من سمات المنهج الرباني في القرآن الكريم: ما يرى الناظر المتدبر من ذلك الشمول الذي جعل المنهج لا يتقاصر ــ ولله المثل الأعلى ــ عن ميدانٍ ما، وهو يوجه حركة البناء للفرد والجماعة في ميدان آخر، وكم كانت الممارسة الفعلية للعمل بدين الإسلام أسلوباً فذاً من أساليب البناء؛ إذ لم يعد الفكر وحده في الساحة ولكن شاركه ــ على صور متجددة ــ العمل نفسه الذي يدعو إليه الفكر وهذا من أوضح أمثلة الشمول وسبحان الحكيم الخبير.

وتطهير الجزيرة العربية من أدران الشرك والجاهلية، وما هو منهما بسبب، من خلال المعارك المتوالية ــ التي صحبت الدعوة إلى الله بالحجة والإقناع ــ، وما كانت تحتاجه من صبر ومصابرة ومرابطة في سبيل الله، وبذل للأموال والأنفس، كل أولئك لم يَحُل دون توجيه المسلمين إلى الشجاعة في النقد الذاتي مثلاً وتقويم التحركات، ما كان صواباً منها وما كان خطأ..

كما لم يَحُل دون التنبيه على ترابط حلقات التاريخ، ووجوب الانتفاع بذلك، والتوجيه المتكرر إلى الاعتبار بالماضين، وكذلك لم يحل ذلك دون المتابعة الدقيقة للسلوك؛ كالذي نرى في سورة الحجرات؛ شأن المتابعة الدقيقة أيضاً في تطبيق شريعة الله ــ ولست هنا بسبيل الاستيعاب ــ وحسبي أن أشير إلى أن جماع ذلك كله: أن يكون المجتمع الذي يُبنى على هدي دعوة الإسلام، ترجمة عملية حيّة لما دعت إليه الرسالة الخاتمة التي تنزلت على محمد عليه الصلاة والسلام، وبلّغها ﷺ

بأمانة إلى الناس مبيناً كل ما يجب بيانه من القرآن الكريم، والتي تُسلم من يأخذونها بقوة وأمانة في التطبيق، إلى التمكين في الأرض، وعمارتها بما ينفعهم، وينفع الآخرين، كما تسلمهم إلى سعادة الدارين، فهم بالغون سعادة الدنيا، فائزون بمرضاة الله وجنة عرضها السماوات والأرض يوم يقوم الأشهاد.

وفي سورة الحجرات ــ كما أسلفنا ــ عناية بالغة بالسلوك تجنب ــ المجتمع ويلات الفرقة والتفكك، وتساعد على نموه وازدهاره؛ لما أن بُناته يتعاونون بثقة متبادلة على الخير، والكلُّ أمين على دمه وماله وعرضه ــ موطن المدح والذم من الإنسان ــ.

وها نحن أولاء نتابع الرحلة المباركة مع السورة المشار إليها والآية الثانية عشر منها وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

ولقد صحبنا الآية في صفحات قريبات سلفت، وألقينا عصا التسيار عند قوله تعالى: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾.

والتجسس يطلق في الشر، ومنه الجاسوس لأنه يتتبع الأخبار للأذى، ويفحص عنه بواطن الأمور. والنهي عنه واضح في الآية؛ فهو فعل حرام ينمّي سوء الظن، ويفسد العلاقات، وقد يوقع البريء فيما هو تهمة باطلة ومحض افتراء، ويجعل الناس قلقين على مصيرهم بسببه، ناهيك عما يفسد من النفوس، ويعدم من الثقة بين الإخوة لأنه يفرق بين الصديق وصديقه والأخ وأخيه؛ إذ يبيع الجاسوس القيم الرفيعة بدراهم معدودة ويكاد يفقد إنسانيته والعياذ بالله. وقد روى أبو داود أحمد عن أبي أمامة وغيره عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم».

وهذا لون من ألوان البيان للآية يشير إلى واحدة من أسوأ صور التجسس وهي التي تكون بأمر من الحاكم: أما الآية الكريمة: فجاء النهي فيها عاماً حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ والنهي للتحريم: أي حرام عليكم أن يتجسس بعضكم على بعض فيتتبعه تتبع تفتيش وتنقيب، والجاسوس سمي جاسوساً؛ لأنه يتتبع الأخبار والأحاديث عند الناس ويفحص عن بواطن الأمور بسوء نية.

أما التحسس بالحاء: فيكون غالباً في الخير، كما قال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام في خطاب لأولاده: ﴿يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقد يستعمل كل من التجسُّس والتحسُّس فيما هو مستنكر؛ وقد مر بنا من قبل ما روى مالك في الموطأ والبخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً**»، وقد روى ابن أبي حاتم عن الأوزاعي رحمه الله: «التجسس: البحث عن الشيء، والتحسس: استماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم، والتدابر: الصَّرم».

والتنافس المنهي عنه هو التنافس المؤذي الذي لا تحكمه ضوابط الشريعة وأخلاق الإسلام، أما التنافس في الخير: فمطلوب ومرغَّب فيه.

إن العلاج العملي لما يشكو منه المسلمون في مجتمعاتهم وبيئاتهم المختلفة من سلوك يعوق التعاون والإنجاز، وقد يعطِّل بعض الجوانب في مسيرة البناء. إن هذا العلاج كائن في إحلال المنهج الرباني مكانه اللائق على صعيد التربية والإعداد والسلوك، بدقة وتوجيه إيماني سليم.

سورة الحجرات ــ وكلمات أخرى في البناء والمنهج

«١٠»

ليس من مكرور القول أن نشير مرة بعد مرة، إلى أن عناية القرآن حتى بالجزئيات من السلوك، وتبصير المؤمنين بطبيعة العلاقة بين الإيمان وبين هذا السلوك؛ كالذي نرى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ الآية: دليل واضح ــ والله أعلم ــ على ما يرمي إليه المنهج الرباني، وهو من عند الله العليم علماً محيطاً بما يصلح عباده.. أن يكون المجتمعُ الذي يبنيه المسلمون على هدي دعوة الحق والخير، ذلك المجتمعَ النظيف، الذي لا تطغى فيه الأهواء، ولا يرتفع بين جنباته لواء الانحراف والدخَل الذي يصيب بعض النفوس.

المجتمع الذي يضم إلى قدرته الثقافية والاقتصادية والسياسية.. سلامة البنية الاجتماعية، والتسامي في علاقة الأفراد بعضهم ببعض، في أي حلقة من حلقات التعامل، وهم يحملون أعباء البناء على أنقاض الجاهلية علماً وعملاً وجهاداً وصبراً على لأواء الطريق متعاونين؛ لأنه كلُّهم منقادون للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي جمع الله عليها قلوبهم وألّف على نورها بينهم، مخلصون في ابتغاء مرضاة الله والنجاة يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

وفي الوقت نفسه: ترى همَّ الواحد منهم أن لا يصدر في تصرفاته ــ ولا ندّعي لأحد العصمة بعد خاتم النبيين ــ ما دقَّ منها أو جلَّ ــ إلا عن الحق الذي نزل به الكتاب، وبيَّنه صاحب الرسالة محمد عليه الصلاة والسلام؛ غير ناسٍ أن رباط الأخوة الإيمانية الذي يتحرك الجميع في ظله، قد عقد آصرته ربُّ العزة من فوق سبع سماوات؛ فكان المسلمون بنعمة الله إخواناً.

ولعل من الأهمية بمكان: التنبيه على أن هذا الذي نقول، ليس تحليقاً في عالم من التجريد تستعصي فيه الأفكار على الواقع في حياة الفرد والجماعة والحاكم والمحكوم ــ كما يزعم أولئك الذين يصرفهم الباطل الذي يتمرغون فيه عن رؤية الحق الذي عند غيرهم ــ بل إن المجتمع الذي نُلمِّح إليه، تبصره ــ وأنت تقرأ تاريخ هذه الأمة ودون زعم العصمة لأحد بعد النبيين كما ذكرت آنفاً ــ تبصره حقيقة واقع في دنيا الناس، فما أن خالطت بشاشة الإيمان القلوب، وأحبَّ القوم رسول الله أكثر مما يحبون أنفسهم، وآمنوا بغيب الآخرة إيماناً جعلهم كأنهم يرونه رأي عين، حتى رأيت من هؤلاء البررة العجب العجاب وهم بشر من البشر ولكنهم آمنوا وصدقوا، وأحبوا رسولهم وجاهدوا صادقين، وكانت هجيراهم رضى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وبذلك استطاع الرعيل الأول أن يقدموا للبشرية ما هو ترجمة عملية لما وجه إليه القرآن، وبينه قولاً وفعلاً وإقراراً وعلى صعيد الممارسة والتطبيق في البيت والمسجد والسوق وساحات التعامل بمختلف صورها في السلم والحرب: خاتمَ النبيين محمد ﷺ؛ وبذلك كانوا الجنود الأمناء الأوفياء لهذا الإسلام وهم يمارسون إنشاء الواقع الجديد المبرأ من أوضار الوثنية والجاهلية وكل ما هو منهما بسبب قيادة نبيهم المصطفى وإمامهم المجتبى محمد عليه الصلاة والسلام. والخير باقٍ في هذه الأمة إن شاء الله.

وغير خاف أن آيات الكتاب الكريم، ومن ورائها بيان النبي عليه الصلاة والسلام، تجمع إلى التوجيه البيِّن وتحديد معالم السلوك ــ في بيانٍ لما يعقبه الالتزام أو عدمه من مآل ومصير ــ تجمع إلى ذلك كله، متابعة لكل خطوة، ورقابة على كل بادرة ــ هذا مع ما يكون من الوازع الداخلي ــ فما كان من ذلك صواباً: أقرته وأعانت عليه، وما كان خطأ قوَّمته ودلَّت على طريق تصويبه، أو الإقلاع عنه.

هذه كلمات في المنهج دعت الضرورة إلى ما قد يبدو إطالة فيها، وددت أن أسوقها هنا؛ لأنها ذات نسب إلى تلك الملامح التي ترسمها معالم القرآن الكريم على هذه الساحة ــ ومن تلك الآيات التي نحوِّم حولها في سورة الحجرات ــ لصيغ التعامل، وطرائق السلوك في المجتمع القدوة الذي برز في دنيا البشرية وهي أشد ما تكون عطشاً إليه في تلك الحقبة من الزمان، بعد أن طال انتظارها منذ أمد بعيد.

وفي حديث موصول بالآية الثانية عشرة من سورة الحجرات التي سبقت الإشارة إليها نذكر ما جاء في تلك الآية الكريمة من قوله تعالى بعد الأمر اجتناب كثير من الظن، والنهي عن التجسس: **﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾**.

ولا يخفى ما في هذا النص من التحريم القاطع للغيبة التي هي: ذكر المؤمن أخاه المؤمن ــ كما بين الرسول ﷺ ــ بما يكره وإن كان منه، والمفروض بالمؤمن أن يهزّه النهي في القرآن والسنة من الأعماق، فيخاف على نفسه الوقوع فيما حرّم الله ورسوله، ويسعى جاهداً ــ ما وسعه الجهد ــ لاجتناب ذلك.

أخرج الإمام أبو داود في «السنن» بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال ﷺ: **«ذِكْرُك أخاك بما يكره»**. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: **«إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقول، فقد بهتَّه»**.

وإذن: فما هو واقع ويقع في كثير من المجالس، والمجتمعات الضيقة والمتسعة في دنيا المسلمين، من التهاون بأمر الغيبة والتفكه بها في المجالس بسهولة ويسر ــ وقد يكثر ذلك في بعض المجتمعات النسائية ــ إن هو إلا صورة من صور الغفلة وبلادة الحس، ومجاهرة الله ورسوله بالمخالفة عن أمر الشارع، والمأمول أن لا يكون من الأمراض المستعصية!.

وما من ريب في أن طريق المعالجة يبدأ من إيقاظ القلوب على كلمة الله، والحرص على مرضاته ومرضاة رسوله عليه الصلاة والسلام ومحاولة تحريك العقول؛ كيما تتنبَّه إلى المخاطر المرتقبة للتمرغ في حمأة هذا الخلق السيء على صعيد الأفراد والجماعات، وما قد تحدث من فتن، حتى يكون الإقلاع عن ذلك، والتخلق بضدّه من أخلاق أهل الإيمان: سمة من سمات المسلم والمسلمة؛ وإن هذه المعالجة لا بد أن تكون هدفاً من أهداف المسجد والمدرسة والبيت والمؤسسات التربوية والإعلامية؛ لأن التمادي في الغفلة يعود على الفرد ـ قائماً كان بالغيبة أو راضياً بها ـ بسوء العاقبة عند الله إن لم تحصل التوبة النصوح، كما أن ذلك ـ كما ذكرت آنفاً ـ عامل مدمِّر من عوامل الهدم في البيت والمجتمع ـ وما أكثر الأدلة والوقائع على ذلك ـ.

من أجل هذا كان النهي الجازم عن الغيبة: صورة من صور الدعوة القرآنية إلى صيانة حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم مما يعكِّر الصفو، ويحدث التخلخل، وقد يعود على عملية البناء في العديد من صورها بما لا تحمد عقباه.



مرة أخرى.. مع المنهج والبناء في سورة الحجرات

«١١»

ما يزال الحديث موصولاً بما كنا بسبيله من الاستنارة بما يدل عليه المعلم القرآني في الآية الثانية عشرة من سورة الحجرات وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

وهذا الحديث الموصول بما سبق: بابتُه إلى ما نريد: كون هذه السورة سورة مدنية، تتنزل آياتها على الرسول ﷺ، وهو يقود المجتمع الذي شاء الله أن يُبنى بقيادته وتوجيهه صلوات الله وسلامه عليه، بعد رحلة العهد المكي التي كان قياد المجتمع فيها بمكة يستند إلى الجاهليين، وما أبعد منهجهم عن منهج الله الذي أشرقت به دعوة الإسلام؛ من هنا يمكن تقدير البناء الأخلاقي ضمن هذه الظروف والملابسات حق قدره، وتسويغ أن نكون على دقة في استذكار عناصره وفقراته.

وكما أسلفنا من قبل: يجيء النهي عن الغيبة في هذا البناء الأخلاقي المتوازن الشامل في أعقاب عدد من المناهي يبدو اجتنابها لصيقاً بسلامة البنية الأخلاقية لأصحاب رسول الله ﷺ مسلمين كانوا أو مسلمات، لأن المكلّف هو الأساس في تطبيق الشريعة أحكامها وأخلاقها، وكان من تلك المنهيات النهي عن أن يظن بالمسلم ظن السوء، وعن التجسس طامّةِ الأذى، فإذا أضفنا ذلك إلى ما ورد في الآيات السابقة تبدّت لنا ملامح منهج البناء الدقيق الذي لا يبارح حتى في الجزئيات، العناية بتحديد ما من شأنه على ساحة التوجيه، صيانة المجتمع عن الأذى بصيانة بُناته عن الوقوع فيما يتنافى مع الأخوة وصفاء القلوب، وتذليل الصعاب على طريق

البناء والنماء، لما أن الواحد منهم يُعَدُّ ليكون القدوة في دنيا الناس. وبذلك يستمر نظيفاً معافى يترجم عن حقيقة الدين: في عقيدته وشريعته وأخلاق أبنائه، والقدرة من خلال هذا على العطاء.

ولعل من الخير استذكار ما عرّف به رسول الله ﷺ تلك الخصلة المؤثمة ـ الغيبة ـ بأنها ذكر المؤمن أخاه بما يكره ولو كان ذلك موجوداً فيه. وقد أشرنا من قبل إلى أن الغيبة ذكر المسلم أخاه بما يكره، وذلك نص فيه النبي ﷺ ما جاء في الحديث الذي نصَّ فيه النبي ﷺ على هذا التحديد، وهو يجيب سائلاً سأله عن الغيبة، وزاد على ذلك ببيان ما يكون بهتاً من المؤمن لأخيه حين يذكره بما ليس فيه ذلكم ما روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: **«ذكرُك أخاك بما يكره»** قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: **«إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»** أي افتريت عليه الكذب والعياذ بالله.

والحق أن الآية الكريمة، قد حملت ما يدل على تأكيد التحريم الجازم لهذا الانحراف الآثم الذي هو من العدوان على إنسانية الإنسان، لما يترتب عليه من مفاسد، ليس أقلَّها تنافر القلوب، والفتنة الهدَّامة في بعض الأحيان. ناهيك عما يكون لذلك من انعكاسات سلبية على تحقيق ذلك الأمر العظيم الذي أمر به المسلمون من التعاون على البر والتقوى، بمفهوم البر الواسع وهو جماع كل خير، والتقوى بمفهومها الحقيقي الذي يسمو بها إلى مستوى أن تكون العنوان المشرق على الالتزام بالأحكام، والتخلق بأخلاق الإسلام، في جمع بين استقامة عمل الجوارح وعمل القلوب؛ وبذلك يكون التعاون على البر والتقوى تعاوناً لا يدع صغيرة ولا كبيرة مما هو من معدن الخير والفلاح ـ مهما تطور الزمن ـ للفرد والمجتمع والأمة إلا اتسعت له ساحة هذا التعاون، فإذا ذكرنا النهي عن التعاون على الإثم والعدوان كان ذلك أدعى لاكتمال الصورة المؤذنة بالتكامل والشمول والتوازن بتكرر الإشارة إليه ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ومما يستوقف الناظر: هذه اللمحة من لمحات الإعجاز في توكيد الصرف عن الغيبة: ما انضم إلى النهي الذي هو للتحريم، من تلك الصورة الصارخة المنفرة من ذلك الخلق الذميم أشد التنفير!!.

حيث شبَّه الله الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت، بل بأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً، فهو لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، وفي الوقت نفسه هو ميت **﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾**؛ أي كما تكرهون هذا ــ وهو على هذه الصفات الثلاث ــ طبعاً، فاكرهوا الغيبة شرعاً وهذا أمر في غاية التنفير؛ فكأن الشذوذ في أكل لحم الأخ ميتاً، يوضح الشذوذ في الغيبة التي هي هذا العدوان المعنوي المقيت المستكره. وحسبك أن الله نهى عن ذلك وحرمه!!.

وفي سيرة الرسول ﷺ وهي التطبيق العملي لشرعة الإسلام: ما يلقي مزيداً من الضوء على هذه القضية وحجمها في البناء الأخلاقي؛ فقد روى أبو داود في «السنن» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: «حسبُك من صفية ــ تعني قِصَرَها ــ فقال رسول الله ﷺ: **«لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»** قالت رضي الله عنها: وحكيت له إنساناً ــ حاولت تشبيهه ــ فقال: **«ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا»** ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

حكى الإنسانِ: فعل مثل فعله من حركة يكرهها أو غير ذلك.

وفي توجيه إلى إحكام البناء من داخل النفس كيما تستقيم الجوارح، ويصلح بصلاحها السلوك، ختمت الآية بقوله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾**.

فإذا استنار القلب بالتقوى، فعمل العبد على وقاية نفسه من غضب الله وعذابه، قياماً بالطاعات، واجتناباً للمنهيات واستزادة من القربات ــ ومن عيونها الجهاد في سبيل الله ــ بصدق وجهة وإخلاص في الدين، ناهيك عن مراقبة الله وخشيته في السر والعلن، كان من وراء ذلك الخير الكثير الوفير في الدنيا والآخرة. والتقوى كما تنشىء الوازع الداخلي، تعني الاستمرار في طريق السالكين الأوفياء بعهد الله

الأمناء على العمل بدينه بصدق وإخلاص؛ ذلك بأنها تصبح ملكة عند المسلم تستنير تصرفاته بنورها بدون تكلّف. الأمر الذي يضمن استمرار ذلك الوازع النفسي من الداخل ونماءه وقوته.

والله تعالى توّاب ـ وهذه صيغة مبالغة دليل عظيم الفضل والإحسان ـ على عباده يتوب على من تاب منهم التوبة النصوح، رحيم بهم، يدلهم على الخير ويهديهم إلى ما فيه سعادة الدارين.

ولكم يريح المربون أنفسهم، ويوفرون للمجتمع كثيراً من الطاقات المهدرة، إذا عملوا على إحكام البناء على التقوى وحسن الصلة بمعالم الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فيما تهدي إليه على كل الأصعدة، ومن ذلك سعادة الدنيا والآخرة.



وقفات مع آيات البناء الذاتية.. وعدم الوقوع في التقليد الأعمى وسورة النساء

التالي لسورة النساء، يقرأ فيما يقرأ قول الله تعالى في الآية السادسة والأربعين: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقد جئنا على ذكر هذه الآية الكريمة بإشارة عجلى عند الحديث عن عطاء المعلم القرآني في الآيتين الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة وهما قول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

وقد أدير الحديث المشار إليه حينذاك: على تحرير المسلم الذي اؤتمن على بناء المجتمع المسلم من التبعية وتقليد اليهود في منهجه الفكري والسلوك، حتى في قول هؤلاء اليهود (راعنا) خطاباً للنبي ﷺ زاعمين أنهم يريدون بها راعنا سمعك، والواقع أنهم يستخدمونها مصطلحاً يريدون به الرعونة أو ما هو أشد منها سباً للنبي عليه الصلاة والسلام وإيذاءً للمسلمين. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ فكان هذا ضماناً وقائياً من التقليد وذوبان الفرد والجماعة في مصطلح أعداء الله والإنسان، وكان في الوقت نفسه وضعاً للمسلمين على المحجة ذاتية وتميزاً، الأمر الذي يضمن سلامة المنهج حتى تكون الكلمة التي يخاطبون بها رسول الله ﷺ والتي يريدون بها أن يُرعيَهم

سمعه ويعينهم أكثر وأكثر على وعي ما يقول: كلمة خالصة من الشوائب وهي كلمة (انظرنا) بدلاً من كلمة (راعنا) التي كان اليهود عليهم لعائن الله وغضبه يريدون بها المساءة والإيذاء. وهكذا جاء النهي عن قول راعنا، واتبع بالأمر بقول انظرنا وختمت الآية بتهديد الكفرة بما يستحقون من العذاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

وأفصحت الآية التي تلتها ـ كما أسلفنا ـ عن أن الكفار سواء أكانوا أهل كتاب أو مشركين لا يريدون شيئاً من الخير للمسلمين، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وتنمية الشعور بهذه الحقيقة ضرورة لسلامة البناء عند الفرد والجماعة، لأن الواقع يدل على أن هذه الحقيقة قائمة ثابتة تتجاوز عصر النبوة الذي كان فيه سببُ النزول ووعي الأمة لها: يعين في علاج جانب خطير من هذا الواقع الأليم في علاقتهم بأعداء الله وبخاصة اليهود. إذ إن القرآن نبَّه بما لا يدع زيادة لمستزيد على ما يجب التنبه إليه فيهم.

قادني إلى التذكير بهذا ما قصدت إليه من الإشارة إلى أن الآية السادسة والأربعين من سورة النساء والتي استهل بها حديث اليوم، وهي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ الآية حملت فيما حملت من العطاء تفصيل ما أجملته الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة بشأن كلمة (راعنا) فكشفت عن عدد من المساوىء التي تنبىء عن منهج سوء متكامل عند اليهود في تفكيرهم وسلوكهم مع النبي ﷺ والمسلمين، ومنها سوء استخدامهم لكلمة (راعنا). إذ إنهم حتى في الكلمة يقولونها، ينأى بهم الانحراف عن أن تكون كلمة ذات مدلول طيب، فيتجاوزون ذلك إلى ما فيه سوء القصد وإرواء الغليل من الحقد الدفين والمكر السيء ولا يحيط المكر السيء إلا بأهله.

هذا شيء من الظاهر، وما يخفونه من الحقد الذي يعتلج في الصدور: أكبر وأشدّ مرارة، وتبارك ربنا الذي يعلم ما تكنُّ صدورهم وما يعلنون إذ يقول في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨].

وإلى حلقة قادمة نتابع فيها تجلية هذه النقطة بالغة الأهمية!!.



الواقع والبناء.. وزيادة اليقين بأن القرآن من عند الله وسورتا البقرة والنساء

«١»

مما يزيد يقين المؤمن بأن الكتاب العزيز كلام الله تبارك وتعالى: أنك حين تقرأ ما تقرأ من آيه: تُحِسُّ ارتباط المعنى ـ في كثير من الأحيان ـ بسبب النزول، وحين يمتد بصرك إلى الواقع الذي تعيشه أمتنا: تجد كأن تلك الآيات الكريمات تتنزل اليوم على هذا الواقع، كيما تأخذ بيد المسلمين إلى ساحل النجاة والقدرة على تجاوز الصعاب وإنشاء واقع جديد يتواءم مع العقيدة التي يحملون، والرسالة الخاتمة التي بها يؤمنون. والآيات التي سعدنا بها فيما أسلفنا من قريب، وما قبله وهي الآيات الرابعة بعد المائة والخامسة بعد المائة من سورة البقرة والآية السادسة والأربعون من سورة النساء والتي تتعلق بموقف أعداء الله ـ واليهود منهم بخاصة ـ من المسلمين: واحد من الأدلة الكثيرة المستفيضة على ما نقول.

وفي حديث موصول بما كنا بصدده في هذا الباب: أود أن أعود إلى الكشف عن أن الإجمال فيما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ قد جاء بيانه في سورة النساء؛ ذلكم قوله جلت حكمته في الآية السادسة والأربعين: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ وحين لا نتخلى عن النظرة إلى الواقع عند الكلام عن البناء وضرورة الإحسان فيه على جميع الأصعدة وفي كل الميادين، ضماناً

لسلامة الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية وغيرها ووضع ذلك كله في خدمة البناء بعلم وموضوعية... حين لا نتخلى عن النظرة إلى الواقع على هذه الشاكلة، يكون من الضرورة بمكان تبيُّن مواقع الخُطا على هدي ما جاء به الكتاب العزيز وبيّنته السنة المطهرة، خصوصاً وأن العلم والعبرة بالواقع وحسن الإفادة منها، واستخلاص النتائج التي ترتبت على المقدمات: من المقاصد الكريمة لهذين المصدرين العظيمين الأساسيين في شرعة الإسلام وبناء الكيان الذاتي للأمة.

وعلى هدي هذه الحقيقة ننظر في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء لنرى أنها ـ كما أشرنا من قبل ـ بينت ما جاء في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة، ففي سورة البقرة نهي المؤمنون عن قول (راعنا) وأُمروا أن يقولوا بدلاً عنها: (انظرنا) وأن يسمعوا سماع طاعة ووعي وتطبيق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾. وفي سورة النساء وصف اليهود بأنهم يأتون عدداً من القبائح منها قولهم لرسول الله ﷺ (راعنا) لياً بألسنتهم وطعناً في الدين.

فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فيؤولون كلام الله على غير تأويله ويفسرونه وفق ما تمليه أهواؤهم، وبدلاً من أن يسمعوا ويطيعوا فيقولوا: سمعنا وأطعنا: يسمعون ويعصون ويقولون: سمعنا وعصينا، ويسيئون إلى رسول الله أكثر وأكثر فيقولون ـ عليهم لعائن الله وغضبه ـ: اسمع غير مسمع أي اسمع لا سمعت، كما يقولون: (راعنا) ويريدون بها الرعونة أو ما هو أسوأ سباً للنبي عليه الصلاة والسلام.

وإلى أن نلتقي على متابعة ذلك أود أن ألفت النظر إلى أن الوقائع المتجددة فيما نرى ونسمع كل يوم عما يصنعه اليهود وأعوانهم ـ: يفترض أن يشدَّ أهل الوعي والتأثير من أبناء هذه الأمة إلى أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن مسلّمات القرآن يجب أن تأخذ حجمها الطبيعي عند البناء الذي نريده قنطرة للواقع الأمثل الذي تكون فيه الأمة صاحبة الكلمة في تقرير المصير، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون.

سورتا البقرة والنساء.. ووقفات مع آيات

«٢»

سلامة البنية الثقافية عند المسلم وما يقتضيه التكامل في منهج التفكير، يوجبان أن تؤخذ القضية من مصادرها في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، كما هي دون زيادة أو نقص، مع الانتفاع بمعرفة الواقع كما هو.

ولقد كان من عناية القرآن ببناء شخصية المسلم: أن عمل على تنمية شعوره بالحقيقة بعد وعيها كاملة في شأن علاقته باليهود وبغيرهم من أعداء الله والإنسان.

وعلى هذه الساحة كانت لنا من قريب وقفة عند واحدة من آي سورة النساء وهي الآية السادسة والأربعون المبدوءة بقوله جل ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ الآية والتي أشرنا إلى أن فيها بياناً لما أجمل في سورة البقرة في شأن كلمة (راعنا) من قوله تبارك وتعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

والواقع أن هداية الكتاب العزيز فيما يمتد من روائها على الإنسان أياً كان هذا الإنسان، فتدله على الطريق وتوضح له المعالم.. هذه الهداية أشارت في ختام الآية المشار إليها من سورة النساء إلى أن اليهود لو عدلوا عن الانحراف وسلكوا السبيل السوي فيما يقولون ويفعلون، لكان خيراً لهم ولكن حلَّت عليهم اللعنة بسبب عنادهم في الكفر، فلا يؤمنون إلا قليلاً. ولنعد إلى ذكر الآية الكريمة ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾.

هكذا يجيء الحديث عن كلمة «راعنا» التي نُهي المسلمون عن أن يقولوها، وأُمروا أن يقولوا بدلاً منها (انظرنا) لكيلا يقعوا في حمأة التقليد الأعمى ويذوب المجتمع في مصطلحات الآخرين وانعكاساتها الهدامة.. يجيء الحديث عنها في بيان تفصيلي يشعر أنهم كانوا يقولونها خطاباً للرسول ﷺ لياً بألسنتهم وطعناً في الدين، فليعدل المسلمون عنها إلى غيرها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى دلت الآية ــ وهذا ما يجب أن تتفتح عليه الأعين عند البناء والإعداد ــ أن كلمة (راعنا) التي يقولونها لياً بألسنتهم وطعناً في الدين: جاءت في سلك مجموعة من القباحات هي تحريف اليهود كلام الله عن موضعه، وقولهم: سمعنا وعصينا، وإساءتهم لرسول الله بقولهم. (اسمع غير مسمع) ومقصودهم الدعاء عليه إذ المراد: اسمع لا سمعت..

وإذن: فالقضية قضية منهج متكامل يتسم بهذه القباحة ــ والعياذ بالله ــ والتناسب واضح بين كل فقرة وأخرى من فقراته. ويحين التنبيه بعد ذلك على أن هؤلاء اليهود لو عدلوا عن هذا المنهج لكان خيراً لهم وأقوم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ ولكنه الطرد من رحمة الله، حلّ عليهم بإصرارهم على الجنوح عن الصراط المستقيم واستجابتهم للحقد يغلي في صدورهم.

فهل نكون على ذكر من ذلك ونحن نتطلع إلى مستقبل أفضل ونحاول لمّ الشعث ونبذ التخلف كيما نكون أقدر على إعادة الأمور إلى نصابها؟ نسأل الله العون.



التغيير.. وإحكام بُنَى المجتمع والتواؤم بين العهدين المكي والمدني في ذلك سورتا آل عمران والحجر

«١»

هذه عودة إلى تلكم الآيات الكريمات التي جرت الإشارة إليها في كلمات سلفت، من أجل متابعة الانتفاع بدلالة المعلم القرآني فيها.

والآيات هي قوله تعالى في سورة «الحجر» المكية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ وقوله جل وعلا في سورة «آل عمران» المدنية: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

فالنظرة المتدبرة في هذه الآيات المكي منها والمدني وأمثالها مع ما جاء من بيانها في السنة المطهرة تؤكد حقيقتين اثنتين ما بدٌّ من الإشارة إليهما فيما تعملان من عمل هادٍ بنَّاءٍ في نطاق الفرد والجماعة.

أولاهما ـ مكانة المنهج الخلقي في رسالة الإسلام، وبناءِ الفرد والمجتمع على قيم هذه الرسالة ومبادئها، إذ إن القضية بدأت من العهد المكي واستمرت إلى العهد المدني؛ فالأخلاق في العهد المكي: حيث الاستعلاء المتجدد ومحاولة فتن المؤمنين عن

الدين: لبنة كريمة من لبنات البناء وتنميةِ الفاعلية عند تلك الفئة المؤمنة التي كان عليها أن تصارع الشرك وأهله وترتاد للإنسان ـ على المستوى العالمي ـ بدءاً من الجزيرة العربية ـ طريقة إلى التغيير وتجاوز ما هو واقع به من التمزق والضياع.

والأخلاق في العهد المدني: حيث شرع القتال واتجهت واجبات البناء اتجاهاً آخر من الإمساك بالزمام، والمسؤولية عن صياغة الواقع الجديد، الذي ينتقل بالمبادىء والقيم في تنظيم شؤون الإنسان والحياة إلى الوجود العملي في كل ميدان وعلى كل صعيد.. هذه الأخلاق في العهد المدني بدت أيضاً لبنة كريمة من لبنات البناء، وأساساً من أسس التنمية للطاقة البشرية والاجتماعية.. وانعكاسُ ذلك على كل ميادين الحياة في الاقتصاد والثقافة وإنشاء القوة الذاتية للأمة: واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

وإذن: فهناك نوع من التكامل بين العهدين المكي والمدني في منهج الأخلاق والسلوك، فحين لم يكن زمام الصياغة للمجتمع وبنائه على الشكل الذي ينبغي بين المسلمين: كانت العناية ببناء الإنسان على العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لمقتضياتها، وذلك ما مهد بشكل طبيعي للبناء على شموله واستيعابه لحملات السلم والحرب في العهد المدني.

وحين جاء العهد المدني ـ والبناء على العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لها مستمر ـ: شمَّر أولئك الذين أُحكم بناؤهم على النهج المشار إليه وشرعوا بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام بإنشاء الواقع الذي يمليه الإسلام على صعيد الفرد والمجتمع بل والأمة بشكل أعم. وتلكم الأخلاق ثابتة ثبات الآيات والأحاديث المرتبطة بها، كما سنشير في حديث قادم إن شاء الله. والمهم أن يصدق المسلمون في العودة إلى تلكم المنابع الخيرة وصياغة الواقع على هديها وتوفيق الله كائن ما صدقت النيات، واستقام السلوك، وعزم جند الحق عزمهم مع الوفاء بما عاهدوا الله عليه فلم يبخلوا بالعطاء وكانوا جداً شاكرين لكل نعماء.

التغيير والتكامل.. في منح الأخلاق والسلوك وحقيقة أخرى على طريق البناء آل عمران والحجر «٢»

ما كان لعاقل أن يماري في أن الطاقة البشرية التي بنتها يد محمد ﷺ الصناع في ضوء ما جاء به القرآن وأشرقت به معالمه الخيرة المباركة: قد استطاعت ـ بعون الله ـ أن تمارس عملية البناء الكبرى على قواعد أخذت طابع العموم وقابلية الاستمرار، في تجاوز للحدود الإقليمية والزمنية.. ومنهج الأخلاق والسلوك جزء لا ينفصم عن تلك المقومات التي قدمت للإنسانية على صعيد الفرد والمجتمع، ما أن لو أخذت به، واتتها السعادة في الدنيا والآخرة.

والآيات في سورتي الحجر وآل عمران ـ وأمثالها كثير ـ توحي بتكامل المنهج المشار إليه ـ كما أسلفنا في قول قريب ـ لأننا نرى الأخلاق في العهد المكي ونراها في العهد المدني، وفي كلٍ منهما أخذت حجمها الذي يتسق مع سلامة العقيدة وتطويع الأخلاق والسلوك لمقتضياتها.

والآيات البينات هي قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وقوله جل شأنه في سورة آل عمران خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

هذا وقد وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول ــ من خلال الآيات في السورتين ــ على واحدة من حقيقتين وهي التكامل في منهج الأخلاق والسلوك في العهدين المكي والمدني وهو ما أسلفناه من قريب.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن ما كان من صنيع رسول الله ﷺ في توظيف الأخلاق ــ وهي مرتبطة بالعقيدة ــ وإعطائها مكانها اللائق على طريق البناء الاجتماعي وإحكام التماسك في بنية المجتمع.. ما كان من ذلك واضحٌ فيه أن منهج الأخلاق يتسم بالثبات، ثبات الحقيقة المرتبطة بالدين، فهو منهج لا يعرف النسبيةَ والتذبذب بين المصالح، بعيداً عن سلامة السلوك.. النسبيةَ التي تجعل ما يكون اليوم خلقاً مرغوباً فيه يدعى إليه.. خلقاً محظوراً في الغد يُرغب عنه وينفر منه، فهو فضيلةٌ اليوم ولكنه رذيلةٌ غداً، تتقاذف صاحبه أو أصحابه ــ كما نرى في أعداء الإسلام ــ المصالحُ النابعة من الهوى والأغراض التي لا تقيم وزناً للحق في ذاته، ولا للفضيلة كما هي بإطلاق. تقول هذا وجراحات الأمة لا تنفك تثعَب دماً من صنيع أولئك الأعداء في دنيا الواقع حيث ما يسمى زوراً وبهتاناً بالأخلاق.

المنظمات الدولية تظل حبراً على ورق، إن لم تكن هناك قوة تحمي الحق من حيث هو حق، وتدافع عن الفضيلة من حيث هي فضيلة. وهذا ما يؤكد وجوب أن يكون للأمة مع منهجها في الأخلاق والسلوك: قوة تحمي الدعوة وتحرر المسلمين وديارهم من الطغاة والغاصبين ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ومن الإعداد: البناءُ على العقيدة وحب الجهاد والاستشهاد، ومن الإعداد للقوة: أخذ الأسباب بالعلم التجريبي والاقتصاد وما إلى ذلك، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



التغيير والبناء.. وعودة إلى آيات سورة الحجر

«٣»

نعود اليوم إلى آيات سورة الحجر بدءاً من الآية الخامسة والثمانين لنرى أن النبي ﷺ أمر بأن يصفح الصفح الجميل في آية وأُمر بأن يخفض جناحه للمؤمنين في آية أخرى. ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

المشركون ــ في العهد المكي ــ يعملون على سلوك الأسباب التي يرون أنها تقضي على الدعوة في مهدها، ومن ذلك: الإيذاء المستمر لرسول الله ﷺ والمسلمين ــ على قلة عددهم ــ بالقول والفعل والافتراء وكل ما هو من ذلك بسبيل.. ويؤمر رسول الله ﷺ بأن يصفح عن هؤلاء المؤذين من قومه الصفح الجميل، فيعرض عنهم إعراضاً لا جزع فيه.

ولقد عمل هذا الخلق عمله وأعطى نتائجه الطيبة.. وبخاصة في تلكم الفترات التي كان يتسنى لبعض العقلاء أن ينتصروا على دواعي السلطان والهوى والتقليد الأعمى للآباء والأجداد، فيراجعوا أنفسهم ويروا أن الفضائل التي يتحلى بها رسول الله ﷺ وأصحابه من ورائه. جديرة بأن تسلِّمه قيادة الركب، وأن يكونوا من جنوده، فيسعدوا في عاجل أمرهم وآجله، ويجدوا ذواتهم بعد أن كانت ضائعة في كهوف الوثنية والخرافة وما يمليه العرَّافون، والمشعوذون. ولقد ظل العفو والصفح الجميل، والصبر على الأذى، واحتمال ما لا تحتمله الجبال الرواسي من صنيع المشركين.. ظل ذلك كله ديدن رسول الله ﷺ والفئة القليلة المؤمنة الصابرة طوال العهد المكي الذي استدام ثلاثة عشر عاماً بشهورها وأيامها ولياليها.

حتى إذا جاء الإذن من السماء بالقتال: نسخ وضع هذه الأخلاق في مواجهة أعداء الله الذين كان همهم وشغلهم الشاغل القضاء على الإسلام وأهله.. فحركة الإفناء التي كانوا يحاولونها لا يصدها، ويفسح لدعوة الله أن تنتشر في الآفاق إلا الجهاد الذي يصحبه ويسبقه ويلحقه دائماً الحوار الواعي الأمين، والعلم والتعليم، في مخاطبة موضوعية للعقل والقلب والفطرة، ناهيك عن السلوك العملي الذي لا يتجافى عن القول، بل يؤيده ويكون صورةً حية له. ها نحن أولاء نقرأ في سورة مدنية هي سورة الحج قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وموعدنا ـ إن شاء الله ـ في متابعة قادمة نستلهم من خلالها بعضاً من عطاء المعلم القرآني في هذه الآيات، وكونها تمثل نهج المرحلة التي تلت مرحلة الأمر بالعفو والصفح والصبر وما إلى ذلك. الأمر الذي يدل على وجوب التعامل مع أعداء الحق باللغة المناسبة، دونما عدوان على الأخلاق. وجمل قول شاعرنا:

ووضع الندى في موضع السيف بالعُلى مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

وفي واقع أمتنا وما تعاني في شتى البقاع: ما يدعو إلى وجوب تمثل هذه الحقائق وبخاصة عند المؤتمنين على صنع القرار وتنفيذه. ولله عاقبة الأمور.



التغيير والتكامل في منهج البناء وقبسات أخر من آيات الحج

«٤»

وفاءً بموعد قريب، أعود اليوم إلى متابعة ما سبق وفي الجعبة قبسات أخر من عطاء المعلم القرآني حول آيات كريمات من سورة الحج هي قول الله جلت قدرته بدءاً من الآية التاسعة والثلاثين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

وجمهور العلماء على أن الآية الأولى هي أول آية نزلت بشأن الجهاد، حيث أذن الله للمسلمين بأن يقاتلوا في سبيله بعد أن ظلوا طوال العهد المكي وهم لا يؤذن لهم بقتال، وإنما هو الصبر والصفح واحتمال الأذى وضبط النفس قدر المستطاع. قال الحافظ ابن كثير: (قال العوفي عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد).

وأخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكُن، قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال». ورواه الإمام أحمد وزاد: قال ابن عباس: «وهي أول آية نزلت في القتال».

والحق أن هذه الآية ــ كما اشتملت على الإذن بالقتال لمن يقاتَلون ويُصَدّون عن طريق الهدى ويفتتنون عن دينهم: اشتملت على أمرين عظيمين آخرين: نشير اليوم إلى واحد منهما وندع الآخر لما بعدُ إن شاء الله.

فأولهما ــ تعليل الإذن بالقتال: ببيان سببه (بأنهم ظلموا) بسبب أنهم ظلموا، وتعرية الظلم على هذه الشاكلة خلال رحلة البناء وارتياد السبيل الأمثل للإنسانية وهي سبيل التوحيد وأن تُعلن الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» إعلانها في الأرض.. تعرية الظلم على هذه الشاكلة خلال تلك الرحلة: أمر عظيم.. يكشف عما لهذا الانحراف الذميم، من آثار سيئة لا على الفرد فحسب بل على الجماعة عموماً: وفي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»** فالفئة المؤمنة في مكة ظُلمت ظلماً شديداً وبغى عليها المشركون وتجاوزوا في معاملتها حتى أبسط ما توجبه الرجولة في معاملة الإنسان لأخيه الإنسان. ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾﴾ إن باء السببية هذه (بأنهم ظلموا) تعطي الكثير الكثير على طريق البناء وتنمية المشاعر الصادقة عند المسلم، بأنه على الحق الذي ينكر الظلم ولا يرضى عن الجور، وأنه عندما يقاتل أعداء الله بعد ثلاثة عشر عاماً من تحمل الأذى والفتنة عن الدين، والصبر والمصابرة مع العفو والصفح: يمكّن للعدل والمساواة والنصفة في الأرض، ويحول دون الظالمين أن يكون لهم الكلمة على عباد الله سبحانه وتعالى الذي حَرَّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرَّماً.



التغيير والوعي في منهج البناء...
والآية التاسعة والثلاثون من سورة الحج
« ٥ »

هذه عودة إلى متابعة رحلتنا العجلى مع الآية التاسعة والثلاثين من سورة الحج التي أعلنت في أعقاب العهد المكي الإذن بجهاد أعداء الله والقتال في سبيله وهي قول الله جلت حكمته: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

ولقد كان من عطاء هذه الآية على صعيد البناء الذاتي، والاقتناع بطبيعة الحركة التي يتحركها المسلم وهو يشق طريقه إلى الإصلاح والتغيير إلى ما هو الأفضل للإنسان بوصفه إنساناً أينما كان.

لقد كان من عطائها: أن الشق الأول منها حمل مع الإذن بالقتال تعليل هذا الإذن ببيان السبب فالسبب المباشر أن المؤمنين ـ على قلة عددهم ـ قد ظلموا والظلم هو التجاوز في الأصل.. قد ظلموا، فحصل التجاوز على الحريات والحقوق والحرمات، وانتهكت حتى أبسط قواعد التعامل والتعايش المشترك بينهم وبين المشركين. ثلاثة عشر عاماً تمضي في مكة والصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام ومحاولة الفتنة عن الدين بشتى الأساليب كل ذلك قائم ليل نهار.. حتى انتهى الأمر بإخراج المؤمنين مهاجرين من ديارهم وأموالهم.

كان ذلك هو الأمرَ الأول مما أشرقت به الآية الكريمة وهي تمثل منعطفاً جذرياً في حياة المسلمين ودعوة الإسلام. وقد أشرنا إليه فيما سلف. أما الأمر الثاني ـ فهو ما يدل عليه ختام الآية الكريمة وهو شقها الثاني في قول الله جل وعز: ﴿ وَإِنَّ

اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. ألا إنها لمحة مضيئة مباركة من لمحات المنهج الرباني في البناء ودرس أيٌّ درس في تنمية الوعي عند المسلمين وبخاصة في المراحل الحاسمة، وما أشد احتياجنا إلى ذلك اليوم وكل يوم. أرأيت إلى هذا التأكيد بإن وباللام **﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾**. إنه سبحانه قادر على نصر عباده المؤمنين ورفع الظلم عنهم، والتمكين لهم في الأرض.. هكذا دون قتال.. ولكنه جل وعلا: أقام الحياة على سنن لا تتخلف وربط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات، فهو يريد لعباده المؤمنين أن يُعِدُّوا العدة، وأن يسلكوا سبيل التمكين ببذل الأموال والأنفس في سبيل الله.. إنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته.. ومن الطاعات العظيمة بذل الجهد قتالاً في سبيل الله، تحت راية الجهاد الخالص لإعلاء كلمة الله.

والآن أفلا يشاركني القُرَّاء الرأي بأن ما حملته الآية الكريمة ـ على وجازتها ـ من الإذن بالقتال مع بيان السبب، والتوجيه إلى أن الله قادر على نصر عباده بلا قتال ولكن يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته. أفلا يشاركونني الرأي بأن الآية تحمل الكثير الكثير من توعية المسلمين وتبصيرهم بطريقهم، وبطبيعة المرحلة التي تمر بها الدعوة، وتجعلهم يدركون الأبعاد الحقيقية لهذا الإعلان الخطير على رأس العهد المدني بعد الهجرة.. وبأن المسلم عندما يخوض المعركة باذلاً ما استطاع من النفس أو المال والنفس يخوضها على بينة من أمره، قد تبصَّر بالغاية والوسيلة وليس رقماً جامداً يقاد إلى ساحة القتال دون وعي ولا إدراك، إنه يبتغي الشهادة في سبيل الله ويقاتل امتثالاً لأمر الله فلا اعتداء ولا ظُلم!!.

ثم إن في ذلك الخيرَ كلَّ الخير لبني الإنسان؛ ذلكم ما أخبرت به الآية التي تلت آية الإذن بالعدل مباشرة وهي قول الله جل شأنه: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** [الحج: ٤٠].

البناء.. والنقلة من الماضي إلى الحاضر

« ١ »

ما يقفنا عليه المعلم القرآني في سورة الأنعام وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ وثيق الارتباط ـ من بعض الوجوه ـ بما جاء في سورة الفرقان كما يوحي السياق ـ من قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الفرقان: ٢٥].

وهو ارتباط بيانٍ لنزعة نفسية جاهلية؛ فقد كشف الله عن حقيقة الموقف الجاهلي المعادي النابع من التراكم المنحرف في النفوس، وبين أن هذا يشير بوضوح إلى ظاهرة استكبارهم في أنفسهم وعتوهم الكبير، ثم توعّدهم على ذلك بقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

وهذا يؤكد بما لا يحتمل إثارة شك: أن المؤتمنين على البناء وتنمية فاعلية الفرد والمجتمع، كيما يتحقق للأمة ما تصبو إليه من وجود ذاتي كريم... يؤكد ما يبدو لأهل البصيرة من ضرورة أن يكون هؤلاء على الجادة وعياً لرسالتهم في الحياة، ومعرفةً دقيقة بطبيعة المواجهة مع الهدم والهدامين. وهذا يقتضي أن تبدأ عملية البناء من الفرد، وبخاصة من يراد له أن يكون على خط المواجهة.. كما يؤكد ضرورة أن تعرّى مواقف التحدي الماكرة المبطلة، وأن يخاطب أصحابُها باللغة المناسبة ضمن ما يكون من ظروف وملابسات.

وذلك ما نراه في سورة الفرقان، ورأيناه في سورة الأنعام، وكان ذلك خير عون للفئة القليلة المؤمنة كيما تتبيَّن منهجها ولا تنخدع بالمظاهر الكاذبة، وفي الوقت نفسه، لا تتهيب مشقات الطريق!.

وقيم الرسالة الإسلامية التي تنزلت وحياً من السماء، وأعطت العقل مكانه الطبيعي في فهم النص، والتفكرِ في آلاء الله، والاجتهادِ فيما لا نصٌّ فيه.. هذه القيم: منهج بناء ومسالك نماء، تأخذ طابع الشمول وتجاوز الحدود الزمانية والمكانية: من طبيعة الرسالة نفسها، مصداقاً لقول الله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾.

ومن ثمَّ فإن النقلة ليست بعيدة بين الزمن الذي تنزلت فيه آيات سورتي الأنعام والفرقان ونظرائها، وبين الزمن الحاضر محتوى الواقع الذي تعيشه الأمة، وهي تتطلَّع إلى مستقبل تتبدَّل فيه المواقع، ويتحوَّل ميزان القوى على الصورة التي كان عليها بالأمس، يوم كانت الأمة الإسلامية صاحبة القرار، ممكَّنة في أرض الله، وهنالك وتتنفس الإنسانية الصعداء من جديد..

إن هذه النقلة أمل يراود أهل الصلاح والإصلاح المتبصرين من المسلمين، كما يراود المنصفين من غيرهم، أولئك الذين يحكمهم حب الحقيقة ويرجون لله وقاراً!!.

وما أحسبني مغالياً إذا ذهبت إلى أن انعكاس هذه المقولة كائن لا محالة على الميادين كلها؛ ثقافية كانت، أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية..

ذلك بأن وعي البناة المؤتمنين على إحداث المؤسسات ـ التي تترجم المبادىء إلى حركة واقعية في مرضاة الله عز وجل ـ لطريقهم، وحسنِ الإعداد لهذه الطريق على الشكل الذي ينبغي ويتناسب مع عظمة الغاية المطلوبِ الوصولُ إليها، وهو الإعداد الذي لا يهمل جانباً من الجوانب ذات العلاقة بإحكام البناء وفق مضمونات الإسلام، في حرص على تنمية، الموارد البشرية والاقتصادية وغيرها، ومعرفة بطبيعة المواجهة والتحدي، مع مراعاة الظروف كلها والملابسات، والوعي لسنن الله الكونية التي لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً.

كل أولئك جدير ــ بإذن الله ــ أن يجعل الصلة بين القيم التي تطرحها معالم الكتاب العزيز، وبيانها من السنة النبوية، صلةَ حركة ودفعٍ للقافلة إلى الأمام، صلةَ إنشاء للوعي الذي ينبغي، والحوافز الفعَّالة التي تصنع ــ بعون الله ــ الكثير الكثير، خصوصاً إذا لوحظ أن البناة الصادقين المؤهلين لا ينطلقون من فراغ؛ فمع الرسالة الخاتمة، والتاريخ العريق، والحضارة المثلى: ما يتوافر لعالم الإسلام من المقومات البشرية والاقتصادية والجغرافية، وما هو في خدمة ذلك كله.

والمهم أن تصدق العزائم طلباً لطاعة الله، وتوظف المعرفة بقيم الإسلام على طريق اليقظة التي لا تنفصل عن الانتفاع بالعلم والتجربة، وتثمر البناء المحكم القويم.



وقفات مع آيات النقلة والبناء.. ومدلولات الوقائع

«٢»

تنمية الوعي ـ الذي لا تنقصه قاعدة المعرفة ـ لدلالات الوقائع المتجددة على ساحة الصراع بين قبيل الحق وقبيل الباطل في تاريخنا، يوم كان رسولنا النبي الأمي عليه الصلاة والسلام يسهر ـ بدءاً من العهد المكي الذي ابتدأ بإشراق نور الرسالة ـ على تجديد حركة الإنسان مع الحياة، ويعمل على أن تكون تلك الحركة عنوان نجاح وفلاح في الدنيا والآخرة «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» رواه أحمد.

هذه التنمية لتلكم المدلولات على هدي العطاء القرآني الذي يلاحق الواقعة، خطوة فخطوة، وينشر عليها معالم هدايته.. تبدو اليوم وكلَّ يوم، ضرورة تربوية وثقافية، يقتضيها ـ مع مراعاة التمخض الإقليمي والعالمي ـ ما يرجًى من إعداد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ إعداداً سليما بفكره وتصوراته، وبنائه بناءً يمكنه من الإنجاز المثمر بموضوعية واندفاع ذاتي في كل ميدان من ميادين الحياة، لأنه يحمل رسالة الحياة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

ذلك بأن عطاء المرحلة التي نشير إليها، والتي قاد فيها رسول الله ﷺ رحلة الإخراج من الظلمات إلى النور، المذكورة المشكورة في التاريخ: عطاء متجدد، لا ينال منه امتداد الزمن، بل يزيد اختلاف الليل والنهار من إلحاح الحاجة إليه، ولا يعدو على ذلك تباين البيئات والظروف، بل يكشف عن شدة الافتقار ـ أيضاً ـ إليه؛ ذلك بأنه عطاء يحمل سر النفاذ والتأثير، ويذكر ـ على المدى ـ بالانتصار على أولئك الدعاة على أبواب جهنم أكابر مجرميها، والذين كان مما أنزل الله فيهم ـ وهم يمكرون بدعوة الحق ـ قوله جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ**

حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله تباركت أسماؤه في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

والمهم في الموضوع: أن يكون الفرد المسلم والمجتمع المسلم على المستوى الذي يمكِّن من الإفادة المبصرة وتوظيف ما يستفاد من الوقائع على طريق اليقظة التي تومىء تباشيرها إلى الكثير الكثير من الواجبات، والثقيلِ الثقيلِ من الأعباء!!.

والملاحظ من خلال الآيتين المشار إليهما ـ وهما من آيات العهد المكي ولهما في الكتاب الكريم نظائر ـ.. الملاحظ أن القرآن الكريم كان واضحاً فيما ذكر من التحديات التي واجهت الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يُغِذُّ السير أداءً للرسالة على طريق البناء.. فترى الآيات تكشف عن صنيع أهل الشرك فيما أجرموا، وحكّموا أهواءهم، ومكروا، وتُبين عما توعدهم الله به من العقوبة والعذاب..

وفي ذلك ما فيه من تنبيه المؤمنين على ما يجب في هذا المضمار وتربيتهم على استكمال المقومات التي لا بد منها لمواجهة التحدي، وتنمية إحساسهم بالجريمة التي يرتكبها أولئك الهدامون عندما يصدون عن سبيل الله، فيُعرضون عن الحق ويمكرون بدعوة الخير والبناء، وإحساسهم كذلك بالمسؤولية على صعيد المواجهة التي لا تتوقف، ولا تخبو نارها على كل صعيد وفي كل ميدان، ما دامت رحى الصراع بين الحق والباطل دائرة ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

ويجيء الرد الواضح الذي يضع الأمور مواضعها ويكشف عن أن المعايير التي تحكم جعل الرسالة أين تجعل: هي المعايير التي يقتضيها علم الله وحكمته، لا تلك التي توحي بها الأهواء ونَزْغُ الجاهلية والشيطان.

يجيء الرد الواضح بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ويتلو ذلك توعدهم بالعقوبة على صنيعهم فيقول سبحانه: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

هذا الوضوح الذي نراه في عرض الوقائع على ساحة التحدي ومُظاهرةِ أهل الشرك على التوحيد وأهله، يحذِّر مغبة التهاون، ويضاعف مسؤولية المؤتمنين على بناء الجيل ـ تربية وتزكية ـ أن يصلوه جاهدين بتلكم المنابع الأصيلة في كتاب الله والسنة المطهرة، وأن يعملوا بمنهجية جادَّة ــ من خلال ذلك ـ على تنمية إحساسه بالواجب، وإنشاء الحوافز الداخلية التي تفوق الحوافز المشروعة الأخرى على أهميتها، علماً بأن العدو المتربص لا يعرف مهاودة ولا يدع فرصة تفوته في أي ميدان من الميادين. إن الله قوي عزيز.



وقفات مع آيات البناء.. وصورة أخرى من صور المواجهة والتنبه إلى دقة المعايير

« ٣ »

في اصطحابنا لواحد من المعالم القرآنية من قريب، سعدنا بالكشف عن الطريقة التي سلكها الكتاب الكريم في إيضاح ما كان من بعض صور التحدي التي واجهت الرسالة والرسول منذ اليوم الأول من العهد المكي، والتي كان من أمثلتها ما شهدنا في سورتي الأنعام والفرقان، حيث دلت الكلمة الهادية على صنيع أكابر مجرميها، وتحديدِ المعايير التي تحكم ـ بعلم الله ـ جعل الرسالة أين يكون، والوعيدِ الشديد لأولئك الذين جاهروا الله ورسوله بالعداوة، وكان شغلهم الشاغل تعويق مسيرة الخير، والحيلولة دون البناء الشامل للفرد والمجتمع أن يأخذ طريقه إلى الوجود، عبوديةً صادقة لله عز وجل، يعقبها ـ مع عمارة الأرض ـ استقرار وطمأنينة في الدنيا، وسعادة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

شهدنا ذلك وشهدنا معه كيف أن الحاجة إلى العطاء القرآني على هذه الساحة المتسعة الأرجاء: حاجة متجددة؛ فالنسب بين الماضي والحاضر، نسب متصل، والحركة الواعية على النسق الذي حملته معالم الكتاب العزيز ـ وهي حركة نابعة من صميم الهداية ـ لا بد أن تكون بداية الطريق.

ولعل مما يزيد هذه القضية وضوحاً ما نجده من تلك الصورة الأخرى من صور التحدّي في سورة الزخرف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثلاثين؛ ذلكم قول الله جلت حكمته: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

ففي الآية الأولى بيان لصورة من صور العناد التي تكشف عن إهمال العقل والبحث عن الدليل، وعن الاستعلاء البليد على الخضوع للحجة القائمة والبرهان الساطع ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن الذي أنزله الله بلغتهم ودلت البراهين على صدق أنه كلام الله تبارك وتعالى: عتوا عن أمر ربهم وانصرفوا عن البحث الجاد والحوار الذي يمليه العقل السليم إلى قضية هي عدوان على العقل والفكر السليم، وكرامة الإنسان؛ فزعموا أن هذا الكتاب المنزل بلسان عربي مبين سحر، ومن أجل ذلك هم به كافرون ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ومسلكهم هذا سمة من سمات الجاهلية الرعناء التي تستبدل التناقض وتعطيل الملكات الفاعلة، وإعمال العقل ووسائل المعرفة، بالتفكر والتدبر واستخدام العقل بالنظر في الدليل والاقتناع بما فيه مقنع.

وشتان بين السبيل الإيجابية البانية التي تنمي الملكاتِ والقدرةَ على تكوين الرأي الصائب والحُكم السليم، وبين تلك الترهات الهدامة التي تستخف بكل ما لا يجوز الاستخفاف به والانصراف عنه، لما أن ذلك يعود على الإنسان بالضياع وعلى المجتمع بالمساءة والفوضى، ويحرم الأمة من كثير من الطاقات التي تبدو معطلة عندما يستحوذ ظلام الجاهلية على القلوب، ويتنكب الناس المنهج السوي الذي يستمد وجوده من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

أما الآية الثانية: فتشير إلى شيء من التفصيل لما رأينا إجماله في سورة الأنعام. هنالك نجد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ وجاء الرد عليهم بقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

وهنا نقرأ في سورة الزخرف قول الحكيم الخبير: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

حدَّدوا المكان بمكة والطائف، وحدَّدوا الصفة التي يرونها تؤهل صاحبها لأن يتنزل عليه القرآن، وهي أن يكون عظيماً حسب تصوراتهم القبلية، ومعاييرهم الجالية وتعريفاتهم. فالمراد رجل عظيم على زعمهم من أيِّ القريتين كان!

ومقولة المعايير هذه مطلوب ممن يكرمهم الله بمسؤولية البناء على العقيدة ومفهومات الإسلام، وهي المسؤولية المثقلة بالتبعات الجسام: أن يكونوا على بينة من أمرهم فيها وهم يواجهون معايير جاهلية متجددة، وأن يحتكموا بذلك إلى حقائق القرآن والسنة وثوابتهما، ثم ما فهم أئمة الهدى من نصوصهما المشرقة بالهداية والخير. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.



مع آيات من سورة الزخرف البناء... ومعرفة الواقع ودقة المواجهة

«٤»

نعود اليوم لنصحب المعلم القرآني في سورة الزخرف حيث نستجلي قبسات أخرى من ضياء تلكم الآيات التي تبدأ بالآية الثلاثين وهي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

إن هذه الآيات تدل أوضح دلالة على أن مهمة البناء التي عهد إلى رسولنا الكريم أن يضطلع بأعبائها ـ بدءاً من تحويل الإنسان عن الشرك إلى التوحيد ـ لم تكن تلك المهمة السهلة الميسورة، ولكنها مهمة صحبها الكثير من المشاق لم يكن أقلَّها ما كان يلجأ إليه سدنة الكفر والجاهلية من تحديات يُبتغى من ورائها الحيلولة دون القرآن ودون أن يأخذ طريقه إلى القلوب والعقول، وصرفُ الناس عن التصديق بنبوته عليه الصلاة والسلام وأنه رسول يوحى إليه.

لقد ضاقوا ذرعاً بالكتاب الكريم، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله، فزين لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم أن يقولوا: هذا سحر وإنا به كافرون. كما قال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة المخزومي الذي أثار فيه أبو جهل نخوة الجاهلية فرجع عن رأيه الحسن في القرآن وزعم أنه سحر من قول البشر، وذلك بدءاً من الآية الحادية عشرة في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا

﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي سحرٌ يأثُره عن غيره.

وقصة هذا اللون من التحدي الجاهلي الذي يهمل العقل ويجفو طرائق الحكم السليم وبخاصة من أناس هم أولى الخلْق يومذاك بأن يدركوا عظمة كلام الله وإعجازه ــ لأنه نزل بلغتهم وعلى معهوداتهم وأعرافهم القولية في الخطاب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ــ وأنه يستحيل أن يكون من كلام البشر فضلاً عن أن يكون من السحر الذي يهذي به السحرة وأهل الكهانة ويتنطعون.

قصة ذلك ما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر فسأله عن القرآن فلما أخبره خرج على قريش، فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ــ يعني الرسول عليه الصلاة والسلام ــ فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد لتصبأنَّ قريش.

فلما سمع بذلك أبو جهل قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل إلى بيته فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألستُ أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال: أو قد تحدثت به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ الآيات أخرجه الطبري.

ومما يروى عنه: أنه قال في القرآن ــ قبل مكر أبي جهل بإثارة نخوته الجاهلية بدل أن يقول مثلاً: عندنا من يقول مثل هذا الكلام أو خيراً منه ــ: لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه.

حتى إذا غلبه الهوى وأثار فيه أبو جهل حمية الجاهلية العمياء: عدل عن قوله الأول القائم على المعرفة والتذوق، وجنح إلى الجهالة ودعوى أن هذا الكلام المعجز سحر يأثره رسول الله عن الناس. إنها المشقة تكتنف طريق العاملين البُناة بإيمان ومنهجية وأخذ بالأسباب وفق سنن الله في هذا الكون؛ ولكن العاقبة لهم، إن هم صبروا وصابروا، وأتوا البيوت من أبوابها بموضوعية، فلم يغفلوا عن الله، وصدق التوكل عليه ودأبوا ــ مع الأخذ بالأسباب ــ على الوقوف ببابه طلباً للتأييد والنصر موقنين بأن ما شاء ــ سبحانه ــ كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه ولي الصابرين.



إحكام البناء.. وسورة الزخرف المواجهة بإيمان.. معرفة الواقع ودرء المعيار الجاهلي

مرة أخرى نعود إلى آيات سورة الزخرف المكية في متابعة لعطاء المعلم القرآني المشرق بالبر على هديها، وهي قول الله جل وعز: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

والنظر في هذا اللون من العطاء الذي أضاء به قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وما كشف عنه من التحدي الذي ووجه به الرسول الكريم ﷺ وبارك عليه من قِبَلِ سدنة الجاهلية والمكر، في شأن القرآن والرسالة؛ حيث قادنا ذلك إلى موقف الوليد بن المغيرة المخزومي، الذي غلبت عليه شقوته ـ والعياذ بالله ـ فارتدَّ خاسراً عن كلمة الحق التي قالها في القرآن الكريم، وأنه ليس من كلام البشر، وهو الخبير بفنون القول من شعر ونثر، بعد أن خضع، لاستثارة حمية الجاهلية من قبل أبي جهل الذي دبَّر له مكيدة الافتراء بأن عشيرته تتحدث بأنه يتردد إلى أبي بكر وعمر والرسول عليه الصلاة والسلام رغبة في أن يصيب شيئاً من الطعام عندهم مع أولئك المستضعفين، فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

وهذه الصورة من الإنكار المعادي للموضوعية والتجرد في الحكم، بله الخضوع للحجة والبرهان: تسلمنا إلى ما يحمله قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ ويعنون بـ ﴿الْقَرْيَتَيْنِ﴾ مكة المكرمة والطائف!!.

ترى لو أنزل هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على رجل من القريتين عظيم ــ على حد قولهم ــ أكانوا يؤمنون به؟.

القرائن كلها تعطي أنهم لن يؤمنوا حتى في مثل هذه الحال؛ لأن القضية قضية تعجيز ــ على هواهم ــ المراد منها تسويغ بقائهم على الجحود حتى بعد أن يستبين الصبح لكل ذي عينين.

وحين نقول هذا لا نقول افتراءً، ولكن تنوع المطالب والتعلّلات يدلُّ أوضح الدلالة على هذا.

هذه واحدة، أما الثانية: فإن الحق تبارك وتعالى ــ وهو العليم بذت الصدور ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ــ أبان عن هذه الحقيقة في محكم كتابه الكريم؛ فلو افترضنا حصول ما يطلبون وعلى الصورة التي تحتها يراوغون؛ فما سر ادعاء أن ما حصل هو لون من ألوان السحر، وأنهم قوم مسحورون!! جاء ذلك في أكثر من موطن.

من ذلك قول الله تبارك وتعالى في الآية السابعة من سورة «الأنعام»﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

تلا ذلك قوله سبحانه:﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

وتطالعنا سورة الحجر بقوله تعالى في الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة منها: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

إنها التمحلات الشيطانية التي يثيرها العناد الأبله، والإصرار على اللبث في حمأة الضلة وعماية الجاهلية، مهما حمل ذلك من التناقض، وإهمال العقل عند الحكم الذي يطلقونه على القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام.

ولئن اشترطوا في بعض الحقب للإيمان ـ كما سبق أن رأينا في سورة الأنعام ـ أن يؤتَوا مثل ما أوتي رسل الله، وردَّ الله عليهم قالتهم الماكرة بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ إنهم هنا ـ كما نرى في الآية الحادية والثلاثين من سورة الزخرف ـ يعترضون ـ والعياذ بالله على الذي أنزله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

فكأنهم يقولون: هل كان إنزال هذا القرآن على رجل من القريتين ـ مكة والطائف ـ كبير في أعينهم، حسب المعايير المألوفة عندهم للعظمة من مال وجاه وما إليهما، ولو كان هذا العظيم في أعينهم ألعوبة بيد الشيطان، وعنصر هدم وتخلُّف عن قافلة الخير للجماعة والمجتمع!.

ويبدو من الروايات في ذلك: أنهم كانوا يعنون في حضْهم البارد: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. أو الوليد ومسعود بن عروة الثقفي، أو الوليد وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أرادوا جباراً من جبابرة قريش..

ولكن الذي في علم الله وحكمته ـ وهو العليم الحكيم ـ غير هذا الذي يريدون بمعاييرهم الهابطة، وهو جل شأنه أعلم حيث يجعل رسالته، تحقيقاً لما يصلح العباد في عاجلهم وآجلهم دنيا وآخرة أن لو استجابوا لدعوة الحق والخير.

إن الرسالة التي ترمي ـ كما شاء ربنا تبارك وتعالى ـ أن تكون رسالة بناء تبدِّل ما عليه الجاهليون في جزيرة العرب وغيرها من الأصقاع، حيث الوثنية الظاهرة عند المشركين، والوثنية والمقنَّعة عند أهل الكتاب الذين غيَّروا وبدَّلوا، وتحوِّل سلوكهم وتصوراتهم في أنفسهم وفي مجتمعاتهم عن الطريق المعوجَّة اعتقاداً ونظام حياة، إلى الطريق السليمة المأمونة، وتخرجهم والإنسانية كلها من الظلمات إلى النور....

إن هذه الرسالة محال أن تُجعل إلا فيمن هو أهل لحمل أمانتها، وتبليغها على الوجه الذي ينبغي، وصنعه الله على عينه لذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وهي رحمة من الله لا تأتي بالدعاوى والأماني الكاذبة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟!.

فإذا كان الله هو الحكيم فيما قسم من الرزق، فليكن الإنسان على يقين من أنه ــ جلَّت حكمته ــ قد وضع الأمور مواضعها على الوجه الأكل والأسمى، عندما اختار للرسالة الخاتمة التي هي التغيير في نفوس بني الإنسان وحياتهم إلى ما هو الأفضل أبداً على وجه اليقين بل على حق اليقين؛ محمد بن عبد الله سيد ولد آدم صلى الله وسلم وبارك عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.



خاتمة سورة المجادلة.. وبناء الفرد والجماعة

«١»

لعل من الخير أن أذكِّر بأن الرحلة التي يقضيها المسلم في رحاب المعايير المقررة للموالاة والمعاداة والتي يقطعها مع آيات مباركات من مثل سور «المنافقون» و«آل عمران» و«المائدة» و«التوبة» ترى المنطلق إليها: موقف الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه الضالِّ في كلمات هابطات ألقاها الشيطان على لسانه، تنمُّ عن نفاق ضرب على قلبه بالأسداد، وفي هذه الكلمات ما يدعو إلى عدم الإنفاق على المهاجرين عليهم الرضوان، والعمل على أن يضطرب الوضع الاقتصادي في المجتمع المسلم، كيما يتفرَّق من حول رسول الله ﷺ عنه.. إلى كلمات أخر تنضح بالسم الزعاف يزعم فيها أن العزة له ولزمرته من المنافقين ـ هكذا زعم، فخسِئَ كيف زعم ـ وأقسم أنه عند الرجوع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل... قال هذا، وكأنه ولي الأمر هناك.

ثم أقسم كاذباً أمام رسول الله ﷺ أنه لم يقل متخذاً من إيمانه جُنةً، فصدَّ عن سبيل الله ونزلت سورة «المنافقون» وفيها قول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

وموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي الإيماني المستنير: يتلخص في أنه كان على استعداد لأن يزيح رأس أبيه من الطريق إن أراد رسول الله ذلك، ثم برهن لأبيه بشكل عملي أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا لرأس المنافقين، عبد الله بن أبي ومن حوله من مرضى القلوب مُعطِّلي العقول الطغام!!.

وفي أعقاب الرحلة المومى إليها: نحن على موعد مع آيات كريمات في سورة «المجادلة» المدنية تكشف عن وقائع تعكس صدق المواقف عند أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم يواجهون الامتحان الصعب على طريق الريادة وبناء المجتمع المسلم القدوة بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، في أعقاب جاهلية جهلاء لا تفرِّق بين الغث والسمين.

كما تعكس التزامهم الدقيق بالمعايير التي حددتها معالم الكتاب الكريم والسنة والمطهرة للموالاة والمعاداة، والحب والبغض!.

فالموالاة عندهم ـ كما أراد الله ورسوله أن تكون ـ: لله ولرسوله والمؤمنين، وتراهم وحبُّ الله ورسوله والجهاد في سبيله، هو المقدَّم على حب كل قريب مهما بلغت قرابته وصلته، ومن كل مبتغىً في هذه الحياة، مهما كان شأنه وموقعه من النفوس!!.

ذلك قول الله جل ثناؤه في خاتمة السورة المشار إليها، بدءاً من الآية العشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

لقد تنزلت هذه الآيات، ورحلة البناء تتحرك خلاياها وتتكاثر على كل صعيد، والمؤمنون غير غافلين عما كان يعجُّ به المجتمع في سابق الأمر، من رواسب الجاهلية، وآثار التمزق القبلي والانحراف الوثني، وفكر اليهود والمنافقين.

وليسوا قاعدين عن مواجهة التعاون الظالم والتحالف غير المقدَّس بين المشركين واليهود والمنافقين وما يبيته أعداء الله خارج الحدود، مما يظهر أو يخفى حسب الظروف والملابسات.

غير أن بناء المسلم على الإيمان والمعرفة، والصلةِ المنوَّرة بالله عز وجل، ناهيك عن وعي الواقع، وسلامة الغاية والوسائل إليها: كل أولئك، جعل الجماعة المؤمنة قادرة ـ بعون الله ـ على تجاوز العقبات والانتصارِ على ما يعترض طريق الحق وأهله من الصعاب، وتحقيقِ ما نُدبت إليه من رفع القواعد لبُنية حضارة سامقة في مجتمع مسلم يحمل دعوة الله إلى العالمين، ويمثّل الأنموذج الحيّ عى طريق البشرية الطويل!!.

وموعدنا كلمات قادمات ـ إن شاء الله ـ نتبيَّن من خلالها بعض المواقف التي كانت ترجمان الالتزام الصادق لأمر الله ورسوله في هذا الباب، والتي تعلن ـ بأبعادها كافة ـ أن البنية السليمة التي أثمرتها حركة أولئك الميامين، أمانة في أعناق من يحملون عبء الريادة اليوم، كيما يكون في أدائها استمرار العطاء على طريق الهداية، وتزويد الأمة بما يزيح ركام التخلف، وينهض بها من عثار، ويمكِّن لها تحت راية التوحيد التي هي دائماً لخير البشرية جمعاء.



سورة المجادلة... وحقيقتان على طريق البناء

«٢»

ألقينا عصا التسيار من قريب، عند خواتم سورة المجادلة وقول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية العشرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذه الآيات الكريمات وأمثالها ــ كما يبدو للناظر المتدبر ــ زاخرةٌ بما ينمي بواعث الحركة القادرة بإذن الله على تجاوز العقبات، والارتفاع فوق ما يكون من الصوارف الظاهرة حيناً، والمموَّهة المزخرفة حيناً آخر، فضلاً عما يجترحه الظالمون الصادون عن سبيل الله، وما يلحقونه من الأذى بدعاة الحق المستضعفين.

صحيح أن الغاية في سموها وعظمتها: صعبة المرتقى، ولكن المنهج الرباني حلَّ العقدة الكبرى، وذلل الصعب بمختلف الوسائل والأساليب الصحيحة، بدءاً من داخل النفس وإثارة القلب والعقل فبناء المؤمن على العقيدة وصدق الالتزام بالمعايير المتوائمة معها، وصادق الإيمان أنه ــ وهو يوجه حركة الحياة ــ على الحق الذي لا تشوبه شائبة، وأن الذين يحادُّون الله ورسوله: هم المبطلون أعداء أنفسهم وأعداء الإنسان، موقناً حق اليقين أن النصر في خاتمة المطاف للحق وأهله. كل أولئك يضمن ــ بإذن الله ــ أن يكون المؤمن كفاء الغاية.. وصدق الوجهة في الطريق إليها،

وتحقيق كل ما فيه مرضاة الله ورسوله، لأن الله ورسوله والجهاد في سبيله أحبُّ إليه من كل شيء، ودون مرضاة الله ورسوله كل ما يكون من مبتغيات الحياة وزينتها وما تهفو النفوس وتميل إليه فيها.

وصلى الله وسلم وبارك على الأسوة الحسنة يوم قال في دعائه بالطائف الذي رواه الطبراني برجال ثقات: «**إن لم يكن بك سخط عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي**».

وغير خاف أن قوله تعالى في سورة «المجادلة»: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ...**﴾ الآية قد سُبقت بحقيقتين أساسيتين ما بدٌّ من أن يكون الفرد والجماعة في المجتمع المسلم، على حق اليقين منهما، وحسن التصور لموقع كل منهما من معركة البناء المتشعبة الميادين ــ في عمقها وشمولها ــ ومواجهة ما يكون من التحديات المستوطنة في نفوس مرضى القلوب، أو الطارئة على صعيد التطور في الأعراف والمصطلحات والقيم عند كثير من الناس!.

وهاتان الحقيقتان: حملت أولاهما الآية العشرون من سورة «المجادلة» المشار إليها آنفاً، وحملت الثانية الآية الحادية والعشرون منها.

فمن وضوح الرؤية في الإحاطة بالغاية المطلوب الفرارُ إلى الله لتحقيقها، مصحوباً ذلك بسلامة المنطلق إليها: أن يكون المؤمن على يقين لا يتزعزع ألبتة، بأن الكفار المعاندين الذين يحادُّون الله ورسوله ــ يعادون الله ورسوله ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ــ: هم في الأذلين، في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، المتسربلين في الذلة والصغار في الدنيا والآخرة.

وما ذلك إلا لأنهم رضوا لأنفسهم مختارين هذا المسلك الضالَّ المضلَّ؛ فهم في حدٍّ، والشرعُ الذي فيه خير العباد والبلاد في حدٍّ. ومن هنا جاءت المحادَّة لله ورسوله ــ والعياذ بالله ــ.

وهكذا تجد هؤلاء السفهاء في اعتقادهم وسلوكهم، مظاهرين للباطل، مجافين للحق شاقين له، هم في ناحية، والهدى والصلاح في ناحية مخالفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن الله تعالى ــ وهو القوي العزيز الغالب على أمره ــ: كتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يبدَّل ولا يمانع: أن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين المجاهدين، في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، أن لو سار هؤلاء العباد مع سنن الله، وما أمر به ونهى عنه سبحانه.

ولقد نطقت بذلك الكلمات الهاديات في عدد من المواطن، وفي مقدمتها الآية التي تلت ما نحن بصدده وهي قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

ذلكم هو القدر المحكم والأمر المبرم الذي يشحن همم المؤمنين، وينمي في أنفسهم حوافز العمل والجهاد، مهما اشتدت الأزمات وطال الطريق.

كما قال جل وعلا في سورة «غافر» المكية: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

ولكم تسعف المؤمنَ هاتان الحقيقتان في مواجهة التحديات، ومطاردةِ كل ما من شأنه إدخال اليأس إلى النفوس، أو النزول على ما يكون ــ ظاهراً وباطناً ــ من تسويلات الشياطين شياطين الإنس والجن.

وبذلك يكون هذا المؤمن ــ وهو يعمل على تجاوز الواقع غير السليم، وإنشاء البديل الصالح ــ أقوى ــ بإذن الله ــ من التحديات، وعوامل التثبيط التي يفرح بها مرضى القلوب والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

خواتم المجادلة.. وحقيقة ثالثة في البناء

«٣»

نحن على موعد مع وقفة أخرى نستأنف من خلالها صحبة المعلم القرآني في خواتم سورة مدنية هي سورة المجادلة، وقوله جل وعلا في الآية العشرين منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وفي الطريق إلى الآية الثالثة من هذه الآيات كان المعلم القرآني قد وقفنا في الآيتين العشرين والحادية والعشرين على حقيقتين أساسيتين: ما بدٌّ من اليقين بهما وحسن التصور لأبعادهما؛ تتعلق إحداهما بحكم الكتاب العزيز على الكافرين المعاندين المحادّين لله ورسوله أنهم في الأذلين وذلك ما نطقت به الآية الأولى.

وتتعلق الأخرى ببيان أن الله هو القوي العزيز، وأنه قد حكم وكتب في كتابه الأول وقَدَرِه الذي لا يمانع ولا يتبدَّل: بأن النصرة له ولكتابه ورسوله وعباده المؤمنين الصادقين المجاهدين في الدنيا والآخرة وذلك ما نطقت به الآية الثانية.

وغني عن البيان أن القراءة المتأنية لتاريخ الصراع بين الحق والباطل في الماضي وما فيه، والحاضر وما فيه، وما حمل المنهج الرباني ـ في دعوته الخيِّرة إلى بناء الإنسان والحياة ـ من نصوص توجب إعداد القوة المستطاعة، علماً وعملاً، وأخذاً بالأسباب المتسقة مع القاعدة الإيمانية، وإلى البذل والتضحية عن طواعية ورضىً،

جهاداً في سبيل الله، يصحبه ما يجب من الخضوع في الحركة والتصرُّف للمعايير التي حدَّدها ذلك المنهج المبارك للموالاة والمعاداة والحب والبغض، وما ينبغي من التساوق مع سنن الله التي لا تتبدَّل... كل أولئك يسمو بالمؤمن إلى حقيقة ثالثة، هي أن المؤمنين الصادقين عاهدوا الله عليه، أولئك الذين همُّهم إعلاء كلمة الله، في أخذ للنفوس بتلكم المعايير المومى إليها، لما فيها من ضمان الثبات على الطريق دونما تلفُّت إلى هنا وهناك.. هم الصورة العملية لنفاذ قدر الله فيما حكم على الكفار المعاندين، وفيما أبرم ـ وهو الغالب على أمره ـ من أن النصر في خاتمة المطاف له ـ جلت قدرته ـ ولكتابه ورسوله وأولئك المؤمنين الذين يوفون بما أعطوا لله من عهد وموثق، وأيديهم مبسوطة بالعطاء طاعةً لله، وتجدهم ـ على كل الأحوال وقد ذاقوا حلاوة الجهاد في سبيل الله ـ وقافين عند مقتضيات الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وأخلاق المجاهدين.

وكم في هذا الوقوف عند هذه المقتضيات والعمل بها من قوة البرهان على الصدق، ومن ثمرات الخير والنماء لهم ولمجتمعهم وأمتهم، بل للإنسانية جمعاء!!

من هنا كان هذا الذي نلمح إليه: بعضاً مما يفسر النقلة في الآيات الكريمات بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ الآية إلى قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية.

وليس من الجنوح عن الفهم السليم في شيء: أن نشير إلى أن تكلم الكلمات الهاديات ونظائرها في كتاب الله العزيز مما تشرق به معالمه، وما جاء في سنة النبي ﷺ في هذه البابة: الجواب الشافي عن كثير من التساؤلات التي تدور في عالم الواقع، عما ينال الكفارُ من غلبة ونصر، وعما هو واقع بالمسلمين من الأذى..! فلله سنن لا تتخلَّف، وهذه الدار قائمة في شؤونها على الأسباب والمسببات كما هي سنَّته في هذا الكون في النصر والهزيمة والقوة والضعف، وما إلى ذلك...

فهو مع المؤمنين إن هم نصروه ــ بكل ما تحمله كلمة النصر هنا من المعاني ــ وكانوا على توافق مع سُنَنه في الكون والحياة ولكنهم لا يظفرون بذلك إن هم جانبوا طريق النصر، وأخذوا وجهة عكسية من سنن الله في الأسباب والمسببات وما إلى ذلك، وأعداؤنا ــ وهم أعداؤه ــ لا تتخلف سنن الله في تعاملها معهم إن هم تساوقوا معها.

وهذا يذكِّرنا بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]. إن المسلمين اليوم يجنون مرارة ما زرعوا من التغيير النفسي عن الحق حتى غيَّر الله ما بهم من نعمة الغلبة والتمكين. والمطلوب اليوم يقظة حقيقية تعيدهم إلى استنارة النفوس بالإيمان الصادق واليقين الذي لا يتزعزع، والسير مع سنن الله في الكون، حتى تعود إليهم النعم التي غيرها الله بهم، بسبب تغييرهم ما بأنفسهم وهو المحمود على كل حال.



البناء والآية الأخيرة من سورة المجادلة.. العقيدة والموالاة

« ٤ »

هذه عودة إلى الآية الأخيرة من سورة المجادلة؛ ففي سبب نزولها ما يعين على مزيد من التَّبيُّنِ لتلك الحقائق التي طرحها المعلم القرآني هناك، وهي بعض، من العطاء في خواتم تلك السورة المدنية المباركة. والآية الكريمة هي قول الله جل ذكره: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

وقد سُبِقت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾.

فالمؤمنون بالله واليوم الآخر، لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله، فكان هو في حدٍّ والله ورسوله في حدٍّ، يلتزم طريق الضلال ويحارب الحق وأهله.. المؤمنون بالله واليوم الآخر لا يوادون من هم في فكرهم وسلوكهم على هذه الشاكلة ولو كانوا آباءَهم أو أخوانهم أو عشيرتهم.

فمعيار الحق عند المؤمن أن يكون أبداً في عمله وسلوكه وتعامله مع الآخرين: منضبطاً بضوابط الموالاة والمعاداة التي وضعها الشارع الحكيم؛ فالموالاة لله ولرسوله والمؤمنين... وحبُّ الله ورسوله والجهادُ في سبيله مقدَّم على كل حب أو ميل.

وبناءً على ذلك: فالمودة الصادقة إنما تكون لإخوته المؤمنين ولو بعُدوا في النسب، ومن مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا تكون هذه المودَّة للمحادِّين لله ورسوله، ولو كانوا من أقرب الناس نسباً كالآباء والأبناء والإخوان والعشيرة.

وهذا ما يذكرنا بقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]. حيث النهي القاطع عن اتخاذ أولئك المحادِّين أولياء من دون الله، وقوله في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٤٢]. حيث الوعيدُ الشديد على تقديم حب ما ذكر على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله، وأن الفسق ـ الخروج عن ذلك ـ ضلال مبين.

والحق أن الآية التي نسعد باصطحابها من سورة المجادلة تقدم الصورة العملية الناطقة بالامتثال العملي لما جاءت به تلك النصوص؛ فقد روى الحافظ البيهقي وغيره أن قوله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...﴾ الآية قد نزل في أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، حيث قتل أباه المستميتَ في قتال الرسول ﷺ وأصحابه يوم بدر. وهو موقف يبدو فيه الانصياع التام لمعاير الموالاة والمعاداة، كما أراد الله ورسوله، ولا بدع أن يكون هذا الصحابي ـ بشهادة النبي ﷺ ـ أمين الأمة المحمدية. ومن أجل ذلك قال عمر رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة عليهم الرضوان (ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته).

ولا بد من متابعة اصطحاب الآية التي نسعد باصطحابها هنا فيما يأتي من القول إن شاء الله، كيما نُلمَّ أكثر وأكثر بأبعادها على طريق البناء، وما يجب على الرواد في حمل الأمانة والحرص على المنهجية، في بناء الفرد والجماعة، وعملِ كل

ما من شأنه تأصيل النسبة والتحقق بها إلى أولئك البناة الذين حطموا قيود الجاهلية، وانتصروا على المعوقات في أنفسهم وفيما يعترض سبيلهم وهم يرفعون قواعد الحضارة المثلى ويقدمون للناس ما يسعدهم في الدنيا ويوم تُزلزَل الأرضُ زِلزالها وتُخرج الأرض أثقالها.



خواتم سورة المجادلة وأولويات في بناء الإنسان المسلم..

« ٥ »

مما وقفنا عليه المعلم القرآني في خواتم سورة المجادلة، بدءاً من الآية العشرين فيها: أن الجيل الذي تعهده رسول الله ﷺ بالبناء ونمى فيه طاقات الخير وحوافز العمل الإيجابي المثمر: كان في مقدمة ما تميَّز به: صدقُ الوجهة في الموالاة والمعاداة والحب والبغض؛ فهو على كل أحواله، لا يتولى إلا الله ورسوله والمؤمنين، سواء أكان ذلك على صعيد التصور أم كان على صعيد الممارسة والتطبيق.

وتراه لا يوادُّ من حادَّ الله ورسوله، مهما بلغوا من قرابة النسب، والله ورسوله والجهاد في سبيل الله أحب إليه من أقرب ما يُحَبُّ وأثمن ما يبتغى؛ ذلك لأن همَّه أبداً وشغله الشاغل: أن يكون على التزام تام بالمعايير التي حدّدتها للموالاة والمحادة معالم الكتاب العزيز وبينتها بالقول والفعل والإقرار سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا لم يكن عجباً من العجب: أن ينجز هذا الجيل في حِقبة زمنيَّة يسيرة في ميادين العلم والعمل وآفاقهما، وفي التأسيس الحضاري: ما لا ينجز في أضعاف أضعافها.

والآيات المشار إليها في سورة المجادلة هي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وآصرة ما بين هذه الآيات الثلاث وبين المقولة التي نلمح إليها في شأن الجيل الذي حُمِّل أمانة البناء. فحملها ـ مستعيناً بالله ـ على خير وجه: ما حملت الكلمات الهاديات من حقيقة أن الذين يحادُّون الله ورسوله هم الأذلون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ومن حقيقة أن الله قد كتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يمانع ولا يبدَّل: ما نطق به قوله جل شأنه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

ثم ما دلت عليه الآية الأخيرة التي ختمت بها السورة من أن أولئك المؤمنين الذين وفوا بعهد الله، وأخضعوا سلوكهم في الظاهر والباطن، وممارستهم لشؤون الحياة في السلم والحرب: إلى تلكم المعايير الربانية في الولاء والبراء، والموالاة والمعاداة، والحب والبغض: إن أولئك المؤمنين الذين سلمت لهم تلك البنية المتكاملة في الاعتقاد والتصور والتطبيق: هم الصورة العملية لنفاذ قدر الله فيما دلت عليه الآيتان الكريمتان.

والآية التي نعنيها هي قول الله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية.

وقد نزلت هذه الآية ـ كما دلت بعض الروايات التي أشير إليها فيما سبق ـ في شأن أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ـ وقد قتل أباه الذي أمعن في الحرص على إنزال القتل بالمسلمين يوم بدر.

وإلى أن نلتقي مع كلمات أخر نستودعها مزيداً من الاستنارة بعطاء المعلم القرآني: لا أجد بدأ من الإشارة الجازمة إلى ثقل الأمانة في تبصير الجيل المعدِّ للبناء الذي يعيد للمجتمع المسلم وجودَه الحقيقي بالإذعان للحنيفية السمحة، أحكامِها وأخلاقها وآدابها، والتي ينتمي إليها صنيعُ أبي عبيدة وأضرابه رحمهم الله ورضي عنهم، أولئك الذين وضعهم الله موضع الريادة الأمينة، والتربية بالقدوة لما يليهم من أجيال أمة الشهادة على الناس.

والحق أن هذا الجيل الذي تولى الله ورسوله والمؤمنين، فلم يبخل بعطاء، ولا تقاعس عن مكرمة، ولا أمسك عن بذل، وكان ــ بعون الله ــ أقوى من الرغبات والمخاوف: يكشف سلكوه الفاذُّ عما كان للمنهج القرآني الذي حوله ندندن من أثر فعَّال في صياغة التاريخ، وبناء حضارة الإنسان التي لا تشكو عوجاً، ولا يعرف التناقض إليها سبيلاً.

والتبصر بذلك على الوجه الذي ينبغي: حجر الزاوية في استئناف مسيرة الخير، وإحداث النقلة النوعية التي يتوخاها المصلحون، وفي إنشاء الحوافز الإيمانية التي أراد لها المنهج الرباني أن ترعى مسيرة المؤمن كيما يكون على الصراط السوي في دينه ودنياه وآخرته، وكم لذلك من عظيم الآثار في الأسرة والمجتمع والأمة، والله يتولى الصالحين.



أولويات في البناء.. ووضوح الرؤية
سورة المجادلة والجيل القدوة
«٦»

الجيل المرشح ــ في ظل يقظة العالم الإسلامي ــ لحمل الأمانة في تجديد البنية عند الفرد وبناء مجتمع تقوده ــ على وجه الحقيقة ــ الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حيث ترد الأمور إلى محاضنها في شعوب الإسلام، ويزينه النماء المطرد في ميادين الحياة كافة، سواء كان اجتماعية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو سياسية وغيرها، ضمن ظروف تخضع للتحديد أحياناً، وتستعصي عليه أحياناً أخرى... هذا الجيل ما بدٌّ من تبصيره بحقيقة ما بني عليه الجيل الرائد الذي شهد تنزل الوحي، وكان طوع الكلمة الهادية يلقيها رسول الله ﷺ ــ وهو المبلغ عن الله ما أراد ولا ينطق عن الهوى ــ: فقدَّم للبشرية كلها ــ وهو الجيل القدوة في جزيرة العرب ــ ما قدَّم للبشرية من منجزات لا ينكرها منصف متبصِّر مدرك لما كانت عليه الحال في الجزيرة العربية وغيرها في أرجاء المعمورة، وما آلت إليه الأمور بعد الإسلام الذي حمله عن رسول الله ﷺ وبلغه الناس ذلك الجيل الفريد!!.

كان لا بد من الإشارة إلى هذه الحقيقة لأنها ــ كما أسلفت فيما سبق ــ حجر الزاوية في منهج يراد له أن يحقق سلامة التصور للغاية المنشودة ــ كما حددتها الرسالة الخاتمة ــ والسبيل الموصلة إليها وفق سنن الله في كونه وخليقته، وأن ينشئ الحوافز إلى العمل والإنجاز من داخل النفس المؤمنة التي استنارت بحقائق الإسلام، وهي حوافز تصنع ــ بإذن الله ــ الكثير الكثير، الأمر يؤذن باختصار

المراحل إلى ما يجب أن يكون؛ لما أنها وليدة الإيمان الصادق، والانعكاس الطبيعي لما يأخذ به المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ نفسه من ضوابط ومعايير أشرقت بها نصوص الكتاب والسنة على صورة لا يعتريها التباس أو تخمين!.

نقول ذلك، لأن الأنموذج العملي الذي سداه ولحمته فقه الدعوة، والاستعلاء بالذوق الإيماني على المعوقات: يبني بالقدوة، ويسعف ـ تربوياً وتزكية ـ بإحداث النقلة التي لا بد منها، من المعرفة والتصور، إلى العمل والتطبيق، وذلكم دليل الثقافة الحقيقية التي تجمع بين المعرفة والسلوك عند الفرد والجماعة.

من أجل ذلك ـ وغيره كثير ـ أراني ـ وهذه المقولة المباركة التي هي من الحق وإليه ـ تقودني مرة أخرى إلى اصطحاب المعلم القرآن في خواتم سورة المجادلة، وقول الله تبارك وتعالى في الآية الأخيرة منها: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وليس من مكرور القول التذكير بما سبقت الإشارة إليه من ارتباط سبب النزول ـ كما نصت بعض الروايات ـ بصنيع أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه يوم بدر.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبو نُعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن» عن عبد الله بن شوذب قال: جعل والد أبي عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر ـ يعني من طعن المسلمين ـ قصده أبو عبيدة، فقتله، فنزلت ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا....﴾ الآية.

والحق أن الأمر في هذا المسلك وأمثاله، في تقديم حق العقيدة على العلاقة القريبة المضادُّ أصحابُها ولو كانوا من أقرب الناس نسباً أو ما هو على شاكلته: يتعلق ـ بعد الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب ـ بوضوح الرؤية عند المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ الذي يتحرَّك في ميادين البناء على وجوهها المتعددة المتنوعة

سلماً وحرباً، ويعمل على أن يوجه حركة الحياة وجهة لا تنأى ـ وهي تتعامل مع الواقع أو تنشئه ـ عن شريعة الإسلام التي تغمرها بالخير، وتحصنها في مواجهة الأذى والتحديات..

فهذا المسلم، بوضوح الرؤية المشار إليه: يكون مدركاً بوعي ومنهجية سليمة لغايته التي يتطلع إليها، وما ينبغي لتحقيق ذلك من فهم وبذل ورعاية؛ لذا تراه يتخذ ما يتخذ من المواقف وهو الواثق المطمئن الثابت الخطا، المدرك لطبيعة الحركة تحت الراية التي يسالم أو يحارب من أجل ما هي رمز له وتدل عليه، ويحب أو يبغض وهو على اليقين من أن تلك الراية هي التي نسجت وجودَها الكلمةُ الطيبة ذات العطاء الذي لا يُحَدُّ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) الكلمةُ التي حُددت المعايير لذلك كله على هديها وفي نورها.

ومن هنا ذكر عدد من المفسرين يرحمهم الله أن المعنيَّ بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ... ﴾ أمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح في موقفه مع أبيه يوم الفرقان؛ فهو لم يوادَّه وإن كان أباه على حساب الإيمان بالله واليوم الآخر، وكان الباعث على الجهاد تحت الراية المحمدية أقوى من أي عاطفة أو رغبة من أمور الدنيا، وبقوله تعالى: ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أبو بكر الصديق، إذ همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، إذ قال عبد الرحمن لأبيه: منعني من قتلك عاطفة الأبوة، فقال أبو بكر: لو تمكنت منك لما نجوت مني.

وبقوله جل ذكره: ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ.

أما قوله سبحانه: ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فالمعنيُّ عمر؛ قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم أجمعين، قتلوا عتبة وشيبة، والوليد بن عتبة في تلك الواقعة المباركة يومذاك، كما ذكر الحافظ ابن كثير.

وهكذا تكون الآية واضحة الدلالة في تزكية ما صنع أولئك الصحابة عليهم الرضوان وتقعيد هذه القاعدة العظيمة التي حدّدت ضوابط العلاقة بين المؤمنين والكفار في حالة الحرب والمواجهة.

وهذا لا يتنافى مع وضع الأمور مواضعها في حالة السلم أخلاقاً وحسن تعامل، ومصاحبة بالمعروف مع شدة الحرص على أن يكون هؤلاء من المؤمنين.

ومهما يكن من أمر: فإن العمل على أن تتسم الرؤية عند من يرشحون لحمل العبء بفهم ووعي وأمانة، وقدرة على توجيه الطاقات الفاعلة، وجهة البناء والنماء: بالوضوح المرموق: مطلب أصيل تدعو الضرورة إلى تحقيقه، كيما يكون أبناء المجتمع المسلم على الجادة في الاندفاع إلى العمل الإيجابي المثمر، يتجاوزون ما يلقى على طريقهم من الفكر الوافد المضاد، والصورةِ المشوهة المفتراة على الإسلام في موقفه من بناء الإنسان والحياة، وعلاقةِ الإنسان بالكون والحياة التي جعلها الإسلام علاقة تثمر الحفاظ على إنسانية الإنسان في ظل حضارة تقوم على الأسس السليمة التي تشرق بها الرسالة الخاتمة الموحى بها إلى صفوة الله من خلقه وخيرته من رسله معلم الناس الخير محمد بن عبد الله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المجاهدين الصابرين الذين كانوا على خير ما يكون من الوضوح في الرؤية، وما ينبغي لتحقيق الغايات الكبار من إعداد صحيح للقوة في شتى منابعها وميادينها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.



مع سورة الأنعام التحضير المبكر للبناء والأولويات

« ١ »

أشرنا غير مرة إلى أن تزويد الجيل المعدّ للبناء، بالقدر الكافي من المعرفة بالإسلام ومنهجه في بناء الإنسان والحياة، مع مراعاة السلوك والعمل على تطويعه لمقتضيات العقيدة: كل أولئك من الأوليات التي يجب أن تأخذ حجمها الحقيقي في الثقافة التي تنشىء التصور وتحوُّله إلى سلوك عند الممارسة والتطبيق.

وبذلك تكون العاطفة الإسلامية عند الشباب وقوداً متجدداً لهذا التطوير الثقافي والتربوي.

ولقد يكون من المفيد حقاً أن نُعين شبابنا وفتياتنا ـ وهم يتطلعون إلى بناء مجتمع يزينه التكامل في بناه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها ولا يشكون من عوامل التمزق والضعف، كالذي يصيب المجتمعات المنقطعة عن هداية الله ـ .. لقد يكون من المفيد حقاً أن نحسن خطابهم ونُعينهم على إدراك أن الرسالة الخاتمة ـ وهي رسالة بناء يشمل ميادين الحياة بأكملها، وإنماءٍ لفاعلية الخير والعطاء في المجتمع: قد كانت نظرتها مبكرة إلى الكشف عن مواطن الضعف وأسبابه في المجتمع الجاهلي ـ بشكل عام ـ وفي الجزيرة العربية بخاصة، وذلك، ببيان شاف مؤيد بالدليل الواقعي. وكان ذلك بمثابة تمهيد لبناء مجتمع تحكمه شريعة الله، وتزينه العافية من تلك الأمراض المهلكة، كعبادة الأوثان والتقليد الأعمى للآباء والأجداد ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ناهيك عن العادات والأعراف الجاهلية الرعناء التي كانت تضيع معها في كثير من الأحيان، جملة من الأخلاق الكريمة التي كانت كالجزيرة المضيئة في بحر الظلمات، وتُهدر

بسببها كثير من طاقات الفرد والجماعة، أو توضع في غير موضعها على حال تكون في خدمة الجاهلية ونظراتها التي تتنافى مع الحق، بل ومع إنسانية الإنسان في كثير من الأحيان.

وشواهد ذلك كثيرة وفيرة فيما نزل من القرآن الكريم، خصوصاً في العهد المكي. ومن ذلك ما نقع عليه في سورة الأنعام المكية ـ على سبيل المثال ـ وهي من السبع الطُّوَال في كتاب الله من آيات تشعر بخطين متلازمين.

أولهما ـ ذلك الخط المتعلق ببناء الإنسان الذي ينأى عن حمأة التخلف الجاهلي بفوضاه وخضوعه للهوى والشيطان.

ثانيهما ـ الخط المتعلق بالتحضير لبناء مجتمع يُشرق في جنباته ـ بإطلاق ـ نور شريعة الله يوم يأذن الله بذلك، ويسلم المجتمعُ قياده لدعوة الإسلام التي يحمل لواءها النبي الأمين محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد حصل هذا بعد الهجرة ـ والحمد لله ـ حيث أنشئ المجتمع الأنموذج الجديد، بواقع أنموذج جديد على طريق البشرية في كل زمان ومكان، وحسبك أنهما مجتمعُ وواقعُ المهاجرين والأنصار. والخصائصُ الفريدة المميزة لهذا الأمر الجلل: لا تخفى على ذي بصيرة، وليس هذا موضع بسطها، وهي متوافرة في مظانها لمن أراد.

وسبحان من اختار للرسالة الخاتمة ـ وهو أعلم حيث يجعل رسالته ـ سيد العالمين محمداً صلوات الله وسلامه عليه، واختار لحملها عنه إلى الناس: أولئك الجنود الأمناء وهم أصحابه الكرام مهاجرين وأنصاراً، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ففتح بهم مغاليق الحياة، وحطَّم الأوثان من داخل النفوس ومن خارجها.

وأكرم بجندٍ قائدهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، قاموا بمهمة التحويل من الجاهلية إلى الإسلام، ويا لها من مهمة مذكورة مشكورة أضاءت لبني الإنسان طريقهم إلى يوم الدين، ولكن كثيراً من الناس لا يفقهون. أجل لا يفقهون، لأنهم يولُّون ظهورهم للدليل القاطع والبرهان الساطع، وليس أقلَّ ذلك ما كان لتلك

النقلة من الجاهلية الجهلاء إلى الإسلام من آثار إيجابية بناءة عبر تاريخ الحضارات الطويل؛ لما أنها مع النقفة الكاملة لما كان من نثارت خير في الجاهلية أنشأت ــ فيما أنشأت ــ حضارة الإسلام المثلى التي شهدت وتشهد بأحقية هذا الدين الذي ارتضاه لعباده رب العالمين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

وفي عود على بدء، بعد هذه اللمحة التي لم يكن بد من الاستطراد إليها: ها نحن أولاء نقرأ في تلك السورة المباركة سورة الأنعام، بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المائة قول الله جل ذكره في شأن سمات المجتمع الجاهلي التي يكشف عنها ما كان يفعله الجاهليون: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

هكذا ترى أن الغُربة المؤقتة التي كانت تعاني منها دعوة الإسلام في مكة في العهد المكي، ومحاولة الفتنة عن الدين، والابتلاء الذي كان يطارد الفئة القليلة المؤمنة، ويُحكم عليها الحصار بأساليب غاية في السقوط: تجاوزت إلى إيذاء الرسول الكريم نفسه فداه أبي وأمي عليه الصلاة والسلام..

كل أولئك لم يكن بكل ما فيه ــ كما شاء الله تعالى وهو الحكيم الخبير ــ حائلاً دون الكشف بأسلوب غاية في الوضوح والإحاطة عن مساوىء المجتمع الجاهلي، وعناصر الضعف والتخلخل فيه، والأسباب المباشرة، والأسباب غير المباشرة لذلك؛ الأمر الذي يشعر بأحقية دين الإسلام أولاً، وبصدق محمد ﷺ في أنه رسول من عند الله، يُوحَى إليه بهذا القرآن بلسان عربي مبين.

كما يشعر ثانياً بحكمة الحكيم سبحانه بالتحضير والإعداد للمجتمع المعافى من تلك الأوضار التي تشير إليها الآيات، وبهذه المعافاة يكون المجتمعَ الأمثل المنتج على دروب الخير، الذي يأتي نتيجة طبيعية لما تحدثه عقيدة التوحيد بأبعادها الشاملة ــ في النفوس ــ من تحويل على صعيدي الفرد والجماعة، حيث يصبح الفرد لبنة صالحة فاعلة في مجتمع إيماني لا تعوزه مقومات السلامة والإحكام، قادرٍ على أن يبدأ مسيرة حضارة جديدة مبرأة من تلك العيوب التي تئن منها الحضارات المادية من مختلف الأزمنة والأمكنة. وواقعنا اليوم مع حضارة القوة الطاغية.



البنية الثقافية والسلوك وسورة الأنعام

«٢»

سبقت الإشارة من قريب إلى ما يجب أن يعان عليه شبابنا وفتياتنا على صعيدي الثقافة وتطويع السلوك للمعرفة: من إدراك واعٍ وشامل منهج الإسلام في بناء الإنسان والحياة.. وأن التحضير لبناء مجتمع متماسك الأركان تقوم قواعده على محور إيمان قوامه الإنسان المؤمن المتفتح العقل المنوّر القلب، بدءاً من التنديد بمساوىء المجتمع الجاهلي: قد وقع في العهد المكي مصاحباً لبناء الإنسان على عقيدة التوحيد والتسامي عن كل ما هو من أوضار الجاهلية بسبب؛ الأمر الذي يجعل منه تلك الطاقة القادرة ـ بإذن الله ـ على إنشاء البنية الحضارية السليمة.

وعلى هدي هذه المقولة سعدنا بواحد من الشواهد القرآنية في سورة مكية هي سورة الأنعام. ذلكم قول الله تبارك وتعالى:﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

وأنت واجد أن هذه الآيات تشير إلى عدد من المساوىء التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي فيما يتصل بالزرع والأنعام وألوان من المطاعم المتعلقة بها، والتفريق بين الرجل والمرأة ببعضها، بالإضافة إلى تلك الظاهرة القبيحة أشد القبح التي كانت عند عدد من القبائل وهي قتل الأولاد من الإملاق أو خشية الإملاق على زعم من يفعل ذلك، ناهيك عن وأد البنات خشية العار إذا كبرن ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨]. ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨-٩]. كل هذا في تحليل وتحريم لم يأذن به الله، وهو محض افتراء عليه سبحانه.

والحق أن ما ذُكر في هذه الآيات من أمور الجاهلية وأعرافها: ذو دلالة واضحة على التقليد الأعمى دون تبصُّر، وعلى انحسار العقل عن أن يكون له دخل في الحكم أو تحديد المواقف..

ودلالة ذلك ــ كما يلاحظ ــ على أن كابوس الوثنية والخرافة قد أرهق الفرد والجماعة وعطَّل الكثير من الطاقات، وأسلم المجتمع إلى التمزق والضياع: واضحة كل الوضوح.

وإلى أن نلتقي على نظرات في الآيات الكريمات وعطاء المعلم القرآني فيها: لعل من الخير أن ننظر إلى ما ختمت به كل آية منها لأن الخواتيم مرتبطة أيما ارتباط بالمضامين!.

ها نحن أولاء نرى ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ونعود إلى الآية الأخيرة لنرى الحكم عليهم بالسفه والافتراء والبعد عن طريق الهداية ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

وأنت ترى أن ذلك يحمل ما يحمل من توجيه الفئة المؤمنة إلى شيء من سمات المجتمع المسلم كيف يجب أن يكون..

والتذكير بذلك منذ العهد المكي: درس للأمة في كل عصر وفي كل جيل: أن تكون على المورد الأصيل أخذاً قوياً بالمنهج الرباني في بناء الفرد والجماعة، وإنشاء المجتمع الأمثل المبرأ من الأمراض التي تشل حركته على طريق العطاء المجدي، وتعوقه عن النماء المثمر الخيِّر، والحمد لله على نعمة الإسلام!!.



سورة الأنعام وإحكام البناء..
بين يدي المجتمع الأمثل صاحب الرسالة
« ٣ »

في عود على بدء: نحن على موعد مع بعض من آي سورة الأنعام المكية، نسعد باصطحابها، لنضع أيدينا على تلكم المآخذ التي ندد بها القرآن الكريم، والتي هي من صنع الجاهلية الجهلاء والغواية العمياء؛ تحليلاً وتحريماً على ساحة الأنعام والحرث، لم يأذن بهما الله سبحانه، مضافاً إلى ذلك موقف شائك من المرأة عموماً، ومن الأزواج في حكم بعض الأطعمة بشكل خاص..

ناهيك عن ظاهرة قتل الأولاد من قبل آبائهم سفهاً بغير علم ـ والعياذ بالله ـ علماً بأن تعبير ـ بغير علم ـ لا يعني أن هنالك قتلاً يكون سفهاً بِعلم، فليس للعبارة مفهوم مخالف، ولكنه تقرير واقع؛ فهم يقتلون الأولاد سفهاً بجهل وجاهلية.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿...لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً...﴾ فليس المراد أن ما لم يكن أضعافاً مضاعفة فهو حلال، ولكن المراد تصوير الواقع وهم أنهم كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة في الجاهلية فنُهي المسلمون نهياً قاطعاً عن ذلك.

وقد تأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾.

وبعد: فالتنديد المبكر بهذه المساوىء التي كانت عنوان البعد عن هداية الله، والتي أضعفت كيان الفرد والجماعة، وقعدت بالمجتمع عن أن يكون مجتمع خيرية ومساواة وعطاء على الوجه الذي ينبغي..

أجل: التنديد بهذه المساوىء تحت سمع الدنيا وبصرها بآيات قرآنية تنزلت بلسان عربي مبين، بدءاً من العهد المكي، والشدةُ الشادة تحيط بالفئة القليلة المؤمنة، حيث الفتنةُ عن الدين، وإيقاع صنوف الأذى في النفس والمال والولد وموطن الولادة والنشأة والعيش: يشعر ــ كما أسلفنا ــ بالتمهيد لبناء المجتمع المسلم المعافى من تلكم الأمراض والترهات، الأمر الذي يشي بأن هذا التمهيد ــ الذي هو بمثابة التحضير لإنشاء المجتمع المنشود الذي يليق بإنسانية الإنسان وطاقاته وخلافته في الأرض ــ: يبلغ من الأهمية ما يجعله مصاحباً للبناء المراد للإنسان، على العقيدة التي هي من الفطرة وإليها والذي كان المحور في آيات الكتاب الكريم يومذاك، والشغلَ الشاغل لرسول الله ﷺ وصحبه المؤمنين الأخيار؛ إذ التخلية قبل التحلية كما يقول علماء السلوك.

والآيات الكريمات التي هي مدار هذه الإشارة العجلى هي قول الله تباركت أسماؤه في السورة المذكورة بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المائة: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ الآيات.

وغير خاف أن الآية تحمل الذم والتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، فجعلوا لله شركاء وأنداداً من خلقه أو مما صنعته أيديهم، وهو سبحانه خالق كل شيء، وهو الذي يجب أن يدعى ويستعان، وينصاع العباد لأحكامه ــ جل شأنه ــ فيهم.

وعمل هؤلاء المشركين الذي قرّرت وجوده الآية الكريمة فيهم، وندّدت به شديد التنديد: أثر من آثار ذلك الضلال المبين حيث يشرعون ما لم يأذن به الله، فيحلّلون ويحرمون حسب أهوائهم وتقليدهم الأعمى للآباء والأجداد دونما تعقل أو تبصُّر!!.

وما من ريب في أن هذا الصنيع الذي كان يحظى برضى المجتمع عنه، يوحي بما كانوا عليه من التشتت والضياع في التصور والعمل المتلائم مع هذا التصور.

وانعكاس ذلك على بنية هذا المجتمع التي تتمثل بالتفريق بين فئة من الناس وفئة، وسير التحليل والتحريم على مركب من المصطلحات الفارغة من الحق، ولونٍ من ألوان الاستهانة بالمرأة والأزواج.. إلى غير ذلك.. هذا الانعكاس لا يخفى على ذي النظرة المتكاملة للأمور!!.

إن هذا الصنيع ظلمة من ظلمات تلك الحقبة الجاهلية، وما تنزل به القرآن تعريةً للباطل وبياناً للحق وكيف يكون الطريق إليه: هو النور الذي أزاح الظلمات والحمد لله.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ جعلوا لله مما خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام نصيباً ـ جزءاً وقسماً ـ؛ فشيءٌ لله بزعمهم، وشيء لشركائهم من الأوثان.

وقد جاءت الآية على هذا الزعم الباطل المبني على تصور في غاية الفساد، فقال جل شأنه: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

ولننظر ماذا سيكون من بعد!! إن ما يجعلونه من القَسم لشركائهم لا يصل إلى الله، أما ما كان لله: فهو يصل إلى شركائهم، وأنت لا تدري أهي حقيقة بزعمهم أم فرضية؟!!.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أيٌّ استخفاف بالعقول هذا، وأي سخرية من الإنسان هذه؟ لذا ختمت الآية بالتنبيه على سوء حكمهم هذا، فقال سبحانه: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إن ظاهرة العبث هذه، والتلاعبَ بأمر لصيق بالقضية اليقينية الكبرى وهي قضية الاعتقاد بوجود الله تباركت أسماؤه على صعيد الممارسة، وإلقاءَ الأحكام المفتراة جزافاً من هنا وهناك دونما وازع أو رادع: يقصي الإنسان عن ممارسة الحياة بحضور فكري وإرادي على الوجه الذي ينبغي، ويضعه الموضع غير الملائم، له بوصفه إنساناً له عقله وفطرته وأهليته وتطلعاته، ناهيك عن قلبه ونفسه ومشاعره.

وليس هذا فحسب: ولكنه أيضاً يعرض المجتمع لألوان من عدم الاستقرار، والضياع!!.

والكشفُ عما يحمل الصنيع الجاهلي من الأذى بنوعيه الظاهر والمبطَّن، وأن ذلك يرتدُّ إلى سوء حكم الجاهلية، وإظهارُ عواره في تلك الحقبة من عمر الدعوة المبكر: إيذاناً ــ كما أسلفت غير مرة ــ بأن على الفئة المؤمنة ــ على اختلاف الأزمنة والأمكنة ــ أن تحرص على إعداد العدة لبناء المجتمع الذي لا ترهق بُناه هذه الشوائبُ وأمثالها مما تطلقه الجاهليات الحديثة؛ لأن العقيدة التي شرفهم الله بحملها، ما بدٌّ من أن تكون منطلق التحويل إلى المجتمع الفاضل القوي في لبناته وبُناه، المجتمع الذي يعتدُّ أبداً بما للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» من حقوق، ويلبي حاجات الفرد والجماعة بمنأىً عن كل ما يسيء إلى الاستقامة والتعاون على البر والتقوى والخلق الكريم.

وعطاء المعالم القرآنية ــ ومنها هذا الأنموذج من بسط ألوان الداء، ومقومات الدواء: أمانة في أعناق ذوي الكلمة المسموعة من المسلمين، والأمة على وجه العموم: أن يكون هذا العطاء موضع الاهتمام البالغ والانتفاع في ظروف حديثة تذكرنا بقول القائل:

«ما أشبه الليلة بالبارحة»

أجل: ومطلوب أداء هذه الأمانة وإن اختلفت المظاهر حسب القشرة الخارجية!! ولله الأمر من قبل ومن بعد.



سورة الأنعام أوضار الجاهلية.. والتغيير

« ٤ »

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول ـ ونحن نصطحب الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام: على بعض من المساوىء التي جاءت ـ كما دلَّ البيان القرآني المعجز ـ نتيجة لصنيع أهل الباطل من اتخاذهم شركاء لله عز وجل، حيث كانوا على درجة من الاستهتار حملتهم على أن يجعلوا لله مما خلق وبرأ من الزروع والثمار والأنعام نصيباً، يقابله نصيب لشركائهم من الأوثان، ورتبوا نتائج غايةً في التفاهة على هذا التقسيم، هكذا قالوا ـ كما أخبر القرآن ـ: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا ومن هم شركاؤهم الذين يظفرون بهذا النصيب؟ إنهم الأوثان التي صنعوها بأيديهم؛ فهي لا تنطق ولا تسمع ولا تعقل، وراحوا يعبدونها من دون الله.. ويبلغ بهم العبث والبعد عن تحكيم العقل السليم ـ وهذا من أوضح سمات الجاهلية ـ أن يقرروا كما زين لهم الهوى أمراً غاية في الغرابة مدعاة للعجب وهو من النتائج التي ترتبت على التقسيم المزري: أنه ما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم.

وحكم الله على صنيعهم هذا في الفكر والعمل ـ وهو خير الحاكمين ـ بأنه سوء، فقال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إنها للظاهرة التي تدل على إهمال العقل والسير وراء الخرافة، وذلك من عناصر الهدم للمجتمع وتعطيل طاقات الفرد والجماعة.

والآية الكريمة التي سعدنا بصحبتها في هذه الرحلة المباركة ـ كما سبق ـ هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أرأيت إلى هذا الدرس العظيم فيما يلزم للحكم في أمر من الأمور من التعقل والتدبر والاحتكام إلى الحق بعيداً عن الوقوع في شرك الهوى والغفلة؟!.

ولنستمع إلى ما قاله حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية كما نقل ذلك عنه علي بن أبي طلحة والعوفي: يقول: (إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا منه لله جزءاً، وللوثن جزءاً؛ فما كان من حرثٍ أو ثمرةٍ أو شيءٍ من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردُّوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئاً جعلوه لله: جعلوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوها لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير ولم يردُّوه إلى ما جعلوه لله.

وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله، فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن. وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآية).

ومعلوم أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من الأنعام لكل منها صفات خاصة تميزت بها وسموها بهذا الاسم من أجلها.

والذي قاله عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد. رواه الطبري في «جامع البيان» وأورده ابن كثير في تفسيره.

وأثر الشرك فيما يصنعون، حيث العدوان على العقل والتقليدُ الأعمى، ناهيك عن التناقض مع دعوى الإيمان بالله وأنه الخالق البارىء.. هذا الأثر، تطالعنا المصادر أنه جاء أيضاً في صورة أخرى وراء الذي رأيناه آنفاً، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية التي نحن بصددها: (كل شيء يجعلونه من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله عليه، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾رواه الطبري وغيره.

أجل: ألا ساء ما يقسمون ويتأولون نتيجة شركهم وضلالهم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي ساء ما يقسمون فإنهم أخطأوا أولاً القسم لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا ـ فيما زعموا ـ القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله جل وعلا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾[النجم: ٢١-٢٢].

لقد جاء هذا التنديد بعوامل الهدم في المجتمع ومظاهر الاستهتار بالإنسان: ليكون مع التقويم، عنواناً حضارياً أمثل، وسيظل عنوان الحرص في الرسالة الخاتمة على بناء الإنسان ومن ورائه المجتمع، بناءً يسلم إلى القدرة على العطاء، وأن يكون الإنسان بحق ذلك المخلوق الذي كرمه الله وسخَّر له من كونه ما سخَّر، يعيش في مجتمع تقوم قواعده على الخير والهدى، في تكامل يتسع لميادين الحياة كافة دون وكس ولا شطط والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



سورة الأنعام.. وعقابيل الجاهلية
البناء على طريق التغيير إلى الأقوم
« ٥ »

مع الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام كانت لنا رحلة قصيرة وقفنا المعلم القرآني من خلالها على لون من ألوان الضعف في المجتمع الجاهلي تصوراً وسلوكاً، يبرزه ما كان من عمل المشركين في أنهم جعلوا لله تعالى ـ وهو الخالق المنعم الذي له ملك السماوات والأرض والكل تحت مشيئته وقدرته ـ جعلوا له مما خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً؛ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، ويعنون بالشركاء الأوثان التي يعبدون؛ فما كان لتلك الأوثان: فهو مصون محفوظ، وإن سقط منه شيء فيما سموه للصَّمد: ردّوه إليها وما كان لله فالحيلة قائمة لردّه إلى الوثن، حتى لو اختلط منه شيء بالذي جعلوه ـ كما شاء لهم هواهم ـ للوثن: تركوه له ولم يردُّوه إلى ما جعلوه لله.

إنه لضلال في القَسْم؛ لأن الله ربُّ كل شيء ومليكه، والخلق كلهم تحت تصرفه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وضلال فيما زعموا من القسمة الفاسدة؛ إذ لم يحفظوها، بل جاروا ووقعوا في التناقض.

وهكذا ضلُّوا مرتين على صعيدي التصوُّر والسلوك كليهما؛ مرة بإقدامهم على التقسيم من حيث هو، ومرة فيما رافق التقسيم بين الله والشركاء المزعومين من الجور في القسمة نصفين والتلاعب فيما بعد.

والآية الكريمة المشار إليها هي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ﴾ الآية.

تلكم هي الجاهلية الأولى ـ وما أكثر ما تتكرر شؤونها وأوضارها، ولكن حسب المصطلحات المفتراة ومسالك التطور في الفكر الجاهلي ـ فيما تَنزل بالفرد والجماعة إلى هذا المستوى من التفكير الذي ينعكس تلقائياً على التصرفات والسلوك، حيث الإعراض الصارخ عما قام عليه الدليل الواضح، ونطقت به الحجة الساطعة، الأمر الذي يجعل المجتمع نهباً للمقاييس المهزوزة البلهاء التي تسلك بهذا المجتمع وأبنائه الذين ينشَّؤون في هذه العماية الطاغية: سبيل التآكل والضياع، ويفوِّت ما يفوِّت من الفرص التي لو ملىء الوقت فيها بالنافع المجدي لاستقامت الأمور، وسارت بُنى المجتمع على طريق القوة والإحكام.

وإلا فأية قاعدة يرضى عنها العقل السليم، تلك التي يرتد إليها هذا الذي اقترفوه من جعلهم لله مما خلق بقدرته وأنعم بفضله، نصيباً أشركوا أوثانهم فيه؟!

إنه الزعم الباطل وكفى! ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

ثم ما هي الحقيقة التي استندوا إليها عند توزيع الأنصباء ـ على زعمهم أيضاً ـ؟ فكان الجور الذي بدا عنواناً آخر مؤكداً جاهلية التقدير عندهم والتدبير، سواء أكان ذلك في القسم، أم كان في الحكم، وهو ما كشفت عنه الكلمة الهادية في ختام الآية المذكورة ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وانظر إلى الوجه الآخر من عطاء التعبير القرآني المعجز في ختام الآية ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾!!.

فلئن كان الوجه الأول حكماً على صنيع المشركين وما اقترفوه في هذا الباب بالسوء في القسْم والحكم: إن طريق المؤمنين أبداً ـ وفي مقدمتهم من عاشوا تنزل آيات الله البينات ـ يصارعون الباطل والخرافة والتناقض المزري، ويعملون على اقتلاع المساوىء الضارة بالأفراد والمجتمع من الجذور...

إنه إعلان كريم عن واحد من مقومات البناء الحضاري السليم الذي يأخذ الإنسان ــ ذكراً كان أو أنثى ــ دوره المتميز المنتج فيه، وفق سنن الله في خلق الإنسان وتكوينه وما أودعت القدرة الإلهية فيه من أهلية قادرة على الانتفاع بالتسخير الذي منَّ الله به عليه..

كما يكون المجتمع فيه على اليابسة في بناه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

فعقيدة التوحيد التي يضيء بنورها العقل والقلب، وتطوّع الجوارح لأداء حقها كاملاً غير منقوص: هي الضمان للفرد أن يكون على الجادة في عدم العدول عن مقتضيات الفطرة، وفي استخدام العقل في ميدانه الطبيعي، والدوران مع الحق ــ أبداً ــ حيث دار.

كما أنها الضمان للمجتمع حين يسلمها قياده على الوجه الصحيح: في أن يقوم بناؤه على أفضل الأسس وأحكمها، الأمر الذي يؤهله للنماء الذي يتوخاه أهل الاستقامة المخلصون الذين تؤرقهم هموم الأمة: في كل مجال وميدان، دونما جهل بالواقع أو تجاهله وما يطرأ من مؤثرات وتحديات، لا بد من مواجهتها، واتخاذ السبل الحكيمة النافعة في التعامل معها.

وإن ما كشف عنه القرآن في صنيع من أزرت بهم الوثنية، وعبثت بعقولهم، فهجروا الفطرة أن يكون لها وجود في تصرفاتهم، وراحوا يعطلون عقولهم أن تعمل عملها فيما يقدمون عليه من أحكام: فاهتزت القيم، واضطربت المعايير، وراحت الطاقات تضرب في أرض الخرافة والتقليد الأعمى، ناهيك عن مصائب عدم الوضوح في الرؤية!! كل أولئك أمور ليس وراءها إلا الهدم والفوضى.

وأين هذا وأمثاله من مسلك التواؤم الصادق الواعي، مع الإيمان الذي نشير إليه، والذي يعطي في نور عقيدة التوحيد ما يعطي من عظيم النتائج وأطيب الثمرات؟!.

وما أجمل أن يكون للعبرة التي أفاد منها المسلمون الأولون ــ وهم يحررون الإنسان رجلاً كان أو امرأة ــ من قيود الجاهلية، وسجن الأهواء الضالة، والمعايير المضطربة المهترئة، وما يصحب ذلك من بروز معالم الهدم والتخريب..

ما أجمل أن يكون لهذه العبرة اليوم ــ عملاً بقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. مكانها اللائق في مناهج التزكية والتربية والإعداد، كيما يتوافر للفرد والجماعة على صعيدي البناء المثمر والإعداد المتكامل؛ ما تقتضيه هذه العملية الكبرى في عمقها واتساع مجالاتها ــ في النفس الإنسانية وخارجها ــ من وعي شمولي، ووضوح في الرؤية ــ ضمن المساواة وتكافؤ الفرص والتمكن من الأخذ بالأسباب، كما تقتضيه السنن الإلهية ــ تلك الأسباب التي تنتج بإذن الله فرص التمكين في الأرض الذي يتيح أن يكون للدعوة الإلهية سلطانها المنجي من الهلكة، وأن تكون كلمة الله هي العليا على صعيد العقيدة والشريعة والأخلاق ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].



مع سورة النحل الدلالة القرآنية على مواطن الضعف من أجل التحول إلى الأفضل

ما كنا بصدده في صفحات قريبات ونحن نصطحب الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة «الأنعام» المكية في شأن مسلك المشركين المجافي للفطرة والعقل، والذي كان من بعض دلائله كونُهم جعلوا لله مما ذرأ من الأنعام والحرث نصيباً يقابله نصيب لشركائهم، مصحوباً هذا التصرف الجاهليٌ بجور في القسمة فيما بعد.. هذا الذي كنا بصدده يذكرنا بما يقرره ويؤكده بإشارة إجمالية في سورة «النحل» المكية أيضاً، حيث التنديد يضع أهل الجاهلية في هذا الباب والوعيد الشديد بالمساءلة يوم الحساب.

ذلكم قول الله جل ذكره في السورة المشار إليها: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

من هنا اعتبر الحافظ ابن كثير أن ما جاء هنا في سورة «النحل» نقع على تفصيله في سورة «الأنعام» قال رحمه الله: (يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضّلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ولعل من الخير أن نورد آية سورة «الأنعام» مرة أخرى بنصّها كيما تتضح المعالم أكثر وأكثر في هذا الجانب الكريم من الهدي القرآني، وتستبين العلاقة الحميمة بين هذه الآية وما هي من نظائرها في سورة «النحل» وهي الآية الآنفة الذكر.

يقول تعالى:﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

وليس من مكرور القول التذكير بما سبق أن قلناه من أن القرآن الكريم هنا يكشف للمؤمنين عامة، ولأولئك الذين كانوا يمهّدون بسلوكهم الأمثل بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، للمجتمع المبرأ من عقابيل الجاهلية وأعرافها ذاتِ الانتماء ــ في كثير من الأحيان ــ إلى الوثنية العمياء والمفاخرة بما كان عليه الآباء والأجداد.. يكشف لهم ــ وهم أصحاب الرسالة الخاتمة التي تبنى في نور هذه الرسالة. الإنسان والحياة فتحسن البناء ــ يكشف لهم عن أن أولئك المشركين الذين اكتووا بنار الوثنية، قد أخطأوا وجنحوا عن طريق الهدى مرتين: مرة في القسْم، لأن الله تعالى هو الخالق الرازق، وهو رب كل شيء ومليكه، ومرةً حين جاروا في تلك القسمة المزعومة فجعلوا الأفضلية دائماً لشركائهم الأوثان.

والحق أن هذا الجور في القسمة التي زعموها ورتبوا النتائج عليها خضوعاً للهوى وتسويلات النفس والشيطان كما أشارت الآية الكريمة: له نظائر متعددة في المعتقد والسلوك عندهم.. وهي قضية كانت لها انعكاساتها على الفرد والأسرة والمجتمع جميعاً.

ها هم يزعمون أن الملائكة عليهم السلام بنات الله؛ ومن علِم اليقين وحقِّ اليقين أن الله تباركت أسماؤه وصفاته، هو ــ سبحانه ــ الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. والملائكة خلق من خلقه، عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

ذلكم قـوله جَلَّ ذكـره في سـورة «الـنحل»: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

هكذا يقسـمون كما يشـاؤون وتشـاء لهم أهواؤهم، كما قال جل شـأنه في سورة «الطور»: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ وفي سورة «النجم» نقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

وإنما زعم هؤلاء ذلك ــ وكم تفعل الجاهلية في ظل انحسار العقل وجفوة الفطرة من أفاعيل ــ لأن لهم موقفاً جائراً من المرأة، لا يتسق مع إنسانيتها وكرامتها؛ ولذلك رد الله عليهم فريتهم، وسفَّه رأيهم، وكشف ــ مستثيراً العقل للمناقشة والحكم ــ عن تناقض القسمة التي زعموا عندما جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن الذي يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور... عندما جعلوهم إناثاً، ثم نسبوهم إليه.. تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ففي سورة «النحل» بعد أن عرضت الآية السابعة والخمسون لتلك القضية الآثمة المفتراة بقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾: جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

هكذا يزعمون الإيمان بالله وأنه الخالق البارئ، ثم ينسبون إليه الملائكة ولادةً وهم إناث على زعمهم!! فأين العدالة في هذه القسمة الفاسدة مع الموقف الهابط من الأنثى؛ لأنها قد تعرِّض القبيلة للعار ــ كما يتخيَّلون ــ وليس لها تلك القوة التي هي للذكور في الذود عن القبيلة وحماية الذمار، ومقارعة الأعداء! فالأنثى شيء، والذكر شيء آخر، ومع ذلك على نهجهم الهابط، لم يكتفوا بادعاء أن الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، له نسلٌ، بل هذا النسل أيضاً من درجة هابطة ــ على زعمهم ــ وهم الإناث، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن ما جرى عليه المنهج الرباني في الدلالة على مواطن الأذى في التفكير والسلوك، حيث يقع المجتمع تحت سلطان الجاهلية ويتلظى بنارها: يحمل القدر الوافر من إعداد الفئة المؤمنة التي كانت تعاني ما تعاني في العهد المكي: لتحمُّل العبء في بناء المجتمع

البديل عن المجتمع الجاهلي، المجتمع الذي يتنزه المنتمون إليه أفراداً وأسراً عن هذا الاضطراب في التفكير، والتناقض في ترتيب الأولويات، ويرتفعون عن ذاك السلوك الذي ليس من كرامة الإنسان، ولا من العقل السليم في شيء.

وطابع الاستمرارية في عطاء هذا المنهج المبارك الذي تضيء في أرجائه معالم الكتاب العزيز: يوجب الاستمساكَ به والعمل على صياغة الإنسان والمجتمع على هديه، بعيداً عن قيود الزمان والمكان، شأن كل قضية يطلب فيها التحويل عن الجاهلية أو ما هو منها بسبب ـ على اختلاف الأسماء والمصطلحات التي ما أنزل الله بها من سلطان ـ إلى الإسلام بمنهجه الرباني وهديه القويم.

وهذا لا يعني انحساراً عما تلقيه التجارب والمعاناة على طريق العاملين، والإفادة من كل ما وصل إليه العلم النافع من مراحل، بل العكس هو الصحيح، خصوصاً وأن الإسلام يقدر العلم قدره ويوليه ـ كما هو معلوم ـ الاهتمام المتميز، ويقدُر التجربة قدرها، ويدعو إلى الانتفاع حتى بتجارب الماضين وسيرهم دون وكس ولا شطط، كما نرى في القصص القرآني وقصص السنة النبوية المطهرة.

فما كان صواباً تبين من خلال النص أو الاعتبار: انتفعت به الأمة وسلكت سبيله، وما كان غير ذلك انتفعت بالبعد عنه وعن كل ما يمكن أن يكون من أسبابه ودواعيه، وسبحان من قال في كتابه المُحْكَم الآيات: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].



البناء.. وعوامل الهدم في المجتمع الجاهلي من سورتي الأنعام والصافات مؤشرات التغيير.. والدروس

« ١ »

يقتضينا إبراز الوحدة الموضوعية فيما جاء عن بعض عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي، في معالم الكتاب العزيز: أن نعود إلى المحور الذي هو محط الارتباط بين آيات سورتي الأنعام والصافات وغيرهما، وذلكم هو الكشف عن بعض من افتراءات المشركين، وجورهم في القسمة المزعومة بين الله الخالق البارئ سبحانه وبين شركائهم الأوثان، مضافاً إلى ذلك فرية تأنيث الملائكة، وأنهم بنات الله بزعمهم الباطل.

ففي الكلام عن عوامل الهدم المومى إليها وما يصحبها من الضياع والفوضى التي كان يئن المجتمع تحت وطأتها وهي جاثمة على صدره: جرت الإشارة إلى ما يجر ذلك من ويلات ليس أقلَّها إبعاد العقل ووسائل المعرفة عن ساحة التفكير السليم، وما لذلك من انعكاس على الممارسة والسلوك، الأمر الذي يأتي ضغثاً على إبَّالة.

وقد قادنا إلى الحديث عن ذلك: ما دلَّت عليه الآية السادسة والثلاثون بعد المائة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ﴾ الآية.

إذ دلت الكلمات الهاديات ــ كما سبق أن ذكرنا ــ على وقوع المشركين في لونين من ألوان الضلال والتناقض ناهيك عن الافتراء:

أولهما ــ جعلهم لله ــ وهو الخالق البارئ الرازق ــ جزءاً مما برأ من الزرع والثمار والأنعام، يشركه فيه ما يعبدون من أوثان هي شركاؤهم على حد تعبيرهم.

ثانيهما ــ جورهم في القسمة بعد هذا حيث يوجهون بأيلولة الحظ الأكبر إلى تلك الأوثان على حساب ما زعموا أنه لله سبحانه!!.

أما آيات سورة الصافَّات التي أشرنا إليها من أجل التذكير بالوحدة الموضوعية في صدر هذا الحديث: فهي ــ كما سبق ــ قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ الآيات.

والحق أن النظرة المتأنية في منحى الهداية الذي سلكته هذه الآيات لتجلية فرية المشركين في شأن الملائكة عليهم السلام والرد عليها: تُشعر بنوع من التسامي في النشدان المتبصر للحقيقة، والحوار المفعم بالتوثيق من خلال الواقع، والحكم العقلي السليم، أن لو كانت هنالك حرية الحركة للسليم من العقول!!.

الأمر الذي كان يراد ــ والله أعلم ــ للفئة المؤمنة التي تتلقى مطاعن الفتنة ومكاره الابتلاء أن تبلغه، وهي تصارع الشرك والخرافة وعقابيل الجاهلية، فيما ضربت على الإنسان والمجتمع بالأسداد.

فمن خلال الكشف عن سيئات المسار الذي يسلكه المشركون حين يفترون على الله، ثم على الحقيقة، ويقعون في التناقض المخزي وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وحين يكررون ذلك، بدعوى جعلهم نصيباً لله فيما ذرأ وبرأ من الحرث والزرع والأنعام، ثم جورهم في القسمة، إلى افترائهم المشين بجعل الملائكة إناثاً ــ بزعمهم ــ ثم الجور بجعلهم بنات لله على هذه الصورة التي تشكل وحدة الموضوع في تلكم الوقائع جميعاً...

من خلال الكشف عن هذا كله بهذا البيان الموجَّه المعجز الذي يؤدي إلى المراد بأوضح تعبير وأحكم طريقة: كان يحظى الإنسان المؤمن ــ ذكراً كان أو أنثى بوصفه واحداً من تلك الفئة القليلة المؤمنة الفريدة على وجه الأرض ــ بإعلان كلمة التوحيد والتضحية في سبيلها: وبقدر كبير من الإعداد لبناء إنسان المستقبل، ومن وراء ذلك، لبناء المجتمع الذي يكون فيه هذا الإنسان ــ ذكراً كان أو أنثى ــ لبنة قوية صالحة

تتشكل منها بُناه القوية المحكمة البناء، حيث تمتد إليه يد ذلك الإنسان الذي أسلم وجهه صادقاً لله، ورفض بإيمان وصبر وشجاعة على ساحات التصوُّر والفكر والعمل، كل أمر يتنافى مع العقيدة السليمة ومقتضياتها.

كما تمرد ــ بلا فتور ولا ملل أو سآمة ــ على تلكم الأوضاع والأعراف الجاهلية التي لم يجن منها الفرد والمجتمع إلا الصَّاب والعلقم، وإلا التخلف عن الركب الحضاري الذي يفترض أن يقوده الإنسان بإيمان ووعي، ليبني ما تهفو إليه البشرية من حضارة ذات هوية جديدة تختلف بإشراق بواعثها وأهدافها عن تلكم الحضارات القائمة يومذاك، وتقيم الوزن لكل ما هو من مرضاة الله، ونصرة الحق، والحفاظ على كرامة الإنسان وحريته بسبب: الأمر الذي يؤدي إلى الطمأنينة والراحة النفسية مع التمكين في الدنيا، والنجاة من غضب الله وعقابه، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

وما أحسبني بحاجة إلى الإلحاح على أن المؤتمنين على بناء الجيل المراد إعداده لبناء المجتمع، والإسهام في تجديد بناء الأمة، وتوجيه حركة الحياة وجهة النماء النافع المطَّرد: مطلوب منهم أن يعبِّدوا الطريق لهذا الجيل ــ ذكورهِ وإناثهِ ــ ويرتفعوا به إلى مستوى النهوض بالعبء ضمن الظروف المحيطة والأوضاع الإقليمية والعالمية، على الوجه الذي رسمته الهداية الربانية المتصلة بوحي السماء، وأن يكونوا على يقين لا يتزعزع بنصر الله لمن يسلكون سبيل النصر وفق سننه الحكيمة التي لا تتبدَّل، وهو سبحانه ولي هذا النصر والقادر عليه.



مؤشرات التغيير على طريق البناء ووقفة أخرى مع سورة الصافات

«٢»

أشرت فيما سلف من الحديث إلى بعض من عطاء المعلم القرآني في آيات من واحدة من السور المكية سورة «الصافات» وما كانت تحظى به الفئة المؤمنة من خلال تلكم الآيات وأمثالها، من زاد مبارك على طريق البناء الذي كانت تكتنفه ـ وهو يمثل صراع الحق مع الباطل في المجتمع ـ رواسب الجاهلية الغائصة في كثير من النفوس هنا وهناك..

إذ إن الكشف عن مسالك الهدم، وعوامل التخريب في كيان الإنسان والمجتمع ـ كما يبدو ذلك في آفاق القرآن الكريم ومعالمه ـ يحمل في طياته ما يحمل من توجيه للفئة المؤمنة ـ وهي تنصر كلمة التوحيد ـ إلى ما هو الصواب في التصور والعمل والسلوك، وإلى ما هو المعيار الحقيقي لسلامة الوجهة في بناء مجتمع تتوافر له سلامة القواعد والأسس، ولا تعوزه مقومات العطاء، وكل ما فيه القدرة الذاتية في شتى الميادين والمجالات، سواء في ذلك ما كان على صعيد التثقيف والإعداد، والتصور لرحلة البناء، وما كان على صعيد الاجتماع والسياسة والاقتصاد، وما إلى ذلك..

ولقد رأينا من قبل أنموذجاً من نماذج الهدم في المجتمع: كشفت عنه سورة «الأنعام» ولهذا النموذج الكثير من النظائر!!.

وليس بدعاً من القول أن نشير إلى أنه ليس من التكلف في شيء - والله أعلم -: أن نحكم على ما أفصحت عنه الآية السادسة والثلاثون بعد المائة من تلك السورة المكية المشار إليها، من جعل المشركين نصيباً لله فيما برأ وخلق، من زروع وثمار

وأنعام، ونصيباً لشركائهم، وما كان من العبث العابث عند تطبيق القسمة المزعومة على الشكل الذي أفصح عنه ما نقل العلماء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره...

أقول: ليس من التكلف في شيء ــ والله أعلم ــ أن نحكم على ذلك أنه من بعض الوجوه: عامل من عوامل التخلخل الاقتصادي في المجتمع، وفتح باب التحايل على الحق على مصراعيه؛ ناهيك عما يدل عليه من ضعف في التصوُّر، وإبعاد للعقل عن ساحة التفكير المجدي في مواجهة التقليد الأعمى للآباء والأجداد، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وما يحمله الانصياع لما تمليه الوثنية العمياء، والخرافة البلهاء!!.

وفي عود على بدء: تجدر الإشارة إلى أن الآيات التي ألمحنا إليها من سورة «الصافات»: هي قول الله تبارك وتعالى ــ بدءاً من الآية التاسعة والأربعين بعد المائة ــ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ومما يستوقف الناظر المتدبِّر على الوجه الذي ينبغي: ما تحمله الكلمات الهاديات من الكشف عن الزيف المتمثل في دعوى المشركين أن الملائكة إناثٌ وأنهم بنات الله.. بأنها دعوى مفتراة باطلة من كل الوجوه.

فبعد الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ جاءت مطالبتهم بالدليل، فقال جل شأنه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴿١٥٠﴾﴾.

كيف حكموا على الملائكة ــ الذين هم عباد الرحمن سبحانه ــ: أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم، وهي قضية تحتاج إلى معاينة، كما قال تعالى في سورة «الزخرف»: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أرأيت إلى هذا الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد؟!! ستكتب شهادتُهم بذلك ويُسألون عنه يوم القيامة، والويل لهم ثم الويل، حين يسألون ولا يملكون لنصرة باطلهم من نقير ولا قطمير!.

وبعد الإشارة إلى إفكهم وكذبهم الصارخ بنسبة الولد إلى الله: جاء الإنكار الشديد عليهم بقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾؛ فأي شيء يحمله جل شأنه ــ وهو القاهر فوق عباده ــ على هذا الاختيار ــ المزعوم؟!.

ثم يستثار العقل ليعمل عمله، فيقول تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أليس لكم عقول تفقهون بها وراء ما تقولون؟! إنكم تلقون الكلام جزافاً، وتُصدرون الأحكام على هذه الشاكلة وكأنكم بلا عقول، أتفعلون هذا فلا تذكَّرون. وإن كان لديكم دليل فأتوا به ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ وأنى لهم الدليل! إن قولهم هو الإفك المفترى، وليس شبهة فيما يدَّعون، ولكنه عنوان التخلف الفكري، والسير وراء الهوى والعبث الجاهلي العابث، ولو أدى ذلك إلى إهدار الطاقات، وضياع أهلية الإنسان في فكره وتصوره، وما لديه من قدرة على العطاء؛ الأمر الذي ينعكس على بنية المجتمع، ويخلِّف وراءه عنصراً مؤثراً من عناصر الهدم والتخريب.

ومما تجدر الإشارة المؤكدة إليه: أن هذا المحور الذي ينكر أشد الإنكار ما كان يحصل من السفه والادعاء الباطل وتوعُّد المشركين على ذلك: يدل أعظم الدلالة على ما أعطى المنهج الرباني من أهمية لتكوين المسلم على انتظام التفكير والقدرة على محاكمة الأمور في استخدام منهجي للعقل ووسائل المعرفة المتاحة، وسير وراء الدليل، وذلكم حجر الزاوية في بناء الإنسان المؤمن المؤهل لحمل العبء في رحلة البناء التي جاءت تطبيقاً عملياً للرسالة الخاتمة التي تنظم شؤون الدارين، صورةً عن الإفراج بهذه الرسالة من الظلمات إلى النور.

البناء.. ومؤشرات التغيير وعودة إلى سورة الأنعام

« ٣ »

كان خيراً على خير.. والرحلة مع الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة الأنعام، وهي المبدوءة بقول الله جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ الآية.. أن قادتنا هذه الآية الكريمة التي عرَّت موقف المشركين بجعلهم ـ كما يحلو لهم أن يجعلوا ـ لله نصيباً فيما برأ من الزروع والثمار والأنعام، ولشركائهم نصيباً، ثم جاروا في تلك القسمة الفاسدة.. أن قادتنا إلى نظائر في آيات مكيات آخر من سورة النحل والإسراء والصافات والزخرف والطور، تكشف عن واحدة من مساوىء الجاهلية في الحكم أيضاً، والقسمة الجائرة، وهي افتراؤهم بجعلهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن، إناثاً ثم زعمهم المخزي أن هؤلاء الملائكة الذين يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون عليهم السلام: بنات الله..

وكانت لنا وقفة شبه متأنية عند الذي جاء في سورة الصافات من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ الآيات.

وواضح أن هذه النقمة على المشركين فيما يصنعون بأيديهم من عوامل الهدم في المجتمع، وسلوك السبيل التي تبدد الطاقات، وتسيِّر الإمكانات في قنوات الضياع والتخلف.. واضح أن هذه النقمة تحمل في وجهها الآخر خطاً من خطوط البناء للإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ والتحضير لإنشاء واقع مستنير بنور التوحيد، مشرق بأحكام العقل السليم الذي يأخذ مكانه الطبيعي في فهم نصوص الوحي، وإدراك عطائها المعصوم من الزيغ وعوامل الهدم، واقعٍ يجعل المجتمع في منجاة من

تلك المساوىء التي تغتاله من الداخل، وتدفع أبناءه إلى حيث المركب الخشن الذي يودي بهم إلى شفا جرف هارٍ، بدءاً من الفكر المنحرف عن جادة الصواب، والكلمة غير المسؤولة، والدعاوى التي يعوزها ـ أول ما يعوزها ـ الدليل على أبسط وجه ينشده العقل السليم. خصوصاً إذا لاحظنا أن كثيراً من خصال الخير التي كانت موجودة عند أولئك الفئام من الناس الذين يعيشون في المجتمع الجاهلي: ينحسر ظلُّها تحت وطأة تلكم العوامل التي يدور حولها حديث البناء سلباً وإيجاباً.

وحين ينجو المجتمع من تلك العوامل التي تحمل ما تحمل من الآفات، ويتوافر له المورد البشري الذي يأخذ مكانه الطبيعي في حركة الحياة وفق منهج الله، حيث العقيدة الصحيحة والتصور السليم والفكر المنظّم الذي يضع العقل والمعرفة في مكانهما اللائق ويقيم للحجة النيرة الوزن المناسب.. حين ينجو المجتمع من هذه العوامل المثقلة بتلكم الآفات: حدث ولا حرج عما يكون لذلك من الانعكاسات الطيبة على شتى مجالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وعما يكون له من أهلية الإفادة من خيرات تفضل الله بها عليه، وقابلية لاستمرار النماء والعطاء.

وعلى هذا السنن من الرحلة مع آيات كريمات تكشف عن عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي. وتبصّر بما يرسم التنديد بها والتوعد عليها من خطوط نيرة على صعيد بناء الإنسان والتحضير للمجتمع القدوة..

على هذا السنن، نعود إلى آيات سورة الأنعام التي حملتنا إلى تلك الساحة المباركة لنقرأ في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة قول الله جلّ وعز: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

وإلى أن نلتقي على متابعة لعطاء المعلم القرآني في هذا الأفق المشرق بالإرشاد إلى الطريق التي هي أقوم، حيث تشير الآية المذكورة بأصبع الاتهام إلى هذا الصنيع من قتل الأولاد لأسباب تنتمي إلى غشاوة الجاهلية أيَّما انتماء: أود أن أؤكد أن

المزيد من اصطحاب هذه الزمرة التي نحوِّم حولها من تلكم الآيات التي نقع عليها في سورة الأنعام وعلى نظائرها في سور أُخر: يشعر القارئ المتدبر بكثير الكثير من عناية الله بعباده المؤمنين، وبخاصة تلك الفئة التي عاصرت الأحداث أو كانت قريبة العهد بالحديث عنها، وعرفت الجاهلية، وعناصر الهدم، والتعفية على كثير من خصال الخير، تعفيةً أسهمت أيَّما إسهام فيما كشف عنه القرآن من تلك الأوضار.

وإنما كانت هذه العناية ــ والله أعلم ــ لأن الفئة المؤمنة كانت هي المرشحة يومذاك في ضوء الرسالة المحمدية: للتبصر الحضاري المتسق مع إنسانية الإنسان، وما ينبغي أن ينتهجه في تعامله مع الكون والحياة.. وأعني به التبصر فيما يعاني إنسان الجاهلية ومجتمع الجاهلية من ويلات التخلف، والضياع، وإعداد العدة من داخل النفس ومن خارجها، لحمل العبء الجديد، عبءِ الأخذ بأسباب التحضير لبناء مجتمع جديد تقوده كلمة التوحيد، وتنتظم شؤونه بعقل وحكمة وتساوق مع سنن الله: شرعة الله السمحة المباركة التي تشرق بتلكم المقاصد التي ترعى مصلحة الفرد والمجتمع والأمة على خير وجه، وتوجه إلى وضع الأمور مواضعها، وتسيير الطاقات في جور من الحرية وتحقيق كرامة الإنسان: في قنواتها الطبيعية المنتجة الأمر الذي يشعر بتوجه حضاري له تحيُّزه في حياة الإنسان.

والمطلوب اليوم ــ والمسلمون على ما هم فيه من العنت والمصاعب ــ هم المرشحون في الحقيقة لمداواة ما يعتري البشرية من أمراض، وهي رسالة شرفتهم بها رسالة السماء، ونقطة البدء كائنة ببناء الإنسان والمجتمع على الوجه المبرء من الدخَل والزيف.. المطلوب اليوم: وعي إيماني عميق لتلكم المقولة التي هي واحدة من آفاق المنهج الرباني.

وإنها لخطوة على طريق تنتهي بالأمة ــ بعون الله ــ إلى أن تكون صاحبة الكلمة في تقرير المصير الذي تتطلع إليه البشرية التي تعاني ما تعاني من مشكلات لم يستطع ــ حلها ــ ما أنجز العلم التقني من تقدم مذهل، لأن الإنسانية بحاجة إلى شيء لا تجده إلا في الإسلام ولله الأمر من قبلُ ومن بعد.

البناء.. ووقفة مع الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام

« ٤ »

كما صحبنا المعلم القرآني في ضيائه وعطائه من خلال الآية السادسة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي الآية التي كشفت عن سقوط المشركين ضحايا لتزيين الشياطين والانصياع للهوى والتقليد الأعمى، فجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، وتلا ذلك ما تلاه من العبث في القسمة المزعومة والجور فيها. تقتضينا متابعة الآيات التي تدور حول هذا المحور في السورة نفسها: أن نصحبه كذلك في الآية التي تلي، لنرى واحدة أخرى من مساوىء الجاهلية التي تدل على أن كثيراً من الناس يومذاك شرعوا يسلكون طريقاً تتجافى مع إنسانية الإنسان وتقف على النقيض من سنة الله في العاطفة بين الوالد والولد والتي تعتبر بحق من أبرز العوامل التي تضعف بنيتي المجتمع الاقتصادية والاجتماعية الأمر الذي يسهم في تقويضه ويحول دونه ودون العطاء على الشكل المطلوب. والآية الكريمة التي نعنيها والتي أشرنا إليها في حلقة الأمس هي قول الله جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

يبين الله سبحانه وتعالى أنه كما زينت الشياطين لعبدة الأوثان أن يجعلوا لله مما خلق من الزرع والثمار والأنعام نصيباً، كذلك زين لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم، زينوا لهم قتل هؤلاء الأولاد من الإملاق أو خشيةَ الإملاق. وقد جاء النهي

عن الحالتين كلتيهما؟ ففي سورة الأنعام نقرأ قول الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ونقرأ في سورة الإسراء قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد زينوا لهم أن يئدوا البنات بخاصة ـ أيضاً ـ خشية العار. وهذا كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ألا ساء ما يحكمون، فيفعلون ذلك في الدنيا متجاوزين كل حد من حدود الإنسانية في أنفسهم، جالبين المساءة والأذى إلى الأسرة والمجتمع، وسوء العاقبة ينتظرهم يوم القيامة، وذلك ما أنذر به قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾. ترى بماذا ستجيب وهي المجني عليها من أقرب الناس إليها وهو والدها، وكان يغنيه عن ذلك أن يحسن تربيتها ويسهم في تجفيف مستنقعات الأذى من المجتمع، والالتزام بضوابط تحول دون التفلت الذي كان قائماً في علاقة الذكر بالأنثى يومذاك، لا أن تفتّح أبواب ذاك التفلُّت على مصاريعها ثم توأد البنت الطفلة خشية العار حيث يدسها أبوها في التراب.

هكذا زيّن للمشركين شركاؤهم الشياطين قتل أولادهم ليردوهم فيهلكوهم وليلبسوا عليهم دينهم ـ ليخلطوا عليهم دينهم ـ فاحتياطاً لعدم الوقوع في الإنفاق الكثير يقعون فيما هو أشد وأنكى وأبلغ في الأذى الاجتماعي والاقتصادي فيقتلون الأولاد الذين كان من الممكن أن يكون الواحد منهم طاقة اقتصادية نافعة تسهم في انتشال الأسرة من الوهدة، كما تسهم في رخاء المجتمع، وانعكاس ذلك على البنية الاجتماعية لا ينكره إلا مكابر. ثم إن دواء التخلف الاقتصادي: ليس قتل الأولاد ولكنه إتيان الأمور من مداخلها الطبيعية.

وخلطوا عليهم دينهم أيضاً بأن زينوا لهم وأد البنات خشية العار فأوقعوهم في تلكم الطامّة التي لا يقرها عقل سليم ولا ترضى بها عاطفة أبوية مجردة، فالغيرة على العرض: مقتضاها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ: حسن التربية والإعداد والقضاء على منافذ الشر في المجتمع، وليس فيما يصنعه من خضعوا لتزيين الشياطين وتجاوزوا منطقة الإحساس الأبوي بكاملها حتى أصبحوا وكأنهم خشب مسنّدة.

أما بعد: فأي عنصر من عناصر الهدم في المجتمع أسوأ من هذا الذي زينه كثير من المشركين شركاؤهم، حيث يُقْدِم الواحد منهم على قتل ولده لسبب موهوم.. ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

ولقد خاض من شهدوا التنزيل معركة التغيير، وتجاوزوا هذا الواقع السيء، وأنشأوا واقعاً جديداً في ظل مجتمع برأته يد الإسلام الحانية من تلكم العوامل الهدامة المزعومة واستدركتها ـ والحمد لله ـ بعوامل العقيدة والتماسك، فكان بعد الهجرة ذلك المجتمع القادر على العطاء المؤهل في الميادين كلها للنماء وسبحان من أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً، وهو المحمود على كل حال.



البناء في مواجهة إذاية الإنسان والمجتمع ووقفة أخرى مع سورة الأنعام

« ٥ »

هذا موعد اصطحابنا لواحد من المعالم القرآنية في متابعة لرحلة قصيرة نغذ فيها السير مع آيات مباركات من سورة الأنعام ــ وكل آي الكتاب مبارك ميمون ــ حيث الكشف عن عدد من عوامل الهدم في المجتمع الجاهلي، وما يحمل ذلك من توجيه الفئة المؤمنة إلى بناء الإنسان، ومن وراء ذلك إلى بناء المجتمع كيف يجب أن يكون بالعمل على أن تُجتث تلكم العوامل الهدامة من جذورها على هدي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الكلمة التي شاء الله أن تتسع لميادين الحياة كلها، تبنيها على الخير وتغذوها دائماً بما ينمي القدرة على العطاء المثمر المجدي في إطار من الشمول والتكامل تبدو ملامحهما في كل مجال وعلى كل صعيد.

وقد ألقينا عصا التسيار عند الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة من السورة المشار إليها سورة الأنعام ذلكم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

لا يذكرون اسم الله عليها. تشير الآية الكريمة إلى صورة أخرى من صور الجاهلية يمثلها العدوان على المجتمع في بنيته الاجتماعية والاقتصادية، والعدوان على العقل في الحيلولة دونه ودون التفكير المنظم والبعد عن التناقض. ينتظمها مع ما سبقها مما أشرنا إليه فيما سبق من القول ما كان يتخبط به المشركون من ظلام

الوثنية وشر الخرافة وتسويل الشياطين وهي في الحقيقة صورة ذات ثلاث شعب: فالأولى التي لا يتسع المقام لذكر غيرها الآن: يعلن عنها قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

هكذا يضيِّق المشركون واسعاً، فيجعلون من بعض الأنعام والزروع والثمار حبساً على آلهتهم، ينتفع بها خدام الأصنام دون غيرهم، لذا فهي حلال للآلهة ــ على زعمهم ــ حرام على الآخرين.

من أجل هذا لا يطعمها إلا من يشاؤون وفق ما سولت لهم أنفسهم والشياطين. قال السدي: (﴿لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقولون حرام أن يطعمها إلا من شئنا...) رواه الطبري.

وهذا الخلل الذي نشهده في هذا التصرف كما نطقت الآية الكريمة، والذي ينعكس انعكاساً مباشراً على كل من البُنيتين الاجتماعية والاقتصادية، بدءاً من الأسرة؛ لأن أفرادها قد يحرمون من الرزق الذي يتحرك بين أيديهم وعلى مشهد منهم؛ لأنه حَجْر على الآلهة، فضلاً عن غير أولئك الأفراد نم أبناء المجتمع، تعاوناً وتكافلاً...

هذا الخلل الذي يشير في الوقت نفسه إلى إهمال العقل عند التصرف: قد ندّد به القرآن الكريم في أكثر من موطن، فمع الذي يرى في سورة «الأنعام»: نقرأ في الآية التاسعة والخمسين من سورة «يونس» ــ وهي سورة مكية أيضاً ــ قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم توعدهم على هذا الافتراء بما يكون لهم من سوء العاقبة يوم القيامة، فقال تعالى في الآية التي تلت: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ولكم يكون صنيعنا عنوان استقامة على الجادة تربية وإعداداً وتثقيفاً: إذا نحن قرأنا وقائع التعرية لمواقف المشركين الهدَّامة وبإمعان، وتبينًا من خلالها ــ ونحن نتطلع إلى التجديد في أساليب التحويل والبناء ــ أيَّ مرتقى كانت ترتحل إليه الفئة المؤمنة ــ التي قوام حركة العاملين فيها: الإنسان الحضاري ــ: لتقيم البنيان السليم على هدي ما أعلن القرآن الكريم ــ وهو كلام رب العالمين ــ من التنديد بعوامل الهدم لمقومات الإنسان والعبث الفوضوي بشؤون المجتمع الذي يعيش فيه هذا الإنسان، ومن اجتثاث الأذى من داخل النفس، ومن المجتمع على حد سواء..

أقول: ويزداد صنيعنا قوةً: إذا امتد الأمر بمنهجية، ووضوحِ رؤيةٍ إلى العمل والمزاولة اليومية لشؤون الحياة ضمن كل ما يكون من ظروف وملابسات والله الهادي إلى سواء السبيل.



البناء... ومعالجة الهدم وسورة يونس

«٦»

كانت لنا في كلمات قريبات محاولة تهدف إلى التعرف على صورة أخرى من صور الهدم في المجتمع الجاهلي، حيث إلحاقُ الأذى بكل من البنيتين الاجتماعية والاقتصادية فيه، والخضوعُ للتقليد الأعمى وتسويل الشياطينَ بدلاً من الاحتكام إلى العقل السليم وما تقتضيه دعوى المشركين إيمانهم بالله. والصورة المشار إليها هي ما جاء بشأن هؤلاء المشركين في الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة من سورة مكية هي سورة الأنعام. من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقد هدانا المعلم القرآني إلى أن هذه الصورة فيما تمثل من عوامل التخلخل في بنية الفرد والمجتمع، ذات شعب ثلاث: أولاها ما سوّل الشيطان لأولئك المشركين من جعل زمرة من الأنعام والزروع والثمار التي رزقهم الله بها حِجراً حراماً لا يطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم وهم الآلهة حيث ينتفع بها سدنة الأصنام كما في بعض الروايات، ذلكم ما جاء في مستهل الآية من قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾. فهم يمنعون الحقوق أصحابها ويحدثون بذلك ما يحدثون من خلل اجتماعي واقتصادي، ويقعون في التناقض حين يزعمون الإيمان بالله ويفترون على الله الكذب، فيشرّعون من الأحكام ما لم يأذن به سبحانه. وفي الوقت نفسه يجفون العقل السليم ويحولون دونه ودون أن يعمل عمله في صياغة التصرف المطلوب الذي لا ينأى عن ساحة الإيمان بالله، ولا يصوّب إلى المجتمع سهام الأذية من هنا وهناك.

والواقع أن سوء الصنيع المشار إليه من المشركين لم يقتصر التنديد به على ما نشهد في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ بل كان ذلك ـ كما أشرنا بالأمس ـ في مواطن عدة من كتاب الله عز وجل، فمع الذي نجد هنا نقرأ في سورة مكية أخرى هي سورة يونس قول الله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ الرزق من عند الله، وما دام الأمر كذلك: فالمفروض أن يُلتزم في التحليل والتحريم ما يأذن به الله الرازق سبحانه. ولكن المشركين جعلوا من هذا الرزق حلالاً وحراماً حسب أهوائهم وما سولت لهم شياطينهم، ولذلك جاء توبيخهم والإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ الواقع أن الله لم يأذن لهم بهذا، وهم فيما يحكمون بالحل أو الحرمة مفترون على الله، فمن أين لهم هذا التقسيم الذي قسموه في التحليل والتحريم فأساءوا إلى الفرد والجماعة وعرضوا بنيان المجتمع للتخلخل الاجتماعي والاقتصادي، وبعد ذلك كله يسندون تلك الأحكام المفتراة إلى الله عز وجل.



البناء.. وإثارة بوادر التغيير وسورة المائدة

«٧»

في الطريق إلى تبيّن بعض من الملامح التي اتسم بها المجتمع الجاهلي، والتي كانت لها ـ كما رأينا في سورة الأنعام وغيرها ـ صور تلحق الأذى بالفرد وبالمجتمع نفسه، لا ينجو من ذلك واحدة من النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية.. في الطريق إلى ذلك صحبنا مطلع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله جل ثناؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. وقد قادتنا الكلمات الهاديات بشأن الإنكار على المشركين قولهم: (هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) إلى ما جاء في الآية التاسعة والخمسين من سورة يونس من قوله سبحان: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وتلا هذا التنديد بإعطائهم أنفسهم حق التحليل والتحريم والافتراء بأن صنيعهم من عند الله... تلا ذلك ما يرى من الوعيد الشديد في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إن ما يقتضيه شكر المنعم المتفضل سبحانه أن تستخدم نعمه وفق ما يرضيه جل شأنه، ولكن المشركين بدلاً من الشكر في تحقيق العدالة بما يعود على المجتمع بالنماء والخير، بدءاً من الأسرة التي هي أول لبنة من لبناته.. بدلاً من ذلك شرعوا من عند أنفسهم أحكاماً جائرة في تحليل الاستمتاع ببعض الرزق من الأنعام وتحريمه، فكان أن كشف الله سوء صنيعهم وتوعدهم عليه بسوء العاقبة يوم الدين.

وقد كان لهذا المسلك في المنهج الرباني، الأثر البالغ في تحرير الفئة المؤمنة فكراً وتصوراً من تلك المساوىء الجاهلية، الأمر الذي جعل من ذلك محضناً من محاضن التحضير للبناء والقدرة ـ بإذن الله ـ على تجاوز الواقع الجاهلي وإنشاء واقع ـ جديد ينبثق عنه مجتمع ليس من تلكم الأوضار العابثة التي خلفتها الوثنية ومجافاةُ الفطرة والعقل: في قليل ولا كثير.

ولعل من الخير ونحن نصحب المعلم القرآن في تجليته لأبعاد تلك الشعبة من شعب الصورة المشار إليها في الآية التي نحن بصددها من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ لعل من الخير أن تنتقل إلى سورة مدنية هي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم وهي سورة المائدة، لنرى لوناً آخر من ألوان الإنكار والتفريع للمشركين على صنيعهم وافترائهم على الله في التحريم والتحليل من عند أنفسهم، وكما سولت لهم شياطينهم. ذلكم قوله تعالى في الآية الثانية بعد المائة: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ فالإشارة واضحة إلى مُسَمَّياتٍ من الماشية أعطوها تلك الأسماء، وشرعوا لها أحكاماً في الحل والحرمة، ولا يخفى ما لذلك من انعكاس سيء على البنيتين الاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن دلالته الصارخة على إهمال العقل والكسل الفكري الملحوظ. فالبحيرة: هي التي يُمنَعُ دَرُّها من أجل الطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يُحمل عليها شيء، والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى، كانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكَرٌ، أما الحام: فهو فحل الإبل إذا قام بمهمته الغريزية في بقاء النوع تركوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل فلا يحمل عليه شيء، وسموه الحامي.

ألا وإن الحرص على بنيان سليم للإنسان والمجتمع: يجعل الإفادة من هذه التعرية لعوامل الضعف في المجتمع الجاهلي: ضرورة لا نعْدى عنها؛ فما أكثر ما تضع جاهلية اليوم من العراقيل للحيلولة دون تجاوز للواقع المتخلف، وإنشاء واقع تحكمه شريعة الله، وينأى به البُناة المخلصون عن مسالك التخلخل والتقليد الأعمى لمن تقطَّع ما بينهم وبين الهداية من أسباب.

الشعبة الثانية من شعب الهرم
وإثارة بوادر التغيير في وقفات مع آيات
«٨»

وقفنا المعلم القرآني فيما سبق من القول على شعبة من شعب ثلاث لصورة من صور المسلك الجاهلي وصنيع المشركين الظالم بشأن زمرة من الأنعام والزروع والثمار، حيث التحليل والتحريم وفق التقليد الأعمى وتسويلات الشياطين، ولك فيما نطق به مفتتح الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

والشعبة الأولى التي كنا بصددها من قريب هي ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ ونحن على موعد مع اصطحاب المعلم القرآني الكريم للإلمام بما تستكمل معه الصورة الجاهلية من صنيع المشركين من الإضرار بالمجتمع وترسيخ عوامل الهدم في بناء الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

فبعد قول الله تعالى في شأن المشركين وفعالهم المشار إليها: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾، جاء قوله جل شأنه في الكشف عن قبيحة أخرى: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهي الشعبة الثانية من الصورة المومى إليها آنفاً. وهذه الأنعام التي حرمت ظهورها فلا يجوز لأحد ركوبها هي ـ كما قال السدي ـ البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ـ فكل ما أطلقوا عليه واحداً من هذه الأسماء، يمتنع ركوبه والانتفاع به، وقد أشرنا فيما سلف إلى ما جاء في سورة المائدة من إنكار الله على المشركين هذه التسميات وما ترتب عليها، فالله تعالى لم يسم شيئاً من ذلك ولكنه الافتراء والكذب على الله من قبل المشركين.

ذلك قول الله تبارك وتعالى في الآية الثالثة بعد المئة من السورة المشار إليها: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾. والجعل هنا هو التسمية فالله تعالى ما جعل ـ ما سمى ـ من واحد من هذه المسميات التي اتصفت بصفات جعلها على زعمهم محرمة الركوب على الناس والانتفاع بها.

ونحن واجدون أنه بعد أن ختمت الآية ببيان أن صنيع المشركين محض افتراء وخبال في العقل. جاءت الآية التي تلي منددة بإعراضهم عن الحق وإصرارهم على التقليد الأعمى للآباء والأجداد ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون. ذلكم قوله سبحانه في الآية التي تلي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

إن القرآن الكريم كما لم يرض لهم عدوانهم في التحليل والتحريم وإساءتهم للمجتمع بذلك: كشف عن سبب خطير من أسباب هذا الانحراف الذي يحول دون ذلك المجتمع ودون قدرته على العطاء، ونمائه الاقتصادي والاجتماعي، ذلكم هو التقليد الأعمى للآباء والأجداد ولو كان هؤلاء المقلَّدون على غير علم ولا هي﴿لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهكذا وُجِّه المؤمنون البُناة إلى كل ما فيه تحرير الإنسان من الوثنية وذيولها، والخرافة ومساربها، والتقليد الأعمى ومداخله ومخارجه وبذلك كانوا ـ بعون الله ـ أقدر على بناء مجتمع لا يعوزه التماسك والإحكام. ولا يشكو هزالاً في ميدان من الميادين. وكل أولئك أمانة في الأعناق تدعو إلى التزام المنهج الرباني فيما يتطلع إليه المصلحون من بناء يحفظ على الإنسان وجوده وحريته وكرامته. ويتيح له فرصة العمل والإنجاز، وفي إقامة المجتمع الذي تقوده كلمة الله ويفيد من كل ما وصل إليه العلم والتجربة، مع الحفاظ على سلامة الانتماء الصادق إلى خير أمة أخرجت للناس وأصبحت مؤتمنة على الشهادة يوم القيامة على الناس.

البناء.. وشعبة الهدم الثالثة كما دلت عليها سورة الأنعام

«٩»

في متابعة لاصطحاب تلكم الآيات من سورة الأنعام التي أشرنا إليها من قريب بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة وعطاء المعلم القرآني فيها بشأن حكم القرآن على بعض من تصرفات المشركين المؤذية للفرد والجماعة، والمعطلة لكثير من الطاقات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.. في متابعة لهذا الاصطحاب الكريم، وحرصاً على تبيُّن ما يبدو لذلك الحكم القرآني بشأن تلك التصرفات الهدامة، من انعكاس على مسيرة البناء الخيِّرة والتحضير لإنشاء المجتمع المسلم الذي يتسامى عن أوضار الجاهلية في بنيانه، ويتخذ ما يتخذ من مسالك الهدى وتنمية التعاون المثمر بين أبنائه.. نعود اليوم إلى الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله تبارك أسماؤه: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ولقد عرضنا فيما سلف من القول لشعبتين من هذه الصورة الجاهلية التي تكشف عنها الآية الكريمة هما: جعلا لمشركين زمرة من الأنعام والزروع والثمار حِجراً حراماً لايطعمها إلا من يشاؤون بزعمهم؛ فهي للآلهة يفيد منها سدنة الأصنام، وجعلُهم ــ كذلك ــ زمرة من الأنعام وضعوا لها أسماء معينة هي: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.. محرمةَ الركوب والانتفاع.

وذلك مادلّ عليه من الآية الكريمة قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

ونحن اليوم على موعد مع قوله سبحانه: ﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ وهو ما يدل على الشعبة الثالثة من الصورة الملمح إليها، صورةِ العدوان على المجتمع، إهداراً لقدر لا بأس به من الطاقة الاقتصادية، وتجاوزاً على الحقوق، وترسيخاً لإبعاد العقل عن أن ينير السبيل، كيما تكون تصرفات أولئك الجاهليين على قدر من الاستقامة في النظرة إلى الإنسان، وفي البعد عن المواقف التي تتناقض مع دعواهم الإيمان بالله.

وتلك الشعبة تتمثل في أنه كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها، ولا في شيء من شأنها ــ كما قال السدي، لا إن ركبوا ولا إن حملوا ولا إن حجوا ولا إن عملوا شيئاً، وعند الذبح يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، وقيل: لا يحجون عليها ولا يركبونها.

هكذا تعطينا تلكم الشعب الثلاث للصورة المعنيَّة سالفة الذكر ما يكشف عن الهوة التي تردي فيها أولئك الذين عبدوا الأوثان من دون الله فعطلوا عقولهم وخضعوا لسلطان الهوى والخرافة والتقليد الأعمى.. وما يؤكد لدى الناظر المستبصر في الآية الكريمة: أن المحاصرة الفكرية ــ على الأقل ــ لتلك الانحرافات التي جرَت على المجتمع ما جرت من ألوان الضعف الاجتماعي والهزال الاقتصادي، ناهيك عن التخلف الفكري... أن هذه المحاصرة كانت من أقوى الحوافز التي جعلت الفئة المؤمنة ثابتة الخُطا في رحلة البناء التي التمع ضياؤها منذ العهد المكي. وإذا كان من المسلمات لدى أهل الإنصاف أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها: فليكن أولئك الذين تثقل كواهلهم هموم الأمة، على بصيرة من أمرهم لا يعجزون عن المرتقى الذي رسمه المنهج الرباني وصنع أسلافنا على هديه التاريخ يذكرون أبداً قول الله جلّت حكمته: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

التصور الصحيح.. في البناء والآثار الطيبة لنقض مسالك الجاهلية

«١٠»

ما نزال مع الحديث عن موقف التنزيل الحكيم من عوامل الهدم التي كانت يصنعها تصرف المشركين فيما رزقهم الله من أنعام وزروع وثمار، تحليلاً وتحريماً لم يأذن بهما الله يمنعان أصحاب الحقوق حقوقهم، ويتسببان في تعريف البنى الاجتماعية والاقتصادية للمتاعب، ما يكشفان في الوقت نفسه عن مدى التناقض في إدارة الشؤون اليومية المتجددة، وكيف أن العقول مضروب عليها بالأسداد.

وهذا الأمر بكلياته وجزئياته يقودنا على ساحة الاجتماع والاقتصاد والفكر إلى متابعة المعلم القرآني في توجيهه مسيرة البناء التي بدأت خطواتها منذ العهد المكي بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، فالتنديد بأي عامل من عوامل الهدم وإثارة الهمم للقضاء عليه، إسهام في تحديد المعالم لتلك المسيرة الخيّرة؛ ما الذي يجب أن يكون وما الذي ينبغي أن يجتنب.

كل أولئك يهدينا إلى آيات صحبنا بعضها في حلقات سلفت وكان منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

وآخرما سعدنا بصحبته من تلك السورة المباركة قوله جل ذكره بعد ذلك: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقد عرضنا قريباً لتلك المساءة الجاهلية التي كشف عنها قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ وهي الشعبة الثالثة لواحدة من صور الهدم التي دلت عليها الآية الكريمة من صنيع المشركين، كيما يتبين المؤمنون طريقهم، ويتنبهوا إلى الركام الذي عليهم أن يزيحوه ليرفعوا قواعد البناء السليم، ويوجهوا الموارد البشرية والاقتصادية وجهتها المنتجة المثمرة، ويتيحوا للعقل وموارد المعرفة كلها أن تعمل عملها على هدي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد كانت الكلمة القرآنية صريحة في أن المشركين يفعلون ما يفعلون من المؤذيات لأنفسهم وللجميع، ومن ذلك أنَّ طائفة من الإبل لا يذكرون اسم الله عليها عند الركوب، أو الحج، أو الذبح، بل يذكرون أسماء الأصنام، ويفعلون ذلك لأنهم يزعمون أن ما يجنونه هو حكم الله وذلك محض افتراء. ﴿وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ ولذلك ختمت الآية بهذا الوعيد الشديد الذي نجده في قوله جل شأنه وهو الغالب على أمره: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إن الله لم يأذن بصنيع المشركين فيما أحلوا وفيما حرموا من الأنعام والزروع والثمار وفيما خصوا كل طائفة من تلك الأنعام بسمات هي من حكم الأهواء وتسويلات الشياطين، لم يأذن بذلك ولا رضيه منهم سبحانه وليس ذلك من دين الله وشرعه في شيء، ولذلك سيجزيهم بما كانوا يفترون عليه ويسندون إليه، وانظر إلي طي الزمن أمام قدرة الله تعالى فالسين للمستقبل القريب والمقصود شدة الوعيد.

ألا وإن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الحرد: أمانة في الأعناق، ومسؤولية لا يغني امرءاً مهما كان شأنه ودعاواه، تجاهلُها، والموف المناهض لهذه المسؤولية له آثاره التي لا تخفى في الدنيا ضعفاً وتمزقاً يصرخ الواقع بهما أما

في الآخرة: فشر عاقبة وأسوأ مصير، ومعالم الكتاب العزيز ليست كلمات على ساحة الوعظ الأخلاقي متروكة لاختيار المكلَّف إن شاء عمل بها وإن شاء أعرض، ولكنها منهج الخالق الذي على المكلفين أن يلتزموه ويعملوا به، وبذلك يظفرون بعز الدنيا وحسن العاقبة يوم الدين.



البناء.. وثمرات المحاصرة للتصرفات الجاهلية وسورة الأنعام

«١١»

نحن على موعد مع متابعة النظر الذي تتسع له دقائقنا هنا في تلك الطاقة من الآيات الكريمات ـ التي تهدم لوناً من ألوان الوضع الجاهلي على صعيد البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ـ في سورة الأنعام والتي تسهم في البناء السليم من حيث التحضير للمجتمع الأمثل في قادمات الأيام. وقد وضعتنا الرحلة على خاتمة الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة منها. والآيات التي نعني: هي قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وإذا كان التنديد بهذه المساوىء الجاهلية، قد أظفر المؤمن وتبيَّن الطريق إليها في رحلة البناء، ودلّهم على ما يجب أن يتوافر لبناء الإنسان والمجتمع القادر على العطاء من شرائط، لعل من أهمها إبعاد الإنسان والمجتمع عن كل ما هو من تلك الأوضاع الجاهلية المستنكرة بسبب.

أقول: إذا كان التنديد بتلك المساوىء قد أعطى ما أعطى للمؤمنين يومذاك فإن دلالته المنهجية على صعيد التحديد لعوامل الهدم، وما يجب أن يكون عليه البناء: قائمةٌ على طريق المؤمنين حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الأمر يتحرك أول ما يتحرك على محور العقيدة التي هي الأصل فيما يراد من بناء الإنسان والمجتمع، والسلوك بالأمة طرائق الوجود الذاتي الذي أدى التزحزح عنه إلى ما أدى من المتاعب التي يضج بها واقع اليوم.

وها نحن أولاء نتابع النظر فيما جاء بعد الآيات التي ذكرنا لنقرأ قول الله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

وإلى أن نلتقي على نظرة عجلى لا يتسع الزمن لأكثر منها في هذا المقام، أود الإشارة إلى أن هذه الجنايات على الفرد في فكره وسلوكه وعلى المجتمع في ميادينه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.. هي صورة من الجاهلية العَمِيَّةِ يومئذ.

والمنهج الرباني في الكشف عنها ومحاصرتها وبيان عدوانها على عقيدة التوحيد وعلى الإنسان: يهدينا إلى ما يجب أن يكون عليه التخطيط في مواجهة التحديات الجاهلية في هذا العصر، وهي تحديات يعاني منها الإنسان المسلم والمجتمع المسلم بل والأمة المسلمة أيضاً، والخطوة الراسخة الثابتة على طريق المواجهة تبدأ من وعي المشكلة فيظل العقيدة، والأخذ بالأسباب لمواجهتها، كيما يكون البناء سليماً لا تتهدده عوامل الأذى من هنا وهنا والله المستعان وعليه التُّكلان.

سورة الأنعام... وصورة من النظر الجاهلي إلى المرأة في مرحلة التحضير للبناء.

«١٢»

أن يُعنَى القرآن في العهد المكي، والصراع بين الفئة القليلة المؤمنة وبين المشركين العتاة على أشده، ومحور الصراع اقتحام معاقل الوثنية في الإنسان وتحويله إلى التوحيد.. أن يعني القرآن في هذا الوقت المبكر من نزول الوحي بأمر المجتمع والكشف عن فساد تلكم التصرفات الجاهلية التي تسيء إلى بنيانه اقتصادياً واجتماعياً، كما ترسخ التخلف الفكري كذلك: قضية تستوقف الناظر المتأمل، وتدل أوضح الدلالة على أن هذا الكتاب الكريم من عند الله، وأن الرسالة التي هي مضموناته رسالة شاملة لبناء الإنسان وبناء المجتمع والأمة، وتنمية الطاقات والفاعليات، وتسييرها في قنوات مأمونة تعود على الفرد والجماعة بالخير والنماء.. كل أولئك في ظل عقيدة الفطرة عقيدة التوحيد التي تكرم الإنسان وتدعو إلى إعطاء العقل مكانته في فهم الوحي، وإضاءة طريقه في أن يكون على الجادة، متسق الخطا بعيداً عن التناقض في تصرفاته وما يصدر من أحكام.

أقول هذا ونحن على موعد نتابع من خلاله رحلتنا مع آيات من سورة الأنعام كانت أولاها الآية السادسة والثلاثين بعد المئة: تكشف عن مواجهة مبكرة لصُوَرٍ جاهلية تبدو بالغة الإساءة إلى الفرد والمجتمع ـ كما أشرنا إلى ذلك في كلمات سلفت من قريب ـ وقد ألقينا عصا التسيار عند الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله جل وعز: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

أرأيتم كيف كان يتخبط أولئك الذين تقطَّع ما بينهم وبين هداية الله من أسباب، فأعرضوا عن توحيد الله، وتدحرجوا في مستنقعات الوثنية والخرافة، فكان هذا التيه الفكري الذي أثمر هذا الموقف المخزي من المرأة بعامة ومن الأزواج بخاصة.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ قال العوفي ــ كما روى الطبري ــ عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك. وهذا المروي عن ابن عباس قاله السدي أيضاً، وقال الشعبي: البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وفي رواية للطبري أيضاً عن ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد أجنَّة البحائر والسوائب: فما ولد منها حياً فهو خالص للرجال دون النساء، وما ولد منها ميتاً أكله الرجال والنساء جميعاً: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ ترى: أي سند لهؤلاء المشركين من دين أو عقل استندوا إليه حين فرقوا بين الرجال والنساء في هذا الأمر؛ ما ولد حياً لا يأكله إلا الرجال، وما ولد ميتاً جاز أن يشترك في أكله النساء!! ولبن بعض الماشية أيضاً خاص للذكور دون الإناث؛ إنها الجاهلية التي تجاوزت الحدود التي أقام الله عليها بناء الإنسان، فالمرأة والرجل يرتدان ــ كما قرر القرآن ــ إلى أصل واحد، وأهلية التكليف قائمة عند المرأة كما هي قائمة عند الرجل؛ وبناءً على ذلك كان ما نرى من التعرية لهذا المسلك الجاهلي المجاني لحكمة الخلق. الممتهن للمرأة في إنسانيتها، والاستنكار لتلك النظرة الهابطة لها، النظرة التي لا تستثني في سوئها لا الأم ولا الزوجة ولا البنت.. الخ.

ألا ليت أبناء الجيل المعدّ للبناء وبناته، يعيدون قراءة هذه المواقف القرآنية من العدوان على الإنسان وعلى المرأة بخاصة، كيما يكونوا أسلم تصوراً وأكثر إنصافاً، وأقدر على مواجهة التحديات على ساحة الفكر والتطبيق.

مرة أخرى.. وقفة مع سورة الأنعام والظلم الجاهلي للمرأة «١٣»

كانت لنا من قريب وقفة يسيرة مع المعلم القرآني في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تبارك وتعالى بشأن المشركين في العصر الجاهلي وتفريقهم المخزي بين الذكور والإناث في بعض المطاعم مما رزقهم الله ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

وقد رأينا بعض الروايات التي تكشف عما عنت الآية الكريمة من الأنعام المقصودة، والمراد بما في بطونها، وكان من ذلك ما روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ الآية فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك، وهنالك رواية عن مجاهد حدّدت المقصود من الأنعام في الآية وأنه البحيرة والسائبة.

على أية حال: الآية صريحة في الدلالة على هذا الظلم الجاهلي، الذي يكشف عن نظرة هابطة إلى المرأة جعلت المشركين يسيؤون التصرف ويقولون هذه القولة التي تتنافى مع كرامة الإنسان ذكراً كان أو أنثى فضلاً عن هذا العنوان المخزي في التفريق.

أجل: الآية صريحة لا تقبل أي احتمال في أنهم كانوا يفعلون ذلك، ولا من ينكر ولا من يتمعّر وجهه ـ على الأقل ـ إشارة إلى عدم الرضى.

فنحن نقرأ بيان القرآن الساطع ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾.

ونقرأ بعد ذلك: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾. انظر إلى ما أعطوه لأنفسهم من سلطة التحليل والتحريم ــ وهو أمر بالغ الخطورة ــ خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا. والحكم الآخر وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء. وأشد من هذا: إنهم يفترون على الله فينسبون تلك الأحكام إليه سبحانه.

والذي ما بد من التنويه به من خلال النظرة المستبصرة إلى ما يعنيه تنزل هذه الآيات الكريمات في تلك المرحلة من مراحل الدعوة.. الذي ما بد من التنويه به أن ألوان الأذى والفتنة التي كانت تنصبُّ على الفئة القليلة المؤمنة يومذاك: لم تكن حائلاً دون إشعار هذه الفئة بأن عقيدة التوحيد التي أكرمها الله بها، عنوان متسع الأبعاد عميق الدلالة على الإصلاح الجذري والتحويل الذي يتسع للإنسان والحياة.. فالآيات التي تنزل لاجتثاث الشرك من النفوس والدعوة إلى التدبر والتفكر وإحلال العقل مكانه اللائق من أجل الإيمان بالله... هذه الآيات تصحبها آيات كريمات أخر، تتعلق بإصلاح المجتمع بدءاً من الكشف عن المساوىء التي ولّدتها الوثنية والخرافة والخضوع لتسويلات الشياطين.

فالله تبارك وتعالى لا يرضى لعباده أن يمتهنوا المرأة ويقيموا هذا التفريق المشار إليه في الآية على صعيد الحل والحرمة. فطعام خالص للذكر محرم على الأزواج، وإن كان ما ولدت واحدةٌ من تلك الأنعام ميتةً، اشترك في أكلها الذكور والإناث. والله لا يرضى لعباده أن يفعلوا ذلك فضلاً عن أن يوغلوا في المساءة فيفتروا عليه جل شأنه زاعمين أن هذا التفريق في المعاملة بين الذكور والإناث من أحكامه جل وعلا، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى مهدداً متوعداً: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إنها المنهجية في البناء المتكامل للإنسان والمجتمع والحرص على أن يأخذ كل من الرجل والمرأة مكانه الطبيعي في بناء أسرة متماسكة قوية تكون لبنة صالحة في مجتمع متماسك قوي يقوده الإيمان وتملأ الشريعة السمحة ميادينه كلها بالخير والنماء وفي ظل عدالة مطلقة تتيح لكل من الرجل والمرأة أن يأخد دوره في إحكام البناء، وفق أهليته التي أوجده الله عليها دون وكس ولا شطط.

البناء.. والمؤيدات القرآنية
في مواجهة الظلم الاجتماعي
«١٤»

كانت لنا فيما سبق من القول: وقفات آية كريمة من سورة الأنعام وأعني بها الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة التي تشير فيما تشير إلى صورة جاهلية لتعامل المشركين مع المرأة، ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

واليوم أجد لزاماً أن أشير إلى مدى الارتباط الحكيم بين ما ختمت به الآية من الوعيد في قوله سبحانه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وبين مضمون الآية نفسها الذي جرت الإشارة إليه فيما سبق؛ وهو ما شرع المشركون لأنفسهم من حكم ظالم في التعامل مع المرأة، والتفريق بينها وبين الرجل في بعض الأطعمة مما يحصل عليه الناس من الأنعام، ثم افتراؤهم على الله بنسبتهم هذا الحكم إليه، وهو الحكم الذي يبدو بحق، معولاً من معاول الهدم لكيان الأسرة وبنيان المجتمع، وحائلاً دون أن تأخذ المرأة مكانها الطبيعي ـ في الأسرة والمجتمع ـ بطمأنينة وثقة كما أراد الله الحكيم الخبير.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سيجزيهم قولهم على الله الكذب وافتراءهم عليه؛ فهو سبحانه قد خلق الخلق جميعهم ذكورهم وإناثهم في الأصل من نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام؛ فالمرأة والرجل يرتدان جميعاً إلى أصل واحد ذلكم قول الله تعالى في أول آية من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴿١﴾﴾.

فالمرأة شأنها شأن الرجل هي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لآدم زوجاً، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً - كما اقتضت حكمته من طريق التناسل - فلا فارق في الأصل والفطرة، ولكن الفارق يبدو فيما وراء ذلك، إنه يبدو في الاستعداد والوظيفة. ومن هنا جاء اختلاف المرأة عن الرجل في بعض الأحكام.

ثم إن مما يؤكد فساد ما ذهب إليه المشركون في هذا الظلم الاجتماعي للمرأة كما كشفت الآية من صنيعهم، أن الله تعالى شاء بحكمته أن يكرم بني آدم بوصفهم بني آدم بصرف النظر عن كون الواحد منهم ذكراً أو أنثى، ففي سورة الإسراء نقرأ قول الله تعالى في الآية السبعين: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ وفي إشعار ــ للإنسان ــ ذكراً كان أو أنثى ــ بالمسؤولية كلٌّ حسَب استعداده ووظيفته نقرأ في أعقاب ذلك قول الله جل شأنه: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: ٧١]. ومن هنا كانت المرأة صنو الرجل في أصل التكليف والمجازاة على العمل ودلائل هذه الحقيقة كثيرة في الكتاب والسنة من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. الأمر الذي يدل بوضوح على المسؤولية التي أثمرها خطاب التكليف للرجل والمرأة جميعاً، وهي حقيقة قررها الكتاب العزيز بجلاء تام بدءاً من العهد المكي، وجاء تأكيدها في العهد المدني؛ فإذا كان الأمر كذلك على صعيد التكليف وحمل الأمانة عقيدة وعملاً وفيه ما فيه من تكريم المرأة، أفلا يكون صنيع الجاهليين غاية في السوء، حين ينزلون أزواجهم المنزلة غير اللائقة بوحدة الأصل، وما كرم الله به الإنسان بصرف النظر عن أي أمر آخر، وما جعل الأنثى في مستوى المسؤولية حسب استعدادها. وبهذا يبدو ما ختمت به الآية من قوله تعالى في شأن المشركين: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ على غاية التناسب مع مضمونها، سيجزيهم وصفهم أي قولهم الكذب على الله في تلك الصورة الجاهلية على ساحة

التعامل مع الأزواج. إنه حكيم في خلقه الذكر والأنثى من نفس واحدة. حكيم في شرعه ووضعه كلَّ أمر موضعه، عليم بما يصنع عباده فيجازيهم بأعمالهم. إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وما كان للمؤمنين اليوم وهم يتطلعون إلى مستقبل تتحقق فيه سلامة بنى المجتمع أن ينسوا هذه الحقيقة أو يتناسوها.. فقد حمَّل القرآن هذه الأمة أمةَ الشهادة على الناس أمانة القضاء على كل ما هو جاهليٍّ يتنافى مع الفطرة وسنة الله فيما خلق عليه الذكر والأنثى. وفي ذلك ما فيه من توفير الطاقات كلها وحفز الرجل والمرأة جميعاً إلى العمل المثمر المجدي وفق ما رسم المنهج الرباني لكل منهما والله لا يضيع عمل عامل من ذكرٍ أو أنثى بعضهم من بعض، وهو المحمود على كل حال.



بناء المجتمع.. وواحد من عوامل الهدم كما تصوره سورة الأنعام

« ١٥ »

أسعدنا ونحن نمضي في الكلام على خطاب التكليف للرجل والمرأة جميعاً قبس من عطاء المعلم القرآني فيما ختمت به الآية التاسعة والثلاثون بعد المئة من قول الله جل ثناؤه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ بعد قوله في صدر الآية بشأن صورة مؤذية للفرد والأسرة والمجتمع من صور الجاهلية عند المشركين مفتراة على الله ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾.

إن قول المشركين: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا، حيث تخصيص الذكور بحل اللبن من هذه الأنعام وما تلده حياً، وتحريم ذلك على الأزواج: قد كذب هؤلاء المشركون فيه على الله فزعموا أنه حكم من عنده سبحانه وتعالى. والإشارة إلى ذلك واضحة في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ أي حرّمه الله عليهم، وهذا الكذب الذي هو محض افتراء على الله ينطبق على الحكم الآخر الذي كشف عنه قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ إذا كان ما ولدته تلك الدابة من الأنعام ميتة اشترك في أكله الذكور والإناث جميعاً؛ إنهما قبيحتان؛ أولاهما الحكم بحل أكل الميتة، الثاني امتهان المرأة بأن جائزاً لها أن تشارك في أكل الميتة أما ما كان حياً فهو خاص بالذكور.. فكما تجاوزوا الحدود فحرموا ما أحل الله اختراعاً من عند أنفسهم وخضوعاً لما سولت لهم شياطينهم، كذلك افتروا عليه سبحانه فأسندوا إليه ما اخترعوا من حكم جائر...

ومن هنا جاء الوعيد ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومن بلاغة القرآن أنه أتى بالسين التي هي للمستقبل القريب إيذاناً بفداحة ما أقدم عليه هؤلاء الضالون. سيجزيهم وصفهم، أي قولهم الكذب وإسنادهم إلى الله ما لم يأذن به ولا رضيه من الأحكام الظالمة الجائرة، التي تمتهن المرأة وقد كرمها الله، وتنغِّص على الأسرة حياتها وهي اللبنة الأولى في المجتمع، التي إذا اضطرب حبل العلاقة فيها بين الرجل والمرأة ساءت أحوالها وانعكس ذلك على المجتمع نفسه في أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية. إنه حكيم عليم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، عليم بأعمال عباده من خير وشر، وهو سبحانه المنزه عن الظلم، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

وصورة الهدم في هذا الصنيع الجاهلي: تكمن في أنه عمل يعارض ما اقتضته حكمة الله من أن الرجل والمرأة جميعاً يرتدان ـ كما سلف قريباً ـ إلى أصل واحد من حيث الخلق والفطرة. وإن كانا يختلفان في الاستعداد والوظيفة.. وبناء على ذلك كانت المرأة في شرعة الإسلام صنو الرجل في خطاب التكليف، وتحمُّل المسؤولية، وما يكون من المثوبة أو العقاب. وما حصل من الاختلاف في الأحكام مردُّه إلى الاختلاف في الاستعداد كما شاء ربنا تبارك وتعالى وهو الحكيم العليم.

نقرأ في ذلك آيات كريمات في كلا العهدين المكي والمدني من ذلك ما جاء في سورة النحل وهي سورة مكية من قول الله تعالى في الآية السابعة والتسعين منها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وفي الآية الأربعين من سورة غافر وهي سورة مكية أيضاً نقرأ قول الله جل شأنه: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

وإلى أن نلتقي على بعض مما تنزل في هذا الشأن في العهد المدني، لعل من الخير أن نشير إلى أن مقارنة يسيرة بين الذي قررته هاتان الآيتان الكريمتان من رفع المرأة إلى مستوى التكليف والمسؤولية والإسهام في توجيه حركة الحياة على قدر

استعدادها، وبين تلكم النظرة الجاهلية الهابطة التي تصل إلى أن تحرم عليها لوناً من المطعومات وتُتيح لها نوعاً آخر اشتراكاً مع الرجل في أكل الميتة.. لعل من الخير أن نشير إلى أن هذه المقارنة اليسيرة تضع أيدينا على واحد من عوامل الهدم عند المشركين في الجاهلية، وعلى واحد من مقومات البناء الذي حمل ثقل عبئه أولئك المؤمنون القلة منذ الحقبة الأولى في العهد المكي. وشتان بين وضع الأمور مواضعها، والإفادة من الطاقات والإمكانات عند كل من الرجل والمرأة، وبين تلكم النظرات الجاهلية التي تجفو الحقيقة وتسهم في تقويض المجتمع من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية... فلهذا نذكر هذه الحقيقة وأمثالها، كيما نأخذ الحذرفي واقعنا، وكيما تربط أسباب أجيالنا بأسباب ذلك الجيل الذي حمل عبء البناء المكين على نهج يتواءم مع سنن الله في كونه العريض، ومنها ما خلق عليه كلاً من الرجل والمرأة في أحسن تقويم، وما أودع في كلٍ منهما من الأهلية، الأمر الذي يتحقَّق معه التكامل في توجيه حركة الحياة.



العناية بالفرد والمجتمع.. والوعيد على عوامل الهدم في سورة الأنعام «١٦»

الوعيد في كتاب الله عز وجل على اقتراف أمر من الأمور: يؤكد سوء ذلك الأمر وأهمية الكشف عن إثارة القلوب والعقول لمحاصرته، ثم القضاء عليه، إقصاء له عن ساحة البناء التي يراد لها أن تكون سليمة القواعد مبرأة من عوامل الهدم والانحلال. وذلك ما رأينا في عدد من آي وسورة الأنعام بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة وهي الآيات التي تولت الكشف عن عدد من الصور الجاهلية التي صنعها ما يجنيه المشركون من تصرفات، وادعاء أحكام في التحليل والتحريم تتعلق بالفرد والجماعة وترتبط ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر ببنى ذلك المجتمع الفكرية والاقتصادية والاجتماعية وهي أحكام لم يأذن بها الله، ولم يرض لهم بها ثم نسبوها إليه، فكان ذلك منهم محض الكذب والافتراء.

وأنت واجد أن كل آية تعرض للصورة الجاهلية: تختم بما يكشف عن المساءة التي تقترن بالتهديد والوعيد صراحة أو بالفحوى، كما في قوله تعالى في ختام الآيات المشار إليها حسب تسلسلها العددي كما رأينا من قبل: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأمر الذي يدل ـ كما أشرنا آنفاً ـ على أهمية القضاء على تلك المخازي لأنها مصدر إساءة للفرد والجماعة، وظاهرة مَرَضيَّةٌ لا يجني منها المجتمع إلا التخلف والانحسار عن العطاء.. وهذه اللبنة المضيئة من لبنات المنهج القرآني كانت ـ وستظل معلماً واضحاً على طريق المؤمنين الذين همهم بناء الفرد البناء السوي، وبناء المجتمع بعيداً

عن أوضار الجاهلية مهما كان لونها والعنوان الموضوع لها، وتنمية طاقاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على السنن الذي يرضي الله ورسوله. ويضمن للمؤمنين التمكين في الدنيا وفضل الله وإحسانه في الآخرة.

وقد كان آخر ما سعدنا بصحبته من تلك الآيات المنوه بها: الآيةَ التاسعة والثلاثين بعد المئة وهي قول الله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

وواضح أن ما توعد الله به المشركين بقوله في ختام الآية: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يتسق تمام الاتساق مع المضمون، في إطار الدلالة التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث. ثم إن مما يؤكد النقمة عليهم بسبب هذا الذي حكموا به في التعامل مفرقين بين الذكور والإناث: ما رأينا من قريب من مخالفة ذلك لما قرر القرآن الكريم من وحدة الأصل للرجل والمرأة جميعاً، وأنهما خلقا من نفس واحدة، وما نصت عليه الآيتان الكريمتان في سورتي النحل وغافر من وضع القرآن المرأة في مستوى خطاب التكليف والمسؤولية واستحقاق المثوبة على العمل أو العقاب.

وكما جاء ذلك في العهد المكي: نرى تأكيده بتفصيل في العهد المدني، المؤمنون يُغذون السير على طريق البناء، ورسول الله ﷺ لا يني ينمي فيهم حوافز العمل ويوجه الطاقات وجهتها المثمرة المنتجة في السلم والحرب، وتتنزل الآيات لتضع الرجل والمرأة كلاً في مكانه الطبيعي على مستوى الإسهام في عملية البناء الكبرى، وإزاحة الركام الجاهلي من الطريق، ومواجهة ما يكون من تحديات المشركين واليهود والمنافقين. ها نحن أولاء نقرأ في سورة آل عمران، بعد أدعية الله ورجاء فضله من مناجاة أولي الألباب.. نقرأ قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم.. حسن الثوب﴾.

مرة أخرى.. مع بناء المجتمع.. والتنديد بالهدم الجاهلي

«١٧»

رحلة سورة الأنعام التي بدأناها باصطحاب الآية السادسة والثلاثين بعد المئة. وهي قول الله جل وعز: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

هذه الرحلة المباركة انتهت بنا إلى قوله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين بعد المئة: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ وقد وقفنا المعلم القرآني في هذه الآية على ما يعنيه في عملية البناء الكبرى هذا التنديد بسوء التعامل مع المرأة والتوعد عليه توعداً لا يتحرك في إطار موعظة عابرة تتمدد على السطح لا تتجاوز إلى القاع، ولكنه أمر يتعلق بقضية جذرية هي موقع المرأة في توجيه حركة الحياة وبناء المجتمع حسب الاستعداد الذي كونها الله عليه؛ وأسوأ من هذا أن يسلك المشركون هذا المسلك المجافي للحقيقة التي لا يختلف عليها عاقلان. وهي أن البشر ـ ذكورهم وإناثهم ـ يرتدون إلى أصل واحد في الخلق والفطرة، وأن الله كرم بني آدم دون تفريق بين الذكر والأنثى، وخلق الإنسان في أحسن تقويم دون تفريق أيضاً، وجعل من المرأة مخلوقاً يخاطب بالعقيدة والشريعة وما ينبني على ذلك من المسؤولية والجزاء كما يخاطب الرجل، والاختلاف بينهما في بعض الأحكام مردُّه إلى الاستعداد والوظيفة، كما اقتضت حكمة الله في تكوين كل من الذكر والأنثى.

أقول: الأسوأ من هذا أن يسلكوا المسلك المشار إليه ثم ينسبوه إلى الله تعالى كذباً وافتراء ولذلك جاء الوعيد الذي كان ختام الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد أسلمتنا الآية المنوّه بها إلى قول الله تباركت أسماؤه بعدها: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)﴾.

قتلُ الأولاد سفهاً بغير علم: قد سبقت الإشارة إليه في الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾ أما تحريم ما رزق الله افتراء عليه فقد أشير إليه في مواطن عدة من تلكم الآيات المباركات أيضاً بدءاً من الآية السادسة والثلاثين بعد المئة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ الآية. ثم قوله سبحانه في الآية التي تلت: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾الآية والتحليل والتحريم المتعلقان بالذكور والإناث كنا بصدد الإشارة إليهما قبل قليل.

فالآية الكريمة هنا تقرر أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل قد خسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فخسروا أولادهم بقتلهم حيث أساءوا إلى أنفسهم وإلى أسرهم وإلى المجتمع، وكذلك ضيقوا على أنفسهم في الأموال التي رزقهم الله، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم وخصوا النساء ببعض المطاعم دون الرجال، ولا تسل عن الانعكاس السيء الذي يحصده المجتمع على المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي ناهيك عن دلالة ذلك كله على التخلف الفكري والحيلولة دون العقل ودون أن يأخذ مكانته الطبيعية عند الحكم وممارسة شؤون الحياة.

أما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم عليه.

هذا والحكم على صنيع المشركين بأنه خسران في الدنيا والآخرة: يُشعر المؤمنين في كل زمان ومكان، بأن عملية البناء التي أوقنوا عليها، يجب أن تصان دائماً عن العبث، ويُتخذ لها من الأسباب ما يجنبها عوامل الهدم التي هي نتاج سوءٍ للجاهلية، أياً كانت هذه الجاهلية، وأيٍّ لبوسٍ لبست. والعاقل من أُري مواطن الاعتبار، فاعتبر!!.

بناء المجتمع.. وأثر التنديد بعوامل الهدم الجاهلي

«١٨»

يسعدنا من قريب بقبس من عطاء المعلم القرآني في الآية الأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. وهؤلاء الذين قتلوا أولادهم سَفهاً بغير علم قتلوا ذكورهم وإناثهم من إملاق أو خشية، كما قتلوا إناثهم وأداً في التراب خشية العار. وقد أشرنا فيما سبق من القول إلى الآيات المتعلقة بذلك في مواطنها من سورة الأنعام والنحل والإسراء والتكوير.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا يعني أن هنالك من يقتلون أولادهم سفهاً بعلم وأنهم يكونون غير خاسرين: فالآية تقرر ما كان واقعاً وهو أن هؤلاء المشركين أو بعضهم يقتلون أولادهم سفهاً بغير علم؛ فليس لديهم دليل يستندون إليه في هذا الصنيع. وفي ذلك ما فيه من الخسران في الدنيا والآخرة.

والحق أن هذه الظاهرة وما ذُكِر به من تحريم ما رزق الله افتراء عليه: تشكلان عنصراً بالغ الخطورة في المساءة إلى الفرد والأسرة والمجتمع، لأن ذلك خسارة وإضرار لا يقتصران على الفرد، بل يتجاوزان إلى العلاقات الاجتماعية والطاقة الاقتصادية، والمسار الفكري على حد سواء.

على أن الخسران أيضاً ليس مقصوراً على الدنيا، ولكنه خسران في الآخرة أيضاً.

فإذا كان هؤلاء الضالون قد خسروا من الطاقة البشرية ما خسروا بقتل أولادهم، وخسروا من المال ما خسروا بالتضييق على أنفسهم وبالتعامل الظالم فيما أعطاهم الله من الرزق في الأنعام والزروع والثمار.. فقد وقعوا أيضاً في الخسران المبين في الآخرة، جزاء افترائهم على الله وكذبهم عليه بإسناد تلكم الأحكام الجائرة الظالمة إليه. وهم بهذا كله قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين.

ونقرأ في سورة النحل مزيداً من الإيضاح لهذه القضية وذلك بدءاً من قول الله تعالى في الآية الرابعة عشرة بعد المئة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾. تلا هذا البيان قوله سبحانه: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

والآن ما أحسب عاقلاً يماري في أن تأكيد المنهج الرباني أن هذا الصنيع من الجاهليين ـ بشتى صوره ـ جهل وانحراف خطير، لما يحمل من الأذى للفرد والجماعة، ويعرض للخسران في الدنيا والآخرة.. ما أحسب عاقلاً يماري في أن هذا التأكيد كان واحداً من المعالم البارزة على طريق المؤمنين، وهم يتحركون على طريق التغيير منذ العهد المكي، يقود خطاهم تحت راية البناء الشامل للإنسان والمجتمع محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وإليكم قبساً من فقه ابن عباس رضي الله عنه على هذه الساحة فقد روى البخاري بسنده إلى حبر الأمة رضي الله عنه قوله: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ ورواه ابن مردويه.

لقد دلهم القرآن على الأسباب التي نمت وترعرت في ظل الوثنية والكفر وجرَّت على الأسرة والمجتمع ما جرت من المصاعب والمتاعب، كي يكونوا على بينة من أمرهم يُعدون العدة لبناء المجتمع الذي تقوده كلمة الله وتضبط شؤونه شرعة الحكيم الخبير!

***

حراسة بنى المجتمع ومحاربة السفه
في العدوان على الولد والمال سورتا الأنعام والتوبة

الآية الكريمة التي أسعدنا المعلم القرآني من قريب بلمحة مشرقة من عطائها: هي الآية الأربعون بعد المئة من سورة الأنعام والتي جاء فيها قول الله الحكيم الخبير: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا: أن هذه الآية الكريمة جاءت بعد آيات من السورة المباركة المشار إليها نعمنا بالتطواف في شيء من معانيها، وهي التي بدأت بالآية السادسة والثلاثين بعد المئة. وكان ظاهراً أنها تشير إلى صور جاهلية كلَّفت الفرد والجماعة الكثير من العناء، ووضعت المجتمع في موضع لا يغبط عليه في أي مجال من المجالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية. وكان واضحاً في تلكم الآيات التنديدُ بما ابتدعه المشركون من عند أنفسهم، وكما سوّل لهم الهوى والشيطان من أحكام في التحليل والتحريم على ساحة الرزق الذي تفضل الله به عليهم من الأنعام والزروع والثمار، وعلى ساحة العلاقة بالبنين والبنات من الذرية حيث يزهق البعض أرواح الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً خشية الجوع، أو من الجوع ـ على زعمهم ـ يصحب ذلك ظاهرة الوأد للبنات حيث يدس الواحد منهم فلذة كبده في التراب وهي على قيد الحياة، خشية العار، مع أن الكل راضٍ بما كان من انحراف أخلاقي يسود الكثير من جوانب المجتمع في علاقة الذكر والأنثى، الأمر الذي يمهد للانحراف، وبعد أن تقع الواقعة يلجؤون لعلم القيافة من أجل انتساب الولد وإلى أي رجل ينتسب من خلال ذلك الانحراف.

وبجانب الآيات الواردة في الموضوع والتي جاء الحديث عنها بالأسلوب الرباني الحكيم في مواطن متعددة من آي الكتاب أشرنا إليها فيما سبق.. جعل القرآن هنا في هذه الآية قتل الأولاد: سفهاً بغير علم.. والسفه في العربية: نقصٌ في العقل وأصله

الخِفَّةُ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم. إنه السفه الذي لا يدانيه سفه على هذه الساحة، وفي قوله تعالى: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ استثارة للعقل في أن يتحرك ويعمل عمله، فبأي سلطان أو حجة يقتل الوالد ولده في دنيا هؤلاء الجاهليين؟.

وقتل الأولاد خسارة أيةُ خسارة على مستوى الأب والأم والأسرة ومن وراء ذلك خسارة لطاقة قد تكون ذات فاعلية وتأثير في بناء المجتمع وتنمية قدرته على العطاء. والمشركون ـ كما خسروا بقتل أولادهم سفهاً بغير علم، قد خسروا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية بما ضيقوا على أنفسهم في أموالهم، وجنحوا إلى ظلم الآخرين وامتهان الأزواج فيما ابتدعوا من التحليل والتحريم ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى﴾.

لقد كانت دعواهم أن تلكم الأحكام من عند الله: افتراء وكذبٌ على الله، وذلكم هو الضلال المبين، إنه مبين لشدة وضوحه فيما يشهد المرء من إقدامهم على الانحراف المنافي للعقل، وللعاطفة الصادقة، ناهيك عن مصلحة الفرد والمجتمع ودعواهم الإيمان بالله. ولقد أذكرنا هذا الحكم على صنيع الجاهليين بالافتراء والضلال آيات من سورة النحل كان منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾. إن الهداية والضلال هما المحور في البناء والهدم.

فالحرص على البناء السليم للإنسان والمجتمع وتوفير الطاقات الاقتصادية والاجتماعية من أجل استمرار البناء سليماً معافى، كل أولئك مرتبط بسلامة العقيدة، والهدمُ الذي كان يمارسه الجاهليون: امتدادٌ لتمرغهم في مستنقع الخرافة والتقليد الأعمى!!.

وعلى الرواد اليوم الذين أولاهم الله نعمة الإلهام في البناء والإنماء: أن ينصبوا هذه الحقيقة نصب أعينهم، فيزيدوا من تنمية الإيمان في النفوس، كيما ينعكس ذلك على مستوى البناء والإنماء بجدِّية وإحكام.

سورة النحل والتوجيه إلى البناء وحراسته.. من خلال التنديد بأمور الجاهلية

« ١ »

كل ما جاء في كتاب الله خير وهداية ونور، وحين تعزم الأمة عزمها على أن يتحقق لها ذلك على كل صعيد وفي كل ميدان، فما عليها إلا أن تجدد الصلة بهذا الكتاب الكريم، وأعني بها صلة التدبر والتذكُّر اللذين يُسلمان إلى العمل والتطبيق، ومن دلائل الصدق في ذلك أن يمتدَّ تجديد الصلة بالتنزيل الحكيم إلى بيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أقول هذا وقد أسعدنا من قريب عطاء المعلم القرآني في تبين الحكم على ما كان يأتي به الجاهليون من أعمال عمدية يسيؤون بها إلى أنفسهم وإلى مجتمعهم، سواء أكان ذلك على صعيد الأسرة والقبيلة أم كان على صعيد المجتمع.. وكان ذلك من خلال واحدة من طاقة مباركة من آيات سورة الأنعام التي استضأنا بهداها في رحلة عجلى سبقت، والآية الكريمة هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

والحق أن هذا الذي تنكره الكلمات الهاديات من فعل الجاهلية تنكره؛ لأنه يخالف تمام المخالفة ما أراده الله تبارك وتعالى لعباده من أن يأكلوا من طيّبات ما رزقهم سبحانه، وأن يتعاملوا مع النعمة وفق الذي أحلّه لهم وحرّم، لا أن يولوا ظهورهم لما أراد المنعم الرازق ويبتدعوا من عند أنفسهم أحكاماً هي الضلال المبين، فيقولوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، مُدّعين زوراً وبهتاناً أن تلك الأحكام من عند الله!!.

وإذا تحرك العباد في هذا الإطار: استطاعوا أن يستمتعوا بالخيرات والنعم التي رزقهم الله وسخر لهم منها في كونه العريض ما سخر، وأن يُجمعوا أمرهم على البناء الذي يشيع الخير والنماء في ميادين المجتمع كلها.. يصحب ذلك طمأنينة عميقة عند الإنسان، وود يظلل الخطا في تعامل الناس بعضهم مع بعض، مما يقدرهم على تنمية وجودهم الذاتي وأن يكونوا دائماً على طريق التغيير إلى ما هو الأفضل مرحلة بعد مرحلة. ولن يكون ذلك ـ بشموله وعمقه ـ إلا في ظل الإيمان الصادق الذي يدفع إلى العلم والعمل والسلوك المستقيم.

ولنقرأ ما جاء في سورة مكية هي سورة النحل مما يبدو معلماً واضحاً من معالم المسيرة الخيرة التي قادها على هدي كلمة التوحيد محمد عليه الصلاة والسلام. يقول الله جلّت حكمته: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

لقد أدرك المؤمنون من خلال تلك الآيات وأمثالها من نصوص الهداية التي تفعد مزاعم المشركين، وتكشف عن عوامل الهدم التي يمارسونها في ظل جاهلية جهلاء.. أدركوا أيَّ سبيل مستقيمة دنية القطوف، عليهم أن يسلكوها ـ وهم المؤتمنون على متابعة الرحلة في إحكام البناء..

إنها السبيل التي تبدأ بالإيمان الذي لا تخالطه ريبة، وطاعةٍ لله ورسوله، في كل ما يون من تحليل أو تحريم أو ما يتلعق بهما، وذرة السنام في ذلك: الجهادُ في سبيل الله مصحوباً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناهيك عن الأخذ بالأسباب وفق السنن الألهية..

أجل.. وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض ورضوان من الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

النهج البناء... وحراسة بنى المجتمع.. وسورة النحل «٢»

قادتنا الآية الأربعون بعد المائة من سورة الأنعام وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. قادتنا هذه الآية الكريمة وهي تنبه إلى ما وقع فيه المشركون من خسران في الدنيا والآخرة بسبب من سوء فعالهم وأنهم ضلوا وما كانوا مهتدين، إلى ما جاء في سورة النحل بدءاً من الآية الرابعة عشرة بعد المائة من قول الله تباركت أسماؤه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

والحق أنه لم يكن مصادفة أن تقودنا الآية المشار إليها من سورة الأنعام إلى هذه الآيات من سورة النحل؛ ذلك بأن المشركين كانوا خاسرين في الدنيا في أولادهم وفي أرزاقهم بما جنته أيديهم، وكانوا خاسرين في الآخرة بما افتروا على الله الكذب من أن تلك الأحكام الجائرة التي أودت بهم إلى الخسران في المال والولد: هي أحكام من عند الله، وحاشا لله أن يشرع ما فيه الإيذاء لعباده، وهو البر الكريم، والرؤف الرحيم.

وصفوة القول: أن قوله تعالى:﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

صورة ـ بيِّنة التأثير تبهر الناظرين ـ عن جنوح المشركين عامدين إلى مسلك هدام يحمل المخالفة كل المخالفة لما شرع الله لعباده من نهج بنّاء يستمتعون من خلاله بما رزقهم الله من الطيبات، فلا يحلون إلا ما أحل الله، ولا يحرمون إلا ما حرّم سبحانه، وبذلك لا يقعون في الجناية لا على أموالهم ولا على أولادهم، ولا يستجيزون ظلم أحد من الناس.. إن الله الذي خلق العباد سخر لهم من أبواب الخير ما سخّر، ويسّر لهم من أمر الرزق ما يسَّر، ووجّههم إلى أن يتعاملوا مع النعم والأرزاق تعاملاً سليماً في ظل ما شرع وبيّن.. لكن الجاهليين عدلوا عن ذلك، فخالفوا عن أمر الله، وشرعوا من عند أنفسهم ما سبب لهم الخسارة في الدنيا مالاً وولداً ثم خسروا الآخرة بافترائهم وكذبهم على الله..

إن آيات سورة النحل ـ ولها نظائر كثيرة في كتاب الله ـ تعرض النهج الذي أراد الله لعباده أن يسلكوه كما تكشف عن النهج المخالف وعقابيله في الدنيا والآخرة ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ مباح لكم أن تأكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً على السنن الذي أراده وتفضل به عليكم، واشكروا نعمة الله فيما أباح لكم من هذا الحلال الطيب، بأن تستخدموا نعمه في طاعته، لا أن تضعوها على طريق الجحود والضلال.

أجل أن تستعينوا بها ـ وقد أنزل عليكم كتاباً فيه ذكركم ـ على بناء الإنسان المؤمن القادر على بناء المجتمع المتكامل المتعاون، المجتمع الذي يستمتع بالنعمة ولا يجحد خالق النعمة، وينمي خيراته وقدرته على العطاء في الميادين كلها، على هدي ما شرع الله وأراد. وذلك مقتضى العبودية لله تعالى﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

ثم بين سبحانه ما حرمه عليهم وما هو جائز عند الضرورة بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾. فالحرام ما حرم الله لا ما ابتدع الجاهليون من عند أنفسهم

وما سولت لهم الشياطين، وهذا الذي حرّمه الله ينتفي معه الحرج، يكشف عن ذلك ما نرى من جواز الأكل عند الاضطرار الحقيقي ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. تلكم هي سبيل الله لعباده التي تتيح لهم الإفادة مما سخر لهم وأنعم عليهم، وتباعد بينهم وبين الكفران الذي لا يحصد الفرد والجماعة من ورائه إلا الهدم والخراب..

أما البناء والنماء: فكائنان في التزام ما شرعه الحكيم الرزاق سبحانه، حيث الخطوة الواعية أبداً على طريق منهجية مأمونة تضمن أن يظل المجتمع في ترق إلى ما هو الأفضل والأقوم في ميزان الله الذي لا يعول والله يتولى عباده الصالحين، ويجزي أولياءه الشاكرين الصابرين.



مرة أخرى مع النهج البناء وسورة النحل
«٣»

قطعنا في الماضي القريب شوطاً من رحلة مباركة مع تلكم الآيات من سورة النحل التي قادتنا إليها الآية الأربعون بعد المئة من سورة الأنعام. وآيات سورة النحل المشار إليها هي قول الله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ وهذا ـ كما أشرنا فيما من القول ـ يضع أيدينا على النهج البناء الذي أراده الله لعباده في تعاملهم مع الرزق الذي أنعم به عليهم، بحيث يستمتعون بنعمه جل شأنه ويحسنون شكرها؛ وذلك باستخدامها في طاعته وفي تنمية قدرتهم على تحقيق ما يريد على ساحة الفرد والمجتمع.. ولكن كلمات الله كشفت عن أن المشركين من العصر الجاهلي خالفوا عن أمر الله في ذلك، فوقعوا في حمأة التناقض، وجرُّوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم الخسران الوبيل في الدنيا والآخرة.. ولنعد إلى تتمة تلكم الآيات المباركات. ذلكم ما نرى في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

أن تقع الخطيئة ويُعلم أنها خطيئة من صنع الإنسان: أمر سيء بلا ريب، ولكن الأسوأ منه محاولة تسويغ تلك الخطيئة بأنها حكم من أحكام الله، فلو أن الجاهلين وقفوا عند تلكم الجنايات من تحليل وتحريم من عند أنفسهم، بحيث يعلم أنهم هم الجناة ويفتح الطريق للمتبصرين أن يقولوا كلمة الحق في ذلك: لكان الخطب أقل خطورة.. ولكنهم أرادوا أن يسوغوا عدوانهم على النهج الذي أراد الله لعباده في تعاملهم مع النعم، والتزامهم لما يشرع الله في الحل والحرمة.. أرادوا أن يسوغوا ذلك

بنسبة انحرافهم في تلكم الأحكام إلى الله.. فهم يضيقون على أنفسهم بتحريم أنواع من الرزق، ويفرقون بين الذكر والأنثى في التعامل، ويُقدم البعض على قتل أولادهم لأسباب لا تجدي فتيلاً.. خضوعاً لتسويلات شركائهم من الشياطين.. ثم يجاهرون بأن ما يصنعونه تحريماً وتحليلاً هو من عند الله.. تماماً كالذي نراه في جاهلية اليوم.. يعمل الهدامون ما يعملون، ثم يطلعون على الناس بمنهج فكري يهيء العقول والنفوس لقبول الهدم، وشيئاً فشيئاً يصبح الهدم هو البناء، وهو الذي ينبغي أن يكون..

إن توظيف الفكر على ساحة التسويغ للانحراف والتسلل إلى العقول كيما تقتنع بأن المنكر هو المعروف، وأن الهدم هو البناء، كل أولئك من ضلالات الجاهلية التي شاء ربنا تبارك وتعالى أن تتنبَّه إليها الفئة المؤمنة وهي تأخذ طريقها إلى بناء قويم يسلم للإنسان في ظله تكامل البنية الفكرية والسلوكية كما يسلم للمجتمع في ظله كذلك؛ أن يكون مجتمع الولاء الصادق لعقيدة التوحيد، تشيع في خلاياه جميعاً بواعث الحركة المنتجة والنشاط، وتجده وسمات النماء والخير المطرد: هي التي تطبع مسيرته على هدي المنهج الرباني الذي يوصل العمل به إلى التمكين في الدنيا ومرضاة الله في الآخرة.

وهكذا جاء النهي الجازم للجاهليين تعليماً للمؤمنين في كل عصر أن تفتح منهم الأبصار والبصائر، فلا تنطلي عليهم أحابيل الجاهلية وزخارفها، مهما ألبست تلك الزخارف والأحابيل ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ وفي مزيد من التنبه إلى عدم الاغترار بالمتاع القليل والربح العاجل على حساب الحقيقة الكبرى: جاء قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾. ترى.. ألا يعني ذلك كله ــ والقرآن منبع الهداية على المدى.. ــ أن على المؤمنين، وهم يقطعون رحلة البناء، أن يتبصروا، وأن يحذروا.. أن يتبصروا مواقع خطوهم بوعي وثبات وصبر، ويحذروا من الوقوع في شيء مما هو من أو ضار الجاهلية وشؤونها ــ ومن شؤون الجاهلية ما يردي ــ وأن يكونوا على تمام اليقظة لكيلا يؤخذوا بما تحتال به تلك الجاهلية من عناوين، وما تصنعه من محاضن فكرية تتسلل إلى العقول تسلل الداء منه إلى الجسم السليم ولله عاقبة الأمور.

حراسة بُنى المجتمع على محور الهداية.. في سورتي الأنعام والنحل

« ٤ »

محور الهداية العامة المحيطة في القرآن الكريم: قادنا ونحن نسعد بعطاء المعلم القرآني في الآية الأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. قادنا إلى مجموعة من الآيات في سورة مكية أخرى هي سورة النحل كان فيها قول الله جلت حكمته: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

ولقد دلنا المعلم القرآني من خلال تلكم الآيات على المنهج الذي رسم الله لعباده من إحسان تعاملهم مع ما سخر لهم من الكون ورزقهم من الطيبات، وهو النهج الذي يقوم على الاستمتاع المشروع بالنعم، والإفادة من الخيرات التي يسر الله سبلها على هدي ما أحلّ سبحانه وما حرّم، وأن يصحب ذلك شكر المنعم سبحانه وذلك بوضع تلك النعم موضعاً تكون فيه عوناً على طاعته وتحقيق ما فيه خير الفرد والجماعة، والسعادة في الدنيا ويوم الدين.. وهذا النهج بأكمله ــ ومنه الشكر الذي ألمحنا إليه ــ هو مقتضى العبودية الخالصة لله عز وجل ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أما المخالفة عن هذا النهج ــ كما كان يفعل أهل الشرك في الجاهلية ــ فتتناقض مع دعوى الإيمان بالله، وسلوك للسبيل المعوجّة التي تعقب الخسران في الدنيا والآخرة..

والحق أن الناظر في الآيات المومى إليها في سورة النحل بدءاً من الآية الرابعة عشرة بعد المئة والتي أوردناها فيما سبق: يرى فيها تفصيلاً يعين على مزيد من التبين لما يهدي إليه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. وهي الآية التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث، والتي أعقبت مجموعة من الآيات المباركات في تلك السورة المكية، كانت أولاها كما جاء في ترتيب المصحف: قول الله تعالى في شأن المشركين وما تكسبه أيديهم من الجناية على الفرد والمجتمع في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ونعود اليوم إلى سورة الأنعام نفسها كيما نتابع الرحلة المباركة المعطاء؛ فبعد الآيات التي كشفت عن عدد من عوامل الهدم عند المشركين بأسلوب ينير طريق المؤمنين البناة في كل عصر، فيجعلهم يجتنبون الانحراف وكل ما هو منه بسبيل.. بعد تلك الآيات يطالعنا فيما تلاها بعد ذلك ما يؤكد النهج الذي دلت عليه آيات سورة النحل المومى إليها آنفاً. والذي نعنيه من سورة الأنعام قول الله جل وعز بدءاً من الآية الحادية والأربعين بعد المائة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ ولسوف نشهد فيما يأتي من القول إن شاءالله ــ ولو بعضاً من عطاء المعلم القرآني ــ في هاتين الآيتين الكريمتين وما يتلوهما في موضوعنا نفسه حيث التجلية المشرقة لما أراد الله لعباده من نهج سليم في تعاملهم مع ما أعطاهم من رزق وما تفضل به عليهم من نعمة، وهو النهج الذي يضمن لهم نماء الخير واطراد التمكين ويجعلهم، وهم يتقلبون في أنعمه ويضعونها على الطريق البانية المثمرة في طاعة الله سبحانه: يشكرون له ولا يكفرون، ويفوزون بما أعد لعباده الصالحين المتقين.

عودة إلى سورة الأنعام..
وسدُّ الذريعة في حراسة بُنى المجتمع
« ٥ »

في عودة إلى سورة الأنعام واصطحاب زمرة كريمة أخرى من آياتها تذكر الناس بما أنعم الله عليهم وهو الخالق القادر الرازق، وتفند مزاعم المشركين فيما أحلوا من عند أنفسهم وما حرموا مفترين على الله بنسبة ذلك إليه.. وتوضح النهج الذي يريد اللهلعباده أن يسلكوه وهم يستمتعون بخيراته ورزقه ويتقلبون في أنعمه التي لا تحصى.. في عودة إلى هذه السورة المكية المباركة أوردنا بالأمس قولا لله جل شأنه وذلك بدءاً من الآية الحادية والأربعين بعد المئة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

إن الله الذي لم يخلق عباده عبثاً، بل أودع فيهم ما أهَّلهم لأن يبلغوا ــ أن لو استقاموا على الطريقة ــ بالإيمان يصحبه العمل الصالح بمفهومه الشامل: غاية عظيمة هي تحقيق العبودية الخالصة له جل شأنه.. فكذلك لم يدعه مهملاً بل سخَّر لهم الكون ورزقهم من الطيبات، وأراد لهم أن يحسنوا التعامل مع ما سُخِّر لهم ورزقهم من أنعمه وفضله، فيكونوا مع الذي أراد سبحانه فيما أحلَّ وفيما حرَّم ؛ لأنه كما تعبدهم بالإيمان به: تعبدهم فيما شرع لهم.. وهذا ما يرتضيه العقل السليم، فضلاً عما يمليه الإيمان بالله؛ فالذي خلق ورزق، وسخر وأنعم: هو الإله الجدير بأن يفرد بالعبادة، وأن يطاع فيما شرع وبين لعباده من أحكام.

والآيتان الكريمتان هنا شأنهما شأن ما يليهما، جاءتا في أعقاب ما سعدنا بصحبته في حلقات قريبات من تلكم الآيات التي كشفت عن عدد من الصور الجاهلية في تصرف المشركين على صعيد التعامل مع النعم وما رزقهم الله؛ فمن تحريم لبعض ما أحل الله، إلى ابتداع صور فيها ما فيها من الظلم على الصعيد الاجتماعي، والعدوان على البنية الاقتصادية للمجتمع، ناهيك عن ظلم المرأة ثم نسبه ذلك كله إلى الله افتراءً عليه. وكانت ـ من بعض الوجوه ـ انعكاساً للتمرغ في أوحال الوثنية ـ مع دعوى الإيمان بالله ـ وفي التقليد الأعمى والخضوع لتسويلات الشيطان في إبعاد للعقل السليم أن يقول كلمته، فيباعد بين أولئك المشركين وبين ما سلكوا من سبل أوقعتهم في التناقض وسوء الحكم على الأمور، وجرت عليهم وعلى مجتمعهم الخسارة في الدنيا، وباؤوا كذلك بالخسران المبين في الآخرة.

والذي تقتضيه سلامة الفكرو العمل أن يكون الناس، وهم يكدحون في الأرض ويرتادون دروب الحياة... وقافين عند الذي أراد لهم خالقهم ورازقهم ربهم سبحان؛ وذلكم هو المنهج السوي الذي يجعل من التعامل مع أصناف الرزق والموارد وما سخر الله للإنسان في الكون: عملية بناء يصلح معها أمر الفرد والجماعة.. ويعم الخير والنماء نواحي المجتمع، الأمر الذي يجعله قادراً على العطاء مؤهلاً دائماً للرقي إلى ما هو الأفضل والأقوم. ذلك بأن كل طاقة من الطاقات التي أنعم الله بها قد وضعت في مكانها الطبيعي، فكانت الثمرة وكان النماء، يحصب ذلك كله الطمأنينة التي ينشئها الإيمان، فيتعاون الجميع على ما فيه مصلحة الفرد والجماعة.

وفي عودة إلى الآيتين الكريمتين نجد تذكيراً بالنعم التي خلقها الله وأنشأها، وما الذي يجب على الإنسان حيالها ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وتختم الآية بأمور ثلاثة غاية في الأهمية: أولها إباحة الاستمتاع بالنعم وفق ما أراد سبحانه: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ الثاني أداء

الحقوق التي جعلها الله في المال ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ الثالث النهي عن الإسراف وتوعد المسرفين ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أرأيت إلى هذا النهج الذي أراد الله لعباده ـ كما تشير هذه الآية وغيرها كثير ـ.. إنه النهج الذي لو أحسن الناس سلوكه والعمل بما تقتضيه: لعَمَّ الخير وانتفى الظلم الاجتماعي، وتعاظمت القدرة الاقتصادية، وتحقق للإنسان ما ينشد من كرامة وطمأنينة. على هدى الإيمان الصادق وطاعة الله فيما تعبَّد به عباده وشرع لهم من ذلك النهج المبارك السوي والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



سورة الأنعام.. ونهج التعامل البناء مع الفهم

«٦»

الآية التي وقفنا المعلم القرآني من قريب على بعض من عطائها فيما هو من سمات النهج الذي ارتضاه الله لعباده في تعاملهم مع ما أسبغ عليهم من النعم، وما هيأ لهم من الرزق، وسخر لهم في كونه العريض براً وبحراً وجواً.. هذه الآية الكريمة هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وهي الحادية والأربعون بعد المئة من سورة الأنعام.

وقد كان من إشراق المعلم القرآني ما هدت إليه الآية من التذكير بهذه المجموعة من النعم التي هي ــ على تنوعها وتعدد أشكالها واختلاف الأُكل ومنابع الخير فيها ــ من صنعه سبحانه وإنشائه ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ إنها حقيقة يُسلم استقرارها في العقول والقلوب إلى كثير من الخير والالتزام بما تعبّد الله عباده من نهج التعامل مع الذي أنشأ هو بقدرته وأوجد.

فهنالك جنات معروشات وغير معروشات، وهنالك النخل والزرع مختلف الأكل، والزيتون والرمان المتشابه وغير المتشابه، وسل العلماء أهل الاختصاص عما يحمل كل صنف مما ذكر في الآيات الدالة أصرح دلالة على قدرة الخالق العليم وحكمته.

ومن خلال الوجهة البناءة التي يهدي إليها المنهج الرباني: أود التذكير بما أشرت إليه فيما سبق من الأمور الثلاثة التي ختمت بها الآية الكريمة وهي ضوابط غاية في الدقة والإحكام تشمل الفرد والجماعة وبنيان المجتمع في جانبيه الاقتصادي والاجتماعي.

تلك الأمور والضوابط هي: إباحة الانتفاع بتلك النعم والاستمتاع بخيراتها، أداءُ الحقوق التي جعلها الله في المال ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ تجنبُ السرف لأن السرف مضيعة للمال مهلكة لصاحبه من الناحيتين السلوكية والاقتصادية، وعنوان أذية للمجتمع؛ لذا فإن الله لا يحب المسرفين. ذلكم قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ والوعيد على السرف هنا يحمله هذا الإعلان الذي يرهبه المؤمن، وهو عدم محبة الله للمسرفين ــ كما أشرنا آنفاً ــ، وجاء ذلك مقترناً بالدعوة إلى أداء الحقوق التي أوجبها الله في المال؛ فمن غير المقبول بحال من الأحوال أن يهمَل أصحاب الحقوق ويزلزل كيان المجتمع بانحسار التكافل الاجتماعي والاقتصادي عنه.. وبدل أداء الحق المعلوم: يسرف صاحب المال ويبعثر الثروة هنا وهناك. ويبدو ــ والله أعلم ــ أن هذا الاقتران بين الأمر بأداء الحقوق في المال وبين النهي عن السرف: جاء للإشعار بأن الإسراف في المال والتبذير فيه طريق إلى حرمان أصحاب تلك الحقوق. وهذا ما لا يرضى عنه الله سبحانه وتعالى.

ولعل من الوفاء لأهمية هذه المقولة على طريق البناء السوي والإنماء الذي يصنعه ــ بإذن الله ــ تكافل أبناء المجتمع وتعاونهم على الخير.. لعل من الوفاء لهذه المقولة أن نذكِّر بما جاء في سورة الإسراء من اقتران على صورة قد تكون أكثر تفصيلاً، بين الحث على أداء الحقوق في المال، وبين النهي عن التبذير، والتنديد بالمبذرين بأنهم إخوان الشياطين.

ذلكم قول الله جل شأنه في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

فالذين يبذرون ويبعثرون: هم أخوان الشياطين. وإذا كان الشيطان كفوراً لربه فإخوانه المبذرون كذلك، ومن الكفران قبض الأيدي عن أداء الحقوق التي أوجبها الله في المال. ولقد يتضح ذلك أكثر وأكثر إذا كان المؤمن ـ وهو يجدُّ ويكدح ـ على ذُكر من أن المال مالُ الله وأن العباد مستخلفون فيه ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣].

إن هذه اللبنة من لبنات المنهج الرباني في البناء جديرة بمفردها، أن توقظ الغافلين وتثير همم المتقاعسين، حيث ترقى بهؤلاء وأولئك إلى أخذ ذلك المنهج المبارك الزاخر بالعطاء، نعم إلى أخذه بقوة أخذ يشعر بالمسؤولية، ولا على صعيد التصورفحسب، بل على صعيد التطبيق الذي يشمل ـ فيما يشمل ـ بناء الحياة على مختلف الأصعدة كما أراد بنا تبارك وتعالى، وكما قاد رحلة البناء والإنماء على هداه محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه عليهم الرضوان، ثم من تبعهم بإحسان على مر العصور والأزمان؟.



البناء.. وحراسة بُنَى المجتمع وآيات من سورة الأنعام

«٧»

نتابع اليوم اصطحاب المعلم القرآني في بعض من آيات سورة الأنعام وعطائه فيها، على صعيد النهج المبارك البناء الذي وجه الله إليه العباد في ممارستهم الانتفاع بما أفاض عليهم من الرزق، وما أسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة.. فبعد قوله تعالى في ختام الآية الحادية والأربعين بعد المئة من السورة المشار إليها: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال جل شأنه: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

كان الحديث في الآية السابقة عن الزروع والثمار وفي هذه الآية ـ كما نرى ـ حديث عن بعض النعم في الأنعام. وواضح في ذلك كله التذكير بأن الله هو الذي أنشأ تلك الألوان من الأنعم وأباح لعباده الانتفاع بها ليأكلوا من طيبات ما رزقهم منها، وقد هيأ لهم سبل ذلك ودلهم على النهج الذي يصون الحقوق وينمي الثروة، ويجعل من تلك النعم طاقة لها ـ حين تسيَّر في قنواتها الطبيعية ـ الأثر الكبير في بنيان المجتمع من جانبيه الاقتصادي والاجتماعي، كما يكون الاستمتاع بها على الوجه المطلوب بعيداً عن السرف والتبذير، مع أداء الحقوق الواجبة في المال لأصحابها، عنوانَ استقامة العبد في امتثال أمرا لله الرازق المنعم ونهيه، ووقوفه عند الذي يمليه الشكر له سبحانه؛ لأن ذلك مقتضى العبدوية الخالصة لله عز وجل.

وهكذا يدور الحديث في هذه الآية الكريمة على التذكير بنعم أخرى مما أنشأ الله للناس، وهي الأنعام، والدعوة إلى الانتفاع بها وفق ما شرع الرازق الرحمن، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان في ذلك لأن الشيطان للإنسان عدو مبين.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

فكما أنشأ ـ جلت قدرته ـ جنات معروشات وغير معروشات، والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه.. أنشأ من الأنعام حمولة صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار والخيل وغيرها، وفَرشاً لا تصلح للحمل عليها كالإبل الصغار والغنم،وسميت فَرشاً ـ كما يرى الإمام الطبري ـ لدنوها من الأرض، فهي إشارة إلى نماذج من تلك النعم ـ على هذا القول ـ وليست استقصاء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، الحمولة: ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبُون. وشاة لا تحمل: تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً.

ومهما يكن من أمر: فإن ما تزخر به الآية مما ذُكر: واضح الدلالة في التنبيه على إنشاء الله لتلك الألوان من الرزق المنعَم به على العباد، والتوجيه إلى النهج السليم في الانتفاع بها. ومن الجدير بالذكر أن ننبه على أهمية ما جاء من النهي عن اتباع خطوات الشيطان، مقترناً بالأمر بالأكل الذي هو للإباحة ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾. أمر للإباحة مقترن بتأكيد أن الرازق هو الله كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[الملك: ١٥].

وإذا ذكر الإنسان وهو يكد ويكدح في طلب الرزق ويجمع المال ويحرز الثراء: أنا لرازق هو الله تعالى، كان ذلك أدعى للارتقاء إلى المستوى اليقظ في سلوك النهج الذي أراده الله وشرع لعباده أن يسلكوه وهم يستمتعون بما رزقهم وينتفعون بتلك الأصناف من النعم، ومن هنا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فنسيان تلك الحقيقة حقيقةِ أن الله هو الرازق وهو الجدير أن يفرد بالعبادة وأن يُتمثل أمره ويجتنب نهيه في كل ما شرع وأحكم. نسيان مهلك يوقع في

حبائل الشيطان والهوى فيشيع الإسراف والتبذير، ويقع التظالم، فلا تؤدي الحقوق، ويبتدع المنحرفون من عند أنفسهم أحكاماً في التحليل والتحريم ليست من دين الله في شيء ما صنع أهل الجاهلية المشركون.

إن هذا التوجيه الرباني توجيه إلى إنشاء الواقع المبرأ من تلك الانحرافات في كل زمان، وتثبيتٌ للقيم التي تحفز إلى العمل الخير من داخل النفس وتنمية، الموارد الاقتصادية على النمط الذي يتحقق فيه نماء الثروة والتكافلُ الاجتماعي في ظل العبودية الخالصة لله.



البناء.. والمنهج العملي في التعامل مع النعم بدءاً من العهد المكي «٨»

ما جاء في الآيتين الحادية والأربعين بعد المئة وتاليتها من سورة الأنعام قبسٌ من ضياء المنهج الرباني في البناء، وهو المنهج الكريم الذي تبدى إشراقه منذ أول يوم في العهد المكي.. فكان من مقتضيات البناء الذي يتناول الإنسان والمجتمع والأمة.. أن يبدأ بكشف النقاب عن عوامل الهدم في تلك الأوضاع الجاهلية ــ على قاعدة التخلية قبل التحلية ــ كيما يزاح ركامها المؤذي من طريق البناء العاملين. ومن خلال ذلك كان يتبدى ما ينبغي الأخذ به؛ وما ينبغي اجتنابه في عملية البناء الكبرى التي بدأت تباشيرها في وقت مبكر من عمر الدعوة.

والآيتان المشار إليهما هما قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

والحق أن هذا التذكير بالنعم، والمنعم سبحانه والتوجيه إلى الطريق البديلة لما كان عليه الجاهليون، مما أشارت إليه آيات كريمات صحبناها في كلام سلف.. الحق أن هذا التذكير وفقاً لخطوات المنهج الرباني في البناء والتحضير له منذ العهد المكي: قد تعددت نماذجه في مواطن من الذكر الحكيم. نقرأ في ذلك مثلاً ما جاء في سورة النحل ــ وهي سورة مكية ــ من قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

على هدي هذه الحقيقة نتابع الرحلة مع المعلم القرآني وقد سبقت أن وقفنا على بعض من عطاء قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾. إذ إن ما جاء في هذه الآية بإجمال وما قاله العلماء بشأن الحمولة والفرش: يقودنا إلى آيات أخر تحمل شيئاً من التفصيل من الخير أن ننظر فيه. وعلى سبيل المثال لا الحصر: ها نحن أولاً نقرأ في سورة النحل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾. وفي سورة المؤمنون وهي ـ كما نعلم ـ سورة مكية نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢١ ـ ٢٢]. وتطالعنا سورة يس بقول الله جلت حكمته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

إنها الدلالة على النهج الذي ما بد من سلوكه في التعامل مع النعم، سواء ما ذكر منها في القرآن بتفصيل، أو ما يندرج منها تحت التسخير، مما يصل إليه العلم يوماً بعد يوم، وهو نهج يجمع إلى الانتفاع بالنعيم ـ عملاً بإباحة الله لها ـ: شكر الخالق بتسيير تلك النعم مسارها الطبيعي، وأداء ما يجب فيها من حقوق بعيداً عن السرف والتبذير. والواجب من وراء ذلك كله ـ وهذا على صعيد المجتمع الكبير ـ وضع ما تعطى هذه النعم من قدرات اقتصادية على طريق يضمن رفاه المجتمع وقدرته على العطاء في ظل شريعة الله، كما يضمن القوة الذاتية للأمة وهي القوة التي أمر الله بإعدادها للجهاد في سبيل الله الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، وهو ماضٍ إلى يوم المعاد.

البناء.. وأهمية التوجه إلى الاعتبار، إعمال العقل في المنهج المستقيم

«٩»

يطيب لي أن أعود معكم اليوم إلى الاستنارة بمزيد من عطاء المعلم القرآني في دلالته على النهج الذي وُجِّه العباد إلى سلوكه وهم يأكلون من طيبات ما رزقهم الله، ويستمتعون بما أودع في الكون من خيرات، وما يسَّر لهم من سبل الانتفاع بها، وأعطاهم مفاتيح ذلك حين أهّلَ الإنسان بالوسائل المطلوبة، وخلقه في أحسن تقويم.

وقِوام النهج المشار إليه ـ كما دلت آيات الكتاب المبين التي رأينا بعضاً منها في سورتي الأنعام والنحل ـ أن يكون التعامل مع أنعم الله وفق ما شرع سبحان، دونما عدوان على ساحة التحليل والتحريم، كما فعل أهل الشرك الجاهليون، ودونما نسيان لخالق تلك الأنعم الذي أنشأ ورزق وسخر للإنسان ما سخر في البر والبحر والجو كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

كل أولئك في ظل الشكر الذي تتحقق معه العبودية لله، وذلك بوضع النعمة موضعها أداء للحقوق، ومنعاً للظلم الاجتماعي، وتسييراً للطاقة الاقتصادية في قنوات منتجة تعود على الفرد والجماعة بالخير تحقيقاً للنمو، وتسهم في تقوية كيان المجتمع، والارتقاء به مرحلة بعد مرحلة إلى مستوى النماء المجدي والقدرة على العطاء.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤].

وكان آخرَ ما صحبنا من تلكم الآيات الآيتان الحادية والأربعون بعد المئة والآية التي تلتها وهما قول الله جل شأنه وتباركت أسماؤه:﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن من لمحات الإعجاز في المنهج الرباني.. أن علاج أية مشكلة على طريق القضاء على عوامل الهدم، والتوجيه إلى البناء النافع كيف يكون.. يصحبه ـ في الأعم الأغلب ـ استثارة للعقل كيما يتجاوز الأسداد التي ضربت عليه، ويعمل عمله بالنظر فيما تطلق الجاهلية من أحكام جائرة ليس على واحد منها دليل، وتتنافى مع أبسط الحقائق بله الإيمان بالله الذي خلق وأنشأ ورزق سبحانه، وتعبَّد عباده بالنهج الذي عليهم أن يسلكوه وهم يمارسون الحياة من خلال رزقه وأنعمه.

ها نحن أولاء نقرأ بعد قوله تعالى في خاتمة الآية الثانية والأربعين بعد المئة من سورة الأنعام المشار إليها آنفاً ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قوله جل وعز في مطالبة للجاهليين بإقامة الدليل على ما يزعمون من ألوان التحريم والتحليل: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

إن هذه التعرية لصنيع الجاهليين في التحريم والتحليل من عند أنفسهم، والكشفَ عن أن هذا الصنيع افتراء على الله الكذب عارٍ عن الحجة والدليل، بعيدٌ عن العلم وحكم العقل السليم... إن هذه التعرية جديرة بأن يتعاظم معها يقين الذين يتحركون على ساحات البناء والإنماء: بوجوب الأخذ بالمنهج الرباني، علماً وتخطيطاً وتنفيذاً.

وهو أخذ ما أعظمه عنواناً على الوجهة التي تنمو معها القدرات البشرية والطاقات الفاعلة في ظل العقيدة التي تكرم الإنسان وتُحل العقل مكانه اللائق في فهم الوحي، وإعطاء السليم من الأحكام.



سلامة بناء الفرد والمجتمع.. والتكامل بين الدنيا والآخرة في المنهج الرباني

شهدنا في مناسبات قريبات بعضاً من عطاء المعلم القرآني في مجموعة مباركة من آيات سورتي الأنعام والنحل، حيث الدلالة على النهج الذي أراد الله لعباده أن يسلكوه، وهم يأكلون من طيبات ما رزقهم، ويتقلبون بأنعمه التي أنشأها بقدرته.. فيشكروه ولا يكفروه، ويلتزموا أحكامه فيما أحل وفيما حرّم، فلا يتجاوزوا ذلك ــ كما كان يفعل أهل الجالية ــ إلى ابتداع أحكام من عند أنفسهم لم يأذن بها جل شأنه ولم يرضها.. ثم زعمٍ أنها من عند الله افتراء على الله... وقد أوضحت الآياتُ المنوه بها والتي تنزلت في العهد المكي لتزيل الركام الجاهلي الذي أضر بالفرد والجماعة.. وسار بالمجتمع سيرة الضعف والانحلال... أوضحت تلك الآيات أن المخالفة عن ذلك النهج الذي أراده الله لعباده: طاعةٌ للشيطان واتباع لخطواته وهو العدو المبين للإنسان ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

كما أوضحت أن تلك المخالفة التي تحمل ــ فيما تحمل ــ افتراء الكذب على الله ــ تجر أصحابها إلى عدم الفلاح في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

وأود أن أشير اليوم إلى أن امتثال أمر الله فيما شرع بشأن الاستمتاع بالطيبات التي رزق بها عباده، والانتفاع بما سخر لهم من خيرات وثروات.. كل أولئك يضمن لأهل الاستقامة على ذلك ــ وهو المتفضل سبحانه ــ أن تكون تلك الطيبات والنعم ــ بجانب ما أعطت من ثمرات البناء في الدنيا ــ خالصة لهم يوم القيامة فلا يشركُهم غيرهم في الجنة.

ها نحن أولاء نجد في التنزيل الحكيم ــ مكيّه ومدنيّه ــ آيات عدّة تبيح طيبات ما رزق الله وتدعو إلى الشكر والتزام النهج المستقيم في التعامل معها، من مثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ وقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾. وفي صورة مشرقة مباركة لتكامل المنهج الرباني الذي يُسلم المؤمنين الوقافين عند حدود الله إلى سعادة الدنيا والآخرة نقرأ قول الله جل وعز في الآية الثانية والثلاثين من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

فزينةُ الله التي أخرج لعباده والطيبتُ من الرزق وإن شرك المؤمنين الاستمتاعَ بها الكافرون في الدنيا: فهي خاصة يوم القيامة بأولئك المؤمنين لا يشركهم فيها أحد من الكفار: فإن الجنة محرمة على الكافرين. إنه الشمول في المنهج الذي يتسع للدنيا والآخرة جميعاً.. وينشىء في نفوس المؤمنين من الحوافز التي تجعل منهم أولئك البناة الخيرين الذين لا يعيشون في عزلة عن الحياة. ولكن يبنونها بإيمان وعمل وطمأنينة، وفي الوقت نفسه لا يحيدون عن الجادة، بل تراهم والدنيا بالنسبة إليهم: مطية الآخرة، فلا إفراط ولا تفريط ولكن بناء للإنسان والمجتمع على النهج الذي يمكّن للمؤمنين في الأرض ويتيح لهم نشر دعوة الحق والخير، ويسلم إلى الفوز بالجنة يوم الحساب.



تكامل البناء الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾

«١»

في أعقاب تطوافنا مع مجموعة من الآيات الكريمات في سورتي الأنعام والنحل: قادنا المعلم القرآن على ساحة ما وجه إليه الكتاب الكريم من وجهة بناءة بشأن الانتفاع بطيبات ما تفضل به الله على عباده من الرزق، والإفادة مما سخر لهم من عناصرَ لبناء الحياة ومقومات الوجود الذاتي الفاعل والمنتج في الكون.. قادنا هذا المعلم الكريم إلى قول الله تعالى في الآية الثانية والثلاثين من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله علماؤنا في بيان معنى الآية من أن المشركين يشاركون المؤمنين في طيبت الحياة الدنيا وزهرتها، ثم يستخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، ولا يكون فيها للمشركين شيء، فإن الجنة محرمة على الكافرين.. حتى أعمالهم التي تحمل سمة النفع والخير ينالهم أجرهم عليها في الدنيا نفعاً مادياً ورفة عند الناس وسمعة وما إلى ذلك.. وليس لهم في الآخرة من نصيب. ذلك لأن الأساس الذي يجعل للعمل وزناً عند الله ــ وهو الإيمان ــ: مفقود عندهم وليس كذلك المؤمنون الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فعملوا الصالحات وطوَّعوا تصرفاتهم ومنهج سلوكهم لما تقتضيه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وهكذا، ترى أن المؤمنين يهديهم ربهم بإيمانهم، فيجمع لهم بفضله إلى زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق: نعيم الجنة في الآخرة، والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهذا ما يرتفع بالمؤمن دائماً إلى مستوى العمل المثمر الذي يعود عليه وعلى مجتمع بالخير والنماء... ويحول دونه ودون الانحراف. وفي الوقت نفسه يجعله ـ بإيمانه ـ وما يثمر له من خير عند الله أقوى من العوائق والمثبطات... وعملية البناء الكبرى، على صعيد الإنسان والمجتمع: تحتاج أول ما تحتاج إلى تلك الكفايات البشرية التي تتمتع بقدر كبير من الاندفاع القائم على حوافز ذاتية من داخل النفس، والتي يكون لها من سمو الغاية المرجوة عند الله ما يستعلي بها على العقبات وكلٌ ما هو مدعاة لليأس أو الانحراف.

فمهما نال المؤمنَ من المتاعب في هذه الدار وهو يكدح على طريق البناء... يجد الأمر هيناً إذا قاسه بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة وأن الله تعالى لا يضيع عنده عمل عامل مهما كان شأن ذلك العمل. والآية التي نحوِّم في معانيها واضحة في هذا الذي نقول؛ فبعد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ جاء ما يكشف عن العطاء الإلهي وسببه ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إن الإيمان وهو القاعدة التي يبنى عليها عمل المؤمن: هو الذي كان سبب هذا العطاء الإلهي؛ فزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق هي للذين آمنوا في الدنيا يشركهم فيها الناس، لكن العطاء الإلهي في الآخرة خاص بهم بوصفهم مؤمنين.



مرة أخرى مع التكامل في البناء الثقافي... وغيره وآية الأعراف

«٢»

كثيراً ما يعين سياق الآية الكريمة وما سبقها وما تلاها على تبين المغزى المراد، وتجلية الأبعاد التي يأخذها ذلك المعنى كما هو في عطاء المعلم القرآني.

وددت أن أسوق هذه الكلمات تعقيباً على ما أسعدنا به قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾. وما أشهدنا ذلك من تلك اللمحة المضيئة في المنهج الرباني على ساحة البناء لشخصية المسلم بناءً يتسم بالقدرة على الاندفاع الذاتي، وتجاوز العقبات رغبة فيما عند الله، ويقيناً بأن الله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة، وذلك فارق ما بين المؤمن والكافر، فالمؤمن يستمتع ـ وهو على الجادة مستقيم العمل والسلوك ـ بخير الدنيا يبنيها وينميها وينفع نفسه ومجتمعه، وتكون له الجنة في الآخرة خالصة من دون الكافرين.. أما أولئك الذين عموا وصمّوا عن الحق ورانت على قلوبهم الضلالة.. فيأخذون حظهم من الطيبات في الدنيا، ولكن ليس لهم في الآخرة من خلاق.

ولقد سبقت الآية الكريمة المشار إليها بقول الله جل وعز: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ وقد ورد عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله أن يأخذوا زينتهم وهي ما يتزين به الناس من الملبوس عند الصلاة والطواف.

وكذلك روي عن عدد من التابعين وغير واحد من أئمة السلف في تفسير الآية أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة. تبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

فمشروع للعباد أن يستمتعوا برزق الله وما أنعم به من الخيرات دونما سرف، فالسرف حرام والله لا يحب المسرفين. إنها المنهجية البنَّاءة في التعامل مع أنعم الله التي يفيضها رزقاً على عباده ينتفعون بها دونما تجاوز التحليل والتحريم، دونما شح في أداء الحقوق، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾[الإسراء: ٢٩]. ودونما وقوع في السرف الذي كثيراً ما يؤدي إلى إضاعة المال، وبعثرة الثروة، وإلى إهدار الحقوق الواجبة في ذلك المال، الأمر الذي يؤدي إلى الظلم الاجتماعي، وإدخال الوهن إلى بنيتي المجتمع الاقتصادية والاجتماعية؛ لذا كان المبذرون إخوان الشياطين وقد أشرنا إلى ذلك في كلمات سلفت عند الذي رأينا من اقتران الأمر بأداء الحق الواجب في المال، وبين النهي عن الإسراف فيما جاء في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ حيث أذكرنا المعلم القرآني ما جاء في سورة الإسراء من قوله جل شأنه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].



التكامل في البناء.. التسخير وعلاقة الإنسان. الكون والحياة «٣»

النهج الذي دعي العباد إلى التزامه في التعامل مع النعم التي أنعم الله بها عليهم والرزق الذي يسَّر لهم مفاتيحه فيما سخر لهم من كونه في البر والبحر والجو.. هذا النهج ـ كما رأينا في سور الأنعام والأعراف والإسراء والنحل ـ: يتسق تمام الاتساق مع الذي فطر الله عليه الإنسان وأودع فيه من الاستعداد والميول.. وتلك هي الواقعية الحكيمة التي تتمثل في ذاك الاتساق، بحيث ترى أن العلاقة بين الإنسان ـ كما خلقه الله وكونه وأعده للخلافة في الأرض ـ وبين الكون والحياة: علاقة تُسلم في ظل الاستجابة الصادقة لدعوة الحق إلى البناء الذي يتسم بالسلامة، ويحقق ـ مع كرامة الإنسان وطمأنينته ـ الوجود الذاتي المتكامل لمجتمع متماسك قوي، وللأمة التي شاء الله أن تكون ـ بالإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس.

وفي رحلة مع هذه المقولة ألقينا عصا التسيار عند قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقادنا النظر فيها إلى الآية التي سبقتها، لما أن بين الآيتين الكريمتين لوناً من التكامل هو من سمات الكتاب المعجز، في التوجيه البناء إلى أن يكون المؤمنون، وهم يرتادون لأنفسهم وللبشرية طرائق البناء للإنسان والمجتمع.. أن يكونوا على النهج الذي يبدو على غاية التواؤم مع سنة الله في علاقة الإنسان بالكون والحياة. والآية المشار إليها هي قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ وقد أشرنا فيما سلف من القول هناك إلى سبب النزول حيث كان المشركون يطوفون عراة حول البيت وجاء الأمر الرباني باللباس عند الصلاة والطواف، كما أشرنا إلى حكمة الاقتران بين الدعوة إلى الاستمتاع بالنعمة والانتفاع بها، وبين النهي عن السرف الذي كثيراً ما يؤدي إلى بعثرة الثروة والظلم الاجتماعي، وإدخال الوهن على المجتمع في بنيته الاقتصادية والاجتماعية.

وفي السنة مزيد من الإيضاح لهذه القضية المهمة على صعيدي التصور والتطبيق في المجتمع. فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مَخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده**» وفي رواية للنسائي وابن ماجه «**كلوا وتصدقوا والبسوا من غير إسراف ولا مَخيلة**» والمخيلة: الكبر، ومن هنا قال ابن عباس رضي الله عنهما «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان سرف ومخيلة» أرأيت إلى هذا التكامل في المنهج وإلى التوازن في حركة الإنسان نفسه كما خلقه الله وكونه وفي علاقته بالحياة.

إن المؤمن يتحرك على ساحة البناء مطمئناً دونما عقد ولا أمراض نفسية ولا رغبة جامحة في تجاوز الحق، وكل أولئك ضمن منهج رباني حكيم، لأن الإسلام وجه علاقته بالكون والحياة التوجيه الواقعي الذي يتواءم مع حقيقة مع فُطر عليه الإنسان بحكمة الخالق الذي خلقه في أحسن تقويم، فسوَّاه فعَدَله، ومع الصورة المثلى التي شاء الله أن تكون لعلاقته بالكون والحياة.

وقد أثمر ذلك في ظل الاستمساك بهدى الإسلام أقوم حضارة وأمثلها كما تشهده الوقائع وتنطق به مظاهر العطاء الخيِّر للإنسان ونصرة الحق عبر القرون.



مع آيتي الأعراف... وتكامل البناء والبُنى

« ٤ »

نعود اليوم مرة أخرى إلى الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف وهما قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

نعود إليهما لنقتبس من عطاء المعلم القرآني فيهما ما يهدي إلى لون من التكامل، له أثره الملحوظ في النهج الذي وجّه العباد إلى سلوكه وتطويع النفوس له عند التعامل مع أنعم الله التي أنشأها لعباده ورزقهم من طيباتها. فالزينة التي أمر بنو آدم بأخذها: مقصود بها ـ كما رأينا من قبل في سبب النزول ـ اللباس عند الصلاة والطواف؛ لأن المشركين كانوا يطوفون عراة في البيت الحرام، فجاء التوجيه الرباني إلى الأدب الواجب مع الله ومع بيته المطهّر. ثم تبع ذلك ما يرى في الآية من دعوة إلى الاستمتاع بنعم الله، وأوضح صورة لذلك ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ واقترن ذلك بالنهي عن السرف والوعيد الشديد عليه ﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وأي وعيد أشد من أن الوقوع في هذه المهواة مجلبة لعدم محبة الله تعالى.

وينتقل بنا التوجيه الرباني الحكيم على ساحة البناء المتكامل للإنسان في تصوراته ومشاعره وفق ما فطره الله عليه.. وعلى ساحة الممارسة لشؤون الحياة والتعامل مع ما أودع الله في هذا الكون من خيرات وما سخر منه للإنسان من أنعم لا تعد ولا تحصى...

ينتقل بنا هذا التوجيه إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فمن توجيه إلى أخذ الزينة وهي الملبس هنا في حالة معينة وإباحة الانتفاع بالرزق مع النهي عن السرف والتوعد عليه ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ إلى نظرة كليّة عامّة بهذا الشأن وهي أن الله تعالى قد أباح لعباده أن يتمتعوا ضمن الحدود التي رسمها في التحليل والتحريم: بما أخرج لهم من زينة في الحياة الدنيا، وما أباح لهم من طيبات الرزق وقد جاء هذا التقرير على صيغة الاستفهام الإنكاري ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ الذي يقتضي أنه ما من أحد يملك أن يخالف عن أمر الله فيبتدع ـ كما كان يفعل الجاهليون ـ تحليلاً وتحريماً من عند نفسه. وإذا حصل ذلك فهو عنوان الضلال، وأشد منه ضلالاً أن يُفترى على الله الكذب، فتنسب تلك الأحكام الجائرة التي تحول دون العباد، ودون أن يفيدوا مما رزقهم الله من نعم وأن يستمتعوا بما أخرج لهم من زينة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

وهكذا نجد لوناً من التكامل بين الآيتين الكريمتين، يبرزه التدرج من الجزئية في الموضوع، إلى الكلية التي تنمُّ عن سمو المنهج الرباني واتساقه مع ما خلق الله عليه الإنسان وكوّنه، ومع الطريقة التي شاءها سبحانه لتعامل الإنسان مع الكون المسخّر والحياة.. الأمر الذي يسعف الإنسان في تحقيق ما خلقه الله من أجله عبودية له وحده في العقيدة والشريعة، وإدارةً لحركة الحياة الحياة بانشراح صدر وطمأنينة على الوجه الذي يشيع النماء والخير في المجتمع، ويسيِّر الطاقات والإمكانات في قنوات مأمونة، وذلك ما يقتضيه المنهج الرباني في البناء. وذلك ما حققته الأجيال التي أخذت بالإسلام عقيدة وعلماً وعملاً وسلوكاً فكانت الحضارة الفضلى وكان الخير العميم.

وجوب التنبه.. للإعلام المعادي

« ١ »

من الحقائق التي لا تقبل الجدل: أن تناجي اليهود بالإثم والعدوان عندما كانوا يرون واحداً من الصحابة، في حقبة الموادعة بينهم وبين المسلمين: كان نوعاً من الخبث الإعلامي يقصد من ورائه إدخال شيء من القلق والرعب في نفوس بعض الأفراد من المسلمين، وأن الله تعالى كشف هذا الزيف، وزاد في إيمان المؤمنين وثقتهم بربهم وصدق توكلهم عليه، الأمر الذي يثمر زيادة الثقة بالنفس، وينفي خبث الحرب النفسية التي يمارسها العدو مستغلاً تلك الموادعة التي كانت بين اليهود والمسلمين ولكم ما جاء في سورة المجادلة من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

ودلالة هذه الواقعة واضحة في أنه لا بد ـ مع الإيمان ـ من الأخذ بالأسباب، وتلك سنة الله في الكون. المؤمنون ـ وهم مؤمنون ـ يأخذون بالأسباب ويُعدُّون العُدَّة كما أمرهم الله تعالى ويتوكلون عليه، تأسياً بما كان صنيع قدوتهم وإمامهم رسول الله ﷺ، حيث كان في دعوته وهجرته وجهاده وبنائه للمجتمع والدولة: يسير على مقتضى السنن الكونية التي برأها الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فتراه لا ينفك يُعدُّ لكل أمر عدته في حدود المستطاع، ولا يهمل أن يأخذ بأيٍّ من الأسباب المشروعة التي يمكن الأخذ بها. أما أن يكرمه الله بالمعجزة: فذاك أمر آخر، لكن السير مع السنن الإلهية في الكون مع صدق التوكل على الله: هو الأساس.

وكل أولئك يقع مضموماً إليه صدق اللجأ إلى الله وطلب العون والنصر منه سبحانه؛ لأن الأمور بيده، وما النصر إلا من عنده وهو الحكيم الخبير.

لذا رأينا هنا أن الآية القرآنية في مواجهة صنيع اليهود عملت على تثبيت القلوب، وطمأنة النفوس كيما يكون المسلمون قادرين ــ بعون الله ــ على اتخاذ الموقف المناسب ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وهذه شعبة أخرى من شعب الضياء في المعلم القرآني. اليهود يرمون إلى إثارة نوع من الرعب وخلخلة الثقة بالنفس. ويأتي المعلم النيِّر الكريم هنا، ليثبِّت في أعماق النفوس أن النجوى التي يمارسها اليهود: من الشيطان، والغاية هي إدخال القلق الحزن على الذين آمنوا، ولكن ذلك ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، وإذن فليتحرر المؤمنون من كل نوازع الخوف والترقب المرهق، وليتوكلوا على الله فهو حسبهم ونعم الوكيل. والآجال بيده لا يقرِّبها إقدام ولا يؤخِّرها إحجام، وهو ناصرهم إن هم نصروه.

والمؤمنون يعلمون حق العلم أن التوكل إنما يكون توكلاً حقيقياً صادقاً، إذا اقترن بالعمل والعزيمة الصادقة في الأخذ بالأسباب المطلوبة الممكنة، وإلا كان نوعاً من التواكل.

والذين تسوِّل لهم أنفسهم أن التوكل يعني التواني والتكاسل والقعود عن الأخذ بالأسباب ــ ثقةً بما عند الله ــ على زعمهم، يجنون على أنفسهم ويجنون على الحقيقة الإسلامية في هذا. شأنهم شأن أولئك الذين يزعمون أن الأخذ بالأسباب هو كل شيء، ولا يلتفتون إلى حقيقة أن النصر من عند الله، وأن نتائج الأخذ بالأسباب من خلقه سبحانه وتعالى؛ فلا بد من الجمع ــ كما كان يفعل رسول الله ﷺ وهو نعم الأسوة للمؤمنين في كل زمان ــ حين يستوفي الأخذ بالأسباب المتاحة، ولا يني يطلب النصر من الله، ويلجأ بخشوع وخضوع إليه سبحانه.

من أجل هذا: لعلي لا أبعد النجعة إذا استوحيت من ضياء المعلم القرآني وما اكتنف معانيَه من وقائع: أن من المهمات على طريق الدعاة والمربين المصلحين اليوم ــ والأمة تطمح إلى تحقيق غايات كبار ــ تنميةَ القناعة بما توجبه العقيدة من تحقيق التكامل بين الأخذ بالأسباب، وصدق التوكل على الله.

وكـان ذلك هنا صـورة مـن صـور الإعـلام الذي ينطلق من بواعث الخـيـر والبـر ويتحرك على ساحة الكلمة الصادقة والعلاج الناجع في مواجهة الأسلوب الإعلامي المنحرف عند العدو.. وهو واحد من أسلحة المواجهة كما علمنا القرآن، وبيّن رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

والمسلمـون اليـوم ـ وهـم يُسـامـون الخـسف والهـوان ـ بأمس الحـاجـة في شـتى بقـاعـهم إلى تنمـيـة الطاقـات الإعـلامـيـة ضـمن منهج مـدروس يجـمـع بين الأصـالة وإدراك الواقـع، لتـغطيـة المتـغـيـرات في العـالم الإسـلامي، والوقـائع التي تلدها التحديات والتصرفات الجانحة صباح مساء.

ومن الضـرورة بمكان: أن تـكون إيحـاءات المعـالم القـرآنـيـة واضـحـة في الأذهـان توجـه العـاملين البناة، وتـأخـذ بأيديهم إلـى مـرابع النجـاة العلميـة والإعـلاميـة كـمـا يريدها الإسلام.

مـرة أخـرى: إن آية سـورة المجـادلـة هذه ــ وقـد نزلت تكشف عن مكر يهـودي، وتحـرر المسلمين من إسـار هذا المكر وذيوله ــ: هـي مـعلم من مـعـالم البناء المشـرقـة، ودعـوة إلى تنميـة الطاقة النفسية، والقـدرة الإعلامية الخيرة عند المسلمين ــ أن لو شاء ذلك أهل الحل والعقـد ــ واستـخدام الأسلوب العلمي النافع عند المواجهـة، على قاعدة من الإيمان والصدق في نشدان الحقيقة ولله عاقبة الأمور.



وجوب التنبه.. للإعلام المعادي

«٢»

ما أكثر ما تزخر به معالم القرآن من منابع الهدى والضياء، وما أكثر ما يجد المسلم نفسه مشدوداً إلى الواقع من خلالها؛ فهي تحل مشكلاته وتنير ما أظلم من دروب.

ولقد أذكرني ما كنا بسبيله في كلمات قريبات، بواقعة إعلامية أخرى، حشد فيها المشركون طاقاتهم الدعائية بكل الوسائل المتاحة، لإلصاق التهمة برسول الله ﷺ وأصحابه بأنهم قاتَلوا وقُتِلوا في الشهر الحرام؛ وما دام الأمر كذلك: فقد سقطت الأقنعة، وما على العرب جميعهم من وراء قريش إلا أن يكونوا معها في القضاء على هؤلاء الذين لا يرعون للأشهر الحرم حرمة، ولا يقيمون للأعراف الموروثة عن الآباء والأجداد أيَّ وزن.

وجاء الرد القرآني عليهم بأن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن ما صنعه مشركو قريش أكبر، وفتنة المسلمين عن دينهم أكبر من القتل، وامتد رواء الهداية إلى تنبيه أهل الإيمان على أن الصراع مع الشرك وأهله: صراع على كلمة التوحيد، ولن ينقطع الجاحدون عن قتالكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومن يرتد منكم عن دينه فمآله الخسران المبين.

والحق أن ذلك الطرح المنصف، المثقل بالتوعية، ورد القضية إلى جذرها الأصلي، كان تنبيهاً للغافلين، وإيقاظاً لمن قد يؤخذون بضجيج الدعاوى، والصياح الفارغ من هنا وهناك؛ وتُلفيه على طريق المسلمين المثقلة بالأعباء: معلماً مباركاً علّم أهل الإيمان كيف تردُّ الأمور إلى نصابها، وفتح للأمة آفاقاً في المواجهة الإعلامية وبواعثها وذيولها، لا يحدها عصر من العصور، ولا مناسبة محدودة بلون من الملابسات.

ذلك بأن رسول الله ﷺ ـ كما تذكر المصادر ـ بعث عبد الله بن جحش الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى بسرية ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يسير يومين فينظر فيه فيمضي كما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما سار عبد الله يومين فضَّ الكتاب فإذا فيه: «أن سر حتى تنزل بطن نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارهم»؛ فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوصِ، فإنني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فسار وتخلَّف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان أضلاَّ راحلة لهما وتخلفا يطلبانها، وسار عبد الله حتى نزل نخلة فإذا عيرٌ لقريش تحمل زيتاً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي وكان ذلك في آخر يوم من رجب من السنة الثانية للهجرة.

وبعد أخذ ورد وقدر كبير من التشاور قالوا: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتنعنَّ منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلُنَّهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، وكان أن قتلوا عمرو بن الحضرمي وأخذوا أسيرين والعير، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

وقالت قريش حين بلغها الأمر: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال ـ وعلى لغتنا اليوم ـ حشدوا كل طاقتهم الإعلامية المتاحة يومذاك.

ومن كثرة ما قيل، أُسقط في أيدي عبد الله بن جحش وإخوانه، وظنوا أنهم قد هلكوا وحاول اليهود استغلال الواقعة، وتفاءلوا أن تكون بداية لمصاعب على طريق المسلمين.

فلما أكثر الناس في ذلك ــ كما يقول ابن إسحاق ــ أنزل الله على رسوله ﷺ قوله جل ثناؤه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[البقرة: ٢١٧]. تلا ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

هكذا حاول المشركون تضليل الرأي العام في جزيرة العرب وإثارة الناس ضد الإسلام وأهله من طريق استغلال الواقعة التي حصلت، وإعطائها حجماً يقصد من ورائه التعمية على ما قاموا ويقومون به من الأذى وفتن الناس عن دينهم، بما يملكون من أساليب لم يكن أقلّها التعذيب والتهجير والتهديد بالقتل وما إلى ذلك.

وجاءت الكلمة القرآنية لتبين حكم ما حصل ولتضع الواقعة موضعها الطبيعي ضمن حقبة تاريخية تمتد إلى ما يقرب من خمسة عشر عاماً في مكة والمدينة بينهما، وتواجه ادعاءات مشركي قريش وما قاموا به من ضجيج إعلامي حول صنيع عبد الله بن جحش وإخوانه رضي الله عنهم، يهدف إلى إحداث رأي عام ساخط على رسول الله ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ودعوة الإسلام، ولتعالج المشكلة من طيق المواجهة بالحقيقة مفصّلة بأرقامها ووحداتها، بأسلوب غاية في الإنصاف والتوجيه الحكيم الرشيد. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ قال يا محمد ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ ولكن أين هذا القتال في الشهر الحرام مما صنعته وتصنعه قريش!! فالصدٌّ عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، وإخراج أهل هذا المسجد منه ــ وهم أهله ــ واضطرارهم إلى الهجرة أو الاستخفاء: أكبر عند الله من قتل من قُتل من المشركين وهو عمرو بن الحضرمي...

والفتنة أكبر من القتل؛ فقد كان هؤلاء الذين يزعمون الغيرة على حرمة الأشهر الحرم يفتتون المسلم في دينه بألوان الأذى حتى يردوه إلى الكفر؛ فذلك أكبر عند الله من القتل.

أقول بعد هذه الرحلة القصيرة التي قد لا يتسع لأطول منها المقام: إن في هذا المعلم القرآن دعوة للمؤمنين في كل عصر أن يزيدوا من تنمية الوعي عند الفرد والجماعة، وتبين الحقائق بإنصاف، وبناء القوة القادرة ــ بإذن الله ــ على مواجهة كل سلاح بما يفلُّه.

ألم يقض القرآن في هذه الآية الكريمة على شائعات قريش ودعاواها المشبوهة بالحقيقة معلنة صارخة، فأنصف في الحكم، ونبَّه وأيقظ على أدق وجه وأكمله، وحال دون أن تسيطر الغفلة على المؤمنين، أو أن يهتزوا لضجة إعلامية يصطنعها العدو، أو تمويهٍ يفتريه ليكسب مظاهرة الآخرين على الحق وأهله؟ بلى قد أنار طريق الأمة بذلك وبأكثر منه والعطاء القرآني لا تحدُّه واقعة أو زمان.



اليقظة والتنبه للإعلام المعادي

«٣»

في ضوء المعلم القرآني الذي ألمحنا إلى بعض إشراقاته من قريب: يجد الناظر المتأمل لوناً من الواقعية والتربية على الصدق فيها إلى جانب البناء الذاتي، وتنمية المشاعر في مواجهة الحرب النفسية، وما يمكن أن يثير العدو من شائعات يراد من ورائها ما يراد.

دل على ذلك قوله تعالى - والخطاب للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه -: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ بعد قوله جلّ وعلا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام. قل يا محمد قتال فيه كبير.

هذا هو الحق، ولا يغني من الحق مواربة أو مداجاة بل لا بد أن تقال كلمته بوضوح وصدق.

فالواقع أن القتال حصل في الشهر الحرام وإن كان الأمر قد التبس على عبد الله بن جحش وأصحابه بسبب أنها كانت آخر ليلة من جمادى الآخرة.

فلينطق المسلمون بالحق، مهما كانت صفة من يجادلهم أو يحاورهم في شأنه؛ فمن علامات أهل الحق، أن لا يضيع عندهم الحق، وأن يقولوه ولو على أنفسهم؛ لأن ذلك مقتضى الإيمان.

إن القرآن - على طريق بناء الذات، والثقة بالنفس - يعلِّم الأمة أن دعاوى المشركين المضلِّلة ومحاولتهم استغلال قتل عمرو بن الحضرمي، لا يصح أن يَحملَ على التحول عن الحق قِيدَ أنملة، وهذا ما يجب أن يكون ديدن المسلم في رحلته الطويلة عبر الحياة بكل ما لها وما عليها، وعبر ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

ولقد يعلم الكثير في عصرنا الحاضر، أن الإعلام عندما يرتفق بالحق دائماً، ويزين خطابه للناس صدقُ الكلمة، وسلامةُ المواقف، يكونُ ذلك مبعث الثقة فيما يقال أو يكتب أو ينشر، وعلى العكس من ذلك؛ عندما يستهان بالإنسان، فيزيَّن له الباطل، ويطلب منه أن يشك في مفهوماته اليقينية البدهية، لكثرة ما يُرى ويُسْمع من عناوين تتناقض مع المضمونات، ومضمونات لا نسب بينها وبين بعض العناوين، صنيعَ أعدائنا اليوم ومن ورائهم الطغاة من بني جلدتنا حين يريدون منا أن نكون ألواحاً خشبية يكتبون عليها ما يريدون، ويمسحون عنها ما يشتهون.

ولكن ـ لا والله ـ ما خُلق المسلم لهذا، وقد أكرمه الله بكتاب أحسن بناءَه، وسنة أحكمت إعداده وتربيته على أسس هذا البناء، وعملت على أن تنمي فيه طاقات الخير، ومشاعر الوعي، فهو يخوض الحياة حين يخوضها شعارها قول عمر رضي الله عنه: «لست بالخَب ولا الخِب يخدعني» والخَبُّ أو الخِبُّ: الخدَّاع وهو الجُربُزُ الذي يسعى بين الناس بالفساد.

وإنما يصاب بالضعف أمام ذلك من يصاب من المسلمين: حين يدبرون عن ساحة الوعي وخصائص البناء.

وهكذا كان من منهج القرآن في إبطال دعاوى المشركين وضجيج إعلام في أمر القتال في الشهر الحرام وما وقع من واحدة من سراياه عليه الصلاة والسلام: أن قررت الآية الكريمة التي نزلت في ذلك أن القتال في الشهر الحرام كبير، وكان ذلك أدعى لإخراس ألسنة السوء، وأكثر تنميةً لبواعث الثقة فيما يقال، وأعمق تنبيهاً للمسلمين على مر العصور أن لا تحملهم الرغبة في الدفاع عن النفس ورد تهمة صدرت عن العدو: أن ينزلوا إلى مستوى يتجاوزون فيه الحق ـ ولو جزئياً ـ إلى الباطل.

من أجل ذلك كانت النقلة إلى المرحلة التالية التي جرى الإلماح إليها فيما سبق من القول بشيء من الإجمال؛ فالقتال في الشهر الحرام كبير، ولكن صنيع المشركين أكبر وأكبر. وعلى هذا: فالجناة الجناة هم أولئك الذين يجاهرون الله بالعداوة،

فيعدلون به الأوثان والأنداد، ويحاولون القضاء على الدعوة التي تحمل للإنسان معاني وجوده، وعملوا ـ ويعملون ـ على فتن الناس عن دينهم بأشد وأقسى أنواع الأذى مما عرف يومذاك.

وبعد ذلك ينوحون ويُعولون، تظاهراً بالغيرة على حرمات الأشهر الحرام، في تديُّنٍ مصطنع ما أشبهه ببعض دعاوى اليوم وخرافات هذا الزمان!! حيث يقضي على الإنسان المسلم باسم الإسلام، وإذا تسنى له أن يشكو، فالويل له من حكم المنطق الحضاري المزعوم، لأنه لا يتعامل مع الجزارين بذوق حضاري!! ولا بسلوك يتفق مع حقيقة الدين!!.

فأية فتنة يريد المشركون أن يشعلوا نارها تحت ستار ما جرى من عبد الله بن الحضرمي وإخوانه؟!.

إنها السهم الذي ارتد إلى حلوقهم من خلال بيان منصف حكيم، وتوجيهات ناجعة في الواقعية والتنمية الحقة والبناء الذي لا تعوزه النباهة واليقظة، ولا يعرف الجورُ في الحكم إليه سبيلاً.



البناء.. والتجربة والإعلام المعادي

« ٤ »

لقد كانت صورة مشرقة من صور الهداية الربانية؛ تلك التي سلكها القرآن الكريم لبناء المسلم من خلال التجربة والمعاناة، بجانب تلقين المعرفة، والتربية على أصولها المتصلة بعقيدة التوحيد.

وفي حديث موصول برحلتنا القريبة العجلى، وفاءً بوعد المزيد من محاولة الانتفاع بدلالة المعلم القرآني في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾ الآية: يحسن التنبيه على هذه الصورة العملية ـ التي تشارك فيها عدة عوامل ـ في بناء المسلم والمجتمع المسلم من خلال التجربة، والتي كانت جدّ واضحة في النقلة من تقرير حقيقة أن القتال في الشهر الحرام كبير ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إلى مواجهة المشركين بما يتناسونه من الوجه الآخر للقضية، وهو حقيقة موقفهم الجائر المؤذي من دعوة الإسلام، والمسلمين ـ وهم الفئة القليلة المؤمنة الصابرة ـ بل من المسجد الحرام نفسه.

وكم لهم على طريق الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، والإصرار على فتنة السملمين عن دينهم من مثالب كلها أذى، وكلها عدوان على الحق وإنسانية الإنسان، واستعلاءً ـ بالوثنية والتقليد الأعمى والافتراء على الله بأحكام ما أنزل سبحانه بها من سلطان ـ على التوحيد الخالص والدعوة إلى التحرر العقلي من سلطان الجاهلية المقيت؛ الأمر الذي يجعل حجم واقعة «بطن نخلة» أصغر بكثير مما صوّره عليه المشركون، إذا قيس بما يصنعونه منذ بدء الدعوة، حمايةً للباطل الجاهلي وأركانه المضلّلة في مواجهة الحق الذي نزل به الكتاب.

وفي واقعنا مع أعدائنا اليوم ـ على تنوع المستويات والميادين ـ ما يشدُّ إلى قراءة جديدة لهذا الحدث بين المسلمين وأهل الشرك؛ لننظر من خلالها إلى هذا الواقع من حيث الزيف الإعلامي والتضليل الفكري، ونفيد من طريقة القرآن في مواجهة الأذى ومحاصرته بعلم وقوة وواقعية على الوجه الذي ينبغي.

والحق أنها تجربة عملية رائدة، زادت في قدرة المسلم على ساحة البناء، وردّت الذين كفروا بغيظهم لم يتحقق لهم ما أرادوه من تأليب العرب على الدعوة وأهلها، وضاعفت من إثارة المشاعر المستوفزة في مواجهة الشرك وأهله؛ ذلك بأنها حركته بالعقيدة من أعماقه وقادته إلى مواجهة الباطل بالحقيقة الناصعة المحميّة بالمؤمنين المجاهدين من الرجال، ووضعته في قلب المشكلة عنصراً فعَّالاً مؤثراً، لا واحداً من النظَّارة يُعجَب أو لا يعجب بمشهد مسرحي يمر أمام ناظريه.

أرأيت إلى هذه الطامات الكبار يسردها القرآن واحدة بعد أخرى، والمسلمون في غمرة الواقعة بين مؤيد ومعارض أول الأمر لما حصل في السريَّة، بسبب ما هوَّل المشركون، وضاعفوا من عويل الحرب النفسية، والإيحاءات الباردة المثيرة هنا وهناك!!.

إن المشركين الجفاة الذين يتباكون على انتهاك حرمة الشهر الحرام ـ شهر رجب ـ وقتل نفس فيه وأخذ العير وأسيرين: هم الذين صدوا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام بمختلف الوسائل، التي كان منها تقطيع أواصر القربى، ومحاولة التصفية الجسدية، مع التعذيب الدامي لكل من نطق بالشهادتين وصبأ ـ على زعمهم ـ عن عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، وخرج عن دين الآباء والأجداد، وخالطت بشاشة الإيمان قلبَه.

من أجل قتيل واحد في الشهر الحرام، تقيمون الدنيا وتقعدونها، وفي الوقت نفسه لا يختلج لكم عرق أمام عدد من القتلى والمعذبين والمشردين، حتى كأن تنكيلكم بالمسلمين أمر مشروع وحق مكتسب، والحادثة البسيطة التي وقعت منهم مع احتمال التأويل ـ فيها ـ يجب أن تقوم لها الدنيا وتقعد.

وكان جميلاً وآيةً بلاغة وروعة أسلوب: جَعْلُ القرآن الكريم الوقوف في طريق المسلم صداً لا للشخص نفسه فحسب، ولكنه صد عن سبيل الله بإطلاق، كما هو واقع المسلمين مع أعدائهم اليوم. ثم إن المشركين لا يخجلهم التناقض حين يندبون حرمة الشهر الحرام، وهم يكفُرون مقيمين معقدين بالله تعالى رب الزمان والأشهر كلها، وفي مقدمتها الأشهر الأربعة الحرم.

إنهم يكفرون به سبحانه ويتخذون من دونه أولياء، ويعبدون أوثاناً لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

كما أنهم مقيمون على الكفر بالمسجد الحرام وهو بيت الله الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

نعم كفروا به حين ملأوا جنباته ـ وهو بيت التوحيد ـ بالأصنام وصاروا يطوفون حوله عراة مع الصفيرو التصفيق ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال:٣٥].

البيت الذي هو بيت توحيد الله وعبادته، وموئل الطائفين والعاكفين والركَّع السجود: يتخذون منه مقراً لأوثانهم، ومكاناً يعبدون فيه تلك الأوثان!! ـ وأين من هذا الرجس: طُهْرُ هذا البيت المعظَّم وصفاؤه ونقاؤه ـ.

ناهيك عن خرافات وكهانات تجري في ظل البيت وهم مصدقون لها، موقنون بأثرها في تسيير شؤون الحياة؛ الأمر الذي يتنافى كل التنفاي مع دعواهم الإيمان بالله الواحد الفرد الصمد.

هذا وإخراج المؤمنين من المسجد الحرام عنوة ـ وهم أهله ـ أكبر عند الله من مقتل الحضرمي.. هذا الإخراج الذي تمثل في اضطرار المسلمين إلى الهجرة غير مرة. وكان آخر ذلك هجرتهم إلى المدينة المنورة، تلك الهجرة التي كانت مفرق الطريق، ولوناً من ألوان الابتلاء العظيم احتمله المسلمون بكمال الرضى والاعتزاز، وكان لهم بذلك ـ ولإخوانهم الأنصارا لذين آووهم ونصروهم ـ عند الله الخير في الدنيا والفوز الكبير في الآخرة.

ألاً إن في معطيات هذا المعلم القرآني على ساحة البناء من خلال التجربة والمعاناة في ظل التوجيه الرباني: زاداً على الأمة ــ وهي تملكه ــ أن تقيد منه في مواجهة التحديات الإعلامية وإحكام البناء لجيل المستقبل، وتنمية الوعي الحقيقي عند المسلم لدينه، ولما حوله كائناً ما كان موقع هذا المسلم والثغرُ الذي أقامه الله عليه.



البناء.. والفتنة عن الدين وتعرية الإعلام المناوئ

« ٥ »

في بيان مفصَّل واضح عدَّد القرآن الكريم ـ كما رأينا في كلمات قريبات ـ تلك الأفاعيل التي كان المشركون يقومون بها في صراعهم مع دعوة الحق وأهلها المستضعفين وكان منها: الصد عن سبيل الله، والكفربه، والمسجدِ الحرام، وإخراج المسلمين منه وهم أهله الأدنون، وصاحبَ هذا التعداد إعلانٌ أن هذا الذي يجترحه مشركو قريش أكبر عند الله من القتل الذي وقع على يد سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه في الشهر الحرام؛ وهكذا شهد مسارُ الدعوة مواجهة الباطل وتزييفه الإعلامي بالحق الصراح، وتفنيداً رقميّاً لهذا الباطل، زلزل من الجذور الحملة الإعلامية التي كانت سلاحاً في حرب نفسية مقصودٍ بها زلزلةُ قلوب المسلمين وتأليب الناس في الجزيرة عليهم.

إذ إن كل من كانت لديه مسكة من عقل، عندما يقارن بين الذي صنعه المسلمون، وبين الذي صنعه ويصنعه المشركون، يجد الفرق واضحاً، وتتبدى له الأغراض المنويٌّ تحققها من وراء هذا التهويل، خصوصاً إذا لاحظنا أن حادثة هذه السرية جاءت في أوائل العهد المدني أي بعدما يقرب من خمسة عشر عاماً من البعثة، خمسة عشر عاماً تمضي والحرمات المقدسة كلها تنتهك في محاربة الإسلام واضطهاد أهله والتنكيل بهم تنكيلاً. أخرجهم من المسجد الحرام وهم أهله، حتى إذا قتل واحد من المشركين وأسر اثنان عادت للمقدسات حرمتها فأصبح انتهاكها ـ على ما زعموا ـ معرَّة وشيئاً إدّاً!!.

تلك هي تلبيسات جاهلية الأمس... وما يعانيه المسلمون من جاهلية اليوم أشد وأعتى... كل المظالم التي تقع على رؤوسهم في أصقاعِ العالم. وفيها عالَمهم لا تتنافى مع المفهوم الحضاري، فالنفوس والأموال والأعراض: حمىً مستباح وحق مضيع ما دام الانتهاك واقعاً على أرواح المسلمين وأموال المسلمين وأعراض المسلمين.. حتى إذا بلغ السيل الزبى وبدرت بادرة من قبلنا ـ مهما صغر حجمها ـ في صقع من الأصقاع ترفع جوراً أو تؤدب عدواً أو تشكو ظلماً بصوت مسموع تقوم الدنيا وتقعد، وينادي بحماية حقوق الإنسان من هؤلاء الذين لا يحسنون التعامل بطريقة حضارية؛ إذ كيف يحق لهم أن يشكوا أو أن يعترضوا!!.

والمنجاة من ذلك: تغيير جذري في مسار هذه الأمة يصلها بالمنهج الذي دل عليه هذا المعلم القرآني. ونقطة البدء بناء للإنسان المسلم وتنمية طاقاته الإيمانية والعملية من خلال الإعداد بالعلم والإعلام، وتزويده بالإحاطة بالواقع وما يكتنفه من ملابسات، والتجربة والمعاناة. وصنيع القرآن فيما نشير إليه واضح كل الوضوح.

وكل هذا الذي قلناه ينبغي أن لا ينسينا ما أعطيت الفتنة عن الدين الحقّ من الاهتمام عند المواجهة؛ ذلك أن أعتى صور التحدي هي محاولة فتن الناس عن دينهم على صعيد الفرد والجماعة. ويا لعظمة القرآن في الرد على إثارة الرأي العام عند عرب الجزيرة من خلال هذا الموضوع.

فبعد أن بيّن الله تعالى أن الصد عن سبيل الله والكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، أفرد الفتنة عن الدين فقال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

أجل: فتنة المؤمنين والمؤمنات عن دينهم الحق الذي به تسعد البشرية جمعاء: أكبر من قتل إنسان واحد همُّه قتل الحق وأصحابه، وهو القتل الذي حاول المشركون من خلال التهويل من وقوعه في الشهر الحرام استغلال حادثة ابن الحضرمي.

فالمسلمون في الواقع ـ أزاحوا عقبة من طريق الدعوة إلى الله، وإن كان القتال في الشهر الحرام كبيراً كما بيَّن القرآن بنصفة وعدل.

إلا أن هؤلاء الذين أزهقوا روحاً واحدة وهم يستطلعون أخبار قريش بعد أن أذن الله بالقتال في قوله جل شأنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]. إن هؤلاء البررة يحملون للناس دعوة الحياة والإنقاذ من الجاهلية الضارية على قلوبهم بالأعداد؛ فليوضع هذا في الحسبان.

وسبحان الحكيم الخبير فيما أنزل من قرآن وما علّم وربّى أصفياءه المؤمنين على ما به يكونون قادرين على حمل العبء، لا في جزيرة العرب فحسب، ولكن على طريق الإنسانية جمعاء. فالرسول ﷺ الذي كتب الكتاب لعبد الله بن جحش حين وجهه إلى بطن نخلة قد أرسله الله للناس كافةً بشيراً ونذيراً وجعل منه رحمة للعالمين، وعبد الله وإخوانه يقومون بمهمة في ظل هذه الرسالة التي واجهتها قريش ــ وقد جاءت بالعربية لفتيها ــ بالأذى والعتو الكبير عن الحق الواضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

إلا إنه الحرص على الإنسان أن يحمل العقيدة السليمة التي تكون محور استنارة قلبه وعقله، وقاعدةَ وجوده الذاتي، وموجه حياته، الأمر الذي ينقذه من الهلكة، ويجعل منه لبنة صالحة في بناء منشود لأهل النهى على صعيدي المجتمع والأمة. وفي ذلك ما فيه من خير لأخيه الإنسان على وجه هذه المعمورة.

فإذا فتن عن دينه: كان الأذى عاماً لا خاصاً، وإن كان منقلبه عند الله نعم المنقلب!! إذ ليس من المغالاة في شيء ــ لولا تحكُّم الهوى والحقد الدفين ــ أن يعلن في الناس أنه عندما يفتن أعداء الله واحداً من المسلمين عن دينه؛ ذكراً كان أو أنثى، فقد جنوا على الأمة من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وأضروا بمعتصم الإنسانية مما هي فيه من الويلات وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وضخامة هذا الأمر ــ في ميزان الحق ــ جعلت الإكراه الملجيء القاسي عذراً في نطق كلمة مخافة لما في القلب؛ لأن الامتحان قد يكون عسيراً كلَّ العسر كما يقع في هذا الزمان﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٥ ــ ١٠٦]. إلى أن يقول جلَّ ذكره في تبشير الذين هاجروا من بعدها فتنوا ثم جاهدوا وصبروا بإكرامهم بالمغفرة من عنده: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ قال المفسرون: نزلت الآيات في عمار بن ياسر رضي الله عنه: فقد أخذه المشركون فعذبوه واشتدوا في تعذيبه حتى أعطاهم مكرهاً كلمةً أرادوها منه، فقال الناس: إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: «**ن عماراً ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي: فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: مطمئناً بالإيمان قال: «**إن عادوا فَعُدْ**».

ومن أجل ذلك أيضاً كان الوعيد في سورة البروج منصباً على أولئك الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم ثم لم يتوبوا بعذاب جهنم وعذاب الحريق في قصة أصحاب الأخدود. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[البروج: ١٠].

وإذا علمنا أن الفتنة عن الدين قد اتسعت ميادينها اليوم، فلم تعد مقصورة على التعذيب والتنكيل وإزهاق الأرواح بشتى الأساليب: بل تجاوزتها ــ ويا للويل ــ إلى ما هو أوسع من ذلك، كان علينا أن نضع في الحساب: وجوبَ المزيد من العناية الموضوعية في بناء الإنسان المسلم الصابر المصابر، بحيث نجنب فتياننا مزالق الفتنة في الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئيَّة وما يتصل بالكلمة مما قد يكون أكثر تأثيراً في النفس منها، وقد تجتمع هذه وتلك على هذا التأثير، ونحول دونهم ودون أن تكون مناهل العلم والإعلام في ديارنا أو في غيرها مداخل انحلال وزعزعة لانتماء الدارس إلى دينه وأمته وتاريخه لا سمح الله.

إن المسلمين يتعرضون في كثير من الأقطار لأذى الفتنة عن الدين ــ وكان الله للأطفال الذين تفرزهم حملات الأعداء الشرسة ــ ولكن سعة ميادين الفتنة عن الإسلام وقيمه بوصفه منهجاً ربانياً للدنيا والآخرة، لا بد أن تواجه بتهيج يحمل كفاية البناء المتسم بالعمق والشمول، وتنمية طاقات الخير بمنهجه وتساوق مع سنن الله، كي يكون شبابنا وشاباتنا إن شاء الله قوة فاعلة على طريق لا يغني معها إلا بنية قادرة على تحمل التبعات داخلاً وخارجاً، وعلى المواجهة التي تنوعت أسلحتها من السذاجة ــ بل والغباء ــ بمكان جهلها أو تجاهلها.



أثر الوعي.. في البناء ومواجهة الإعلام المعادي

«٦»

ثم ماذا بعد الذي رأينا في ظل واحد من المعالم القرآنية أشرقت به الآية السابعة عشرة بعد المئتين من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية.. من دروس في إحكام البناء العقلي والنفسي ــ بعد الإيمان ــ لمواجهة تحديات الأعداء وما يشهرونه من سلاح الحرب النفسية وإطلاق الشائعات الظالمة وقلب الحقائق.

لقد أخذ القرآن بأيدي الأمة إلى ساحة الحقيقة كما هي، وأعلن ــ مع النصفة في الحكم ــ عن سوء صنيع أهل الشرك والضلال، وأن اتهامهم المسلمين بسفك الدماء وانتهاك حرمة الشهر الحرام، لا يغيِّر من هذه الحقيقة شيئاً؛ فهم ــ على صراخهم الإعلامي واستغلالهم ــ موضع المؤاخذة بصدهم عن سبيل الله وكفرهم به والمسجد الحرام، وإخراج المسلمين الذي هم على النبع الأصيل من عقيدة التوحيد التي من أجلها رفعت قواعد البيت.. إخراجهم من المسجد الحرام وهم أهله الأدنون، وإن ذلك ــ وكله طامات وظلمات ــ أكبر من القتال في الشهر الحرام.

ثم ماذا أيضاً بعد الذي رأينا من أهمية إفراد الفتنة عن الدين بخاصة، بعد الذي سردت الآية من أعمالهم، وأن الفتّن عن الدين لا يقتصر على حالة واحدة، وأن وسائل الفتنة اليوم كثيرة؛ منها الواضح البيِّن، ومنها المقنَّع المزخرف صنع شياطين الإنس والجن.

وهذه هي الآية أوردها حرصاً على رد الأفكار إلى منابعها فيما أشرق به المعلم القرآن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

الواقع أن الآية ختمت ــ كما نرى ــ بالتذكير بهذه الحقيقة التي هي من إخبار رب العالمين الذي يعلم ما تنطوي عليه نفوس عباده ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فهي حقيقة قرآنية وليست من اجتهادات البشر واستنتاجاتهم، والواقع دائماً يؤيدها.

هذه الحقيقة هي التي ينطق بها هذا الختام للآية وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ انظر إلى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ التي تفيد الاستمرار وإلى الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾. وتلا تقريرها بذا الشكل الصريح القاطع أشدَّ الوعيد لمن يرتدد عن دينه فيموت وهو كافر فقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ألا ما أشد احتياج أمتنا وهي تتطلع إلى مستقبل تعود فيه إلى ما كانت عليه من القوة والتمكين والكلمة المسموعة في العالمين ــ ناهيك عن الاستقلالية في صنع القرار ــ إلى مثل هذا الدرس العظيم والانتفاع به!

فالله تعالى يخاطب المسلمين ــ بهذا الوضوح ــ أن الكفار لا يزالون ــ بوصفهم كفاراً ــ يقاتلونهم جاهدين في ردِّهم إلى الكفر، حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا. قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الكلمات: أي ثم هم مقيمون على أخبث من ذلك وأعظم غير تائبين ولا نازعين.

وإذا نظرت إلى السياق وسبب النزول: تبيَّنت بيُسر ما يفهم من تقرير هذه الحقيقة في أعقاب ما مضى في الآية: من أن إطلاق الشائعات الظالمة، وإثارة العرب ـ زوراً وبهتاناً ـ من حول الفئة القليلة المؤمنة، بقلب الحقائق، وتحمل الوقائع ما لا تحمل: هو جزء من هذا القتال الذي يحمل طابع التعنت والاستمرار حتى تتحقق الغاية من ورائه.

وأين هذا الذي هو الإصرار على قتال المسلمين حتى يرتدوا عن دينهم ـ لا سمح الله ـ من دعوى المشركين أن المسلمين قد انتهكوا بصنيعهم حرمة الشهر الحرام، ولم يقيموا وزناً للقداسة والمقدسات!!.

إن الآية تلقي بالعنوان الذي وضعه الأعداء جانباً، وتكشف عن الهدف الحقيقي لسدنة الكفر والضلال المبين، وهو إضعاف المسلمين، وإعادتهم إلى خطائر القطعان التائهة في ظلمات الجاهلية، بتحويلهم عن وجهة الخير التي هداهم إليها محمد عليه الصلاة والسلام، وأخرجهم بهدي القرآن من الظلمات إلى النور.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا يؤخذن المسلم بالشائعة الموجَّهة يطلقها العدو، ولا بالكلام المنمّق الذي لا يراد من ورائه إلا التنديد المؤذي بأهل الإيمان، ولْيضع ذلك كله ـ وما هو منه بسبب ـ في موضعه من إصرار الكفرة على قتال المؤمنين جاهدين حتى يرودهم عن دينهم إن استطاعوا.

والوعي الحقيق: أن يكون المسلم على الأرض الصلبة في بنيته الفكرية والشعورية، تصديقاً بالثوابت التي يقررها القرآن الكريم، أو بيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن لا يؤخذ بالبهرج والزيف أو ضخامة التهويل، ولن يردَّ الجزئيات إلى الكليات والوقائع إلى بواعثها، ناظراً إلى ما وراء الأكمة؛ فدائماً على ساحة التعامل مع الآخرين: وراء الأكمة ما وراءها.

وحس العرض للباطل واللعب بالألفاظ ـ في اغتنام للفرص ـ: لا يغيِّر من هوية هذا الباطل، ولا يحيله إلى حق؛ ولذلك حذَّر الله المسلمين ـ وهم يتحركون تحت راية الصراع بين الحق والباطل ـ من الاستخذاء أمام هذه القوى العاتية التي لا تدع سلاحاً إلا استخدمته في عدوانها على الإسلام وأهله.

أجل حذرهم الهزيمة النفسية والمادية، والتهاون أو التفريط بالعقيدة التي شرفهم الله بها، وصبروا على الأذى، وهاجروا ونصروا من أجلها، إذ إنها مناط سعادتهم بل سعادة الإنسانية ـ أن لو انصاعت لها ـ في الدنيا والآخرة.

ومن وقع في شرك الردة فتحول من الإيمان إلى الكفر ومات على ذلك، فقد حبط عمله، وأصبح هباءً منثوراً؛ فلا سعادة في الدنيا ولا فوز في الآخرة، ومن وراء ذلك جهنم وساءت مصيراً.

أرأيت إلى ما جاء في الآية الكريمة بعد التنبيه على ما هو ديدن الكفار، من الرغبة العارمة في أن يرتد المسلمون عن دينهم: كم يحمل من الوعيد الذي نومىء إليه؟! يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

إنهما عقوبتان كل واحدة أدهى من أختها؛ حبوط الأعمال ـ هلاكها ـ في الدنيا والآخرة، والخلود في النار. ويستوقفك تعبير ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ إنهم لكثرة لصوقهم بجهنم واستدامة العذاب فيها: يبدون كأنهم مالكوها، فهي لهم وهم أصحابها نسأل الله لطفه ومعافاته منها ومن كل سبب من أسبابها.

إن هذا الذي حدث قبل ألف وأربعمائة عام تقريباً على يدي كفار قريش هو الغرض الدائم للكفرة ـ كما تدل الآية ـ مع المسلمين بوصفهم مسلمين ـ قبل أن يحسنوا أو يسيئوا ـ على اختلاف العناوين وتنوع الميادين.

فليذكر ذلك فيتياننا وفتياتنا، شبابنا على كل صعيد وفي كل ساحة من ساحات الحياة. أنت ـ بالتزامك للإسلام إنصافاً واستقامة سلوك ـ لا تبدأ الآخرين بالعدوان. ولكن هذا لا يعني أن تكون غافلاً عن الحقيقة أو مغفلاً تنطلي عليه الحيلة ويبعثر فِكْره الزخرفُ أو الضجيج الإعلامي وما هو على شاكلتهما.

وليذكر الجميع في مواجهة الهجمات الشرسة على هذه الأمة نتيجة للمتغيرات في العالم الإسلامي قول خبيب رضي الله عنه وهو يستقبل الموت صَلباً في سبيل الله:

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً على أيِّ جنبٍ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يَشأ يباركْ على أوصال شِلوٍ ممزَّعِ

وكم هو عظيم عى صعيد الفاعلية والتأثير: أن يترجم ذلك إلى منهج ينظم المسيرة، ويقضي على بوادر الضعف.

وصدق ربنا إذ يقول في محكم تنزيله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].



بعد المواجهة الإعلامية
سرية بطن نخلة.. والفرج بعد الشدة
«٧»

لمتسائل أن يتساءل عن الموقف الآخر من عبد الله بن جحش وإخوانه رجال سرية بطن نخلة رضي الله عنهم، بعد أن بدا أن بعض الصحابة من إخوانهم لم يعجبه ما صنعوا في أعقاب ما أطلق المشركون من الشائعات ونشروا من التهويل في شأن القتال في الشهر الحرام، وأن محمداً ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ينتهكون حرمة الأشهر الحرام.

بل قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: **«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»** فوقف العيرَ والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وأشرت من قبل إلى قول قريش، قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام.. قال ابن إسحاق: فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ الآية.

والحق أن الآية الكريمة بما أعطت لكل شيء قدره: كانت عنوان فرج عن أهل السرية وتزكية لعملهم بل فرجٍ عن المسلمين. قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل نزل القرآن بتزكية بعد تزكية لعبدالله وإخوانه، فلهم أجر المجاهدين في سبيل الله؛ لأن القضية في أصلها كانت خروجاً في سبيل الله امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ برصد قريش وأخبارها في نخله وإعلامه بذلك. وتهويل قريش المصطنع لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً.

جاء في رواية ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]. فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

وهكذا زكى الله عمل رجال هذه السرية، ووعدهم أجر المجاهدين في سبيل الله، حين ذكر هجرتهم وجهادهم في سبيله، وأن ذلك مفتاح الرجاء برحمته سبحانه ومغفرته العظيمة؛ فقد امتثلوا ـ كما ذكرت آنفاً ـ أمر رسول الله ﷺ ونفذوه بأمانة وشجاعة ابتغاء مرضاة الله ورسوله، وتوغلوا مغامرين بأرواحهم في أرض العدو وعمقه مسافاتٍ شاسعة، غير مبالين بما قد يودي بهم إلى القتل في سبيل الله... فعلوا ذلك كله عن رضًى وطمأنينة، دليلَ صدق الإيمان والحرص على الشهادة؛ فإن أميرهم لم يكره أحداً منهم عملاً بوصية الرسول الكريم صلوت الله وسلامه عليه، ولكن خيَّر ما بين الإقدام والإحجام؛ فاختاروا الإقدام ومتابعة التوغل في طريق قد تنتهي بهم إلى الموت.. وقد آن أن تعلم قريش أن الدعوة المباركة لم تعد في موقف الضعف، ولكن مرحلة جديدة مغايرة قد بدأت والحمد لله.

لقد كان المعلم القرآني الذي أشرق به قوله تعالى بعد الذي حصل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية رحباً في العطاء، رحباً في بعث الثقة بالنفس، ما دام الأمر في طاعة الله تعالى، وتنمية الدرة الذاتية من داخلها على مواجهة الأعداء بفهم وروية في شتى الميادين، ومنها هذا الميدان الإعلامي المضاد.

وكان رحباً في تمهيد الطريق لمن يدعون إلى ساحات الجهاد ضمن ظروف لا يعدم الأعداء فيها وسيلة يبتغون من ورائها تثبيط الهمم، وتفتيت القوى، وإحداث البلبلة في الصفوف، والانهزام النفسي عند المقاتلين.

وقد آل ــ بحمد الله ــ أمر الخطة التي دبرها الأعداء إلى الإخفاق، بل ارتدت سهامها إلى نحورهم، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا يأملون؛ فقد الطبيعي. والتذكيرُ الرباني بتلك الطامات من صنيع المشركين في مقابل دعوى ما ادعوا وأذاعوا وأشاعوا: لم يبق مجالاً للهوادة مع الصادين عن سبيل الله الكافرين به وبالمسجد الحرام، مخرجي المسلمين منه وهم أهله وذووه، العاملون على فتن الناس عن دينهم، المقيمون المقعدون على أخبث غاية وهي رد المسلمين عن دينهم غير تائبين ولا نازعين.

وتداعى رجال الأنصار إلى الاكتتاب في السرايا والبعوث التي يخرجها الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، بعد أن كانت تتألف غالبيتها من المهاجرين، حتى انتهى الأمربعد شهر إلى غزوة بدر الكبرى يوم الفرقان في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة المباركة.

وهكذا قاد رسول الله ﷺ حركة الجهاد في سبيل الله بإحداث التحوُّل النفسي عند قريش والعرب من ورائها عن طريق السرايا وما يتصل بها، وعملت هذه السرايا ــ ومن عيونها سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه وعن إخوانه ــ عملاه على طريق مخاطبة قريش ومن وراءها باللغة المناسبة التي كان لا بد منها.

صحيح أن غزوة بدر قد جاءت على غير أجل متوقع أو موعد مضروب، ولكن التمهيد العام المزدان بحكمة النبي ﷺ وحسن تصريفه للأمور في المواجهة العسكرية والاقتصادية والفكرية: كان واقعاً بلا ريب.

وقد ظهرت في معركة الفرقان آثار البناء في ظل معالم الكتاب وتربية النبي عليه الصلاة والسلام، ووضح لكل ذي عينين أن عملية البناء الحقيق في كيان خير أمة أخرجت للناس، كانت عملية شاقة بلا ريب، ولكن ثمراتها كانت عظيمة النفع، حاضراً ومستقبلاً للفرد والمجتمع والأمة.

ولقد يتضح ذلك أكثر وأكثر، عندما يحسن المرء التصور، فيضع في حسبانه عند التقدير لعملية البناء أن الأمة المحمدية صاحبة رسالة شاء الله أن تكون منهج حياة لا ينفصل فيها الدين عن الدولة، ولا الدنيا عن الآخرة.

وتلكم هي الأمــة المسلمــة التي رضي الله لهــا الإســلام ديناً ووعــدها على الاستمساك به وتبلغيه الناس، والصبر على مشاق ذلك: سعادة الدارين، وجنات تجري من تحتها الأنهار هم فيها خالدون.

والرجال الذين خاض بهم محمد ﷺ غمار التاريخ، هم أولئك الذين سلمت لهم محاور البناء وتنمية قدرتهم وكفاياتهم من خلال التربية على الدعوة إيماناً وعلماً وعملاً وحرصاً على تقوى الله والجهاد في سبيله، ومن خلال التجربة والمعاناة الدقيقة العميقة؛ كالذي حصل لرجال سرية نخلة عليهم الرضوان أولئك الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ وما كان من انعكاسات ذلك على الصف الإسلامي في إعطائه مزيداً من تنمية طاقات المواجهة والقدرة على الثبات في وجه الزعازع والمفاجآت.

وبذلك استطاع شباب الإسلام ورجاله أن يكونوا ـ بعون الله ـ شيئاً بالغ الأهمية على ساحة التاريخ.

وقد هدانا المعلم القرآن إلى أنه كلما كان البناء أثبت وأحكم: كان الإنسان أقدر على تمحيص الأمور، وأكثر وعياً لما وراء الكلمة وزخرفة العناوين؛ فكم من حملات إعلامية وشائعات ظالمة مجافية للحق، ومؤلفات ونشرات تطلق، ولا يراد من ورائها إلا التضليل والتشكيك، والأمثلة من واقع المسلمين مع العاقّين من أبناء الأمة، والأعداء الظاهرين والأخفياء في كثير من الدول: تطالعنا وتجرح أكباد الذين تؤرقهم هموم الأمة صباح مساء.

ويفترض ـ في المقابل ـ أن يحكَّم التكوين الذي يعطي المناعة ويتابع العطاء، ويضع الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على ساحة الحقيقة كما هي، وأن يكون لدينا السلاح الذي نقدم من خلاله تلك الحقيقة ناصعة الوجه، واضحة المعالم بما يحرسها ويحميها من الهدم والهدامين والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سلاح الكلمة والشعر سورة الشعراء.. والبناء الإعلامي وصورة التكامل في مواجهة التحدي

« ١ »

سورة الشعراء سورة مكية بدئت بالإشارة إلى أن الآيات القرآنية هي آيات الكتاب البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد، ثم بخطاب النبي ﷺ خطاباً يبدو تسلية له عليه الصلاة والسلام، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ١-٣]. أي لعلك قاتل نفسك غماً من أجل أن أهل مكة لم يؤمنوا ويكونوا في عداد من استجاب لدعوة الحق.

وختمت هذه السورة المباركة بآيات تكشف عن حقيقة الشعراء الذين ظلوا على كفرهم، واتخذوا من شعرهم سلاحاً يحاربون به دعوة الإسلام ورسول الله والمسلمين وعن عاقبة أمرهم عند الله. كما تكشف عن حقيقة الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأكثروا من ذكر الله، ووقفوا شعرهم على نصرة الدين، والذود عن حياضه، وشد أزر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وتلكم الآيات هي قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية الرابعة والعشرين بعد المئتين: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧]. وواضح أن فواتح السورة ترمي ـ والله أعلم ـ إلى التبصير بموقع القرآن الكريم من حياة البشرية وإلى تنمية الإدراك بكونه ـ وهو كتاب هداية ونور ـ فيصلاً بين الحق والباطل، وبين الرشاد والغي على مدى الزمن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ وقد تكرر ما يدل على ذلك في كثير من المواطن.

ثم إن الحق الذي نزل به هذا الكتاب المبين لا بد من الإخلاص في الدعوة إليه، وصدق الرغبة في أن يستجيب الإنسان لهذه الدعوة؛ وذلك ما كان من رسول الله ﷺ، فقد كان يعاني ما يعاني من إعراض المشركين، وأذاهم، ولكنه في الوقت نفسه يتقلب على الجمر حزناً ألا يستجيبوا لدعوة الحق، ويكاد يهلك نفسه حسرات ألا يكونوا مؤمنين مصدقين ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

فالله تعالى يسليه ويدعوه إلى الإشفاق على نفسه من هذا الهم الشاغل الذي يكاد يهلكها كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وكما في قوله جل ذكره: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦].

غير أن الدعوة إلى الحق، لا يكفي معها صدق الرغبة في الاستجابة والتحرّق من أجل الإيمان، بل لا بد من إعداد ما يجب على ساحات الصراع بين الحق والباطل، والتسلح في مواجهة التحدي.

وهذا بعض ما دلَّت عليه الآيات التي جاءت على ذكر الشعراء؛ فقد استُخدم الشعر سلاحاً إعلامياً في معركة الصراع من قبل المشركين، وبعد ذمهم الدقيق المعلَّل بما يجترحون: أثنى الله على شعراء الصف الإيماني الذين استخدموا هذا السلاح ــ في ميدان الإعلام ــ مؤمنين يعملون الصالحات، ويذكرون الله كثيراً فنصروا الحق وأهله، ونافحوا بشعرهم عن رسول الله. وإنه لدرس يوجب ــ كما سنرى فيما بعد ــ تنمية الإحساس الصادق عند الجيل بدعوة الحق، والتسلح بكل سلاح مشروع يُجدي في ساحة الصراع بين الحق والباطل؛ ومن ذلك سلاح الكلمة لتبصير الناس بحقيقة ما يجري، وما هو حق وما هو باطل، وجمعهم على ما فيه قوتهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة.

والتهيج في وضع الأمور مواضعها على ساحة الصراع: أمر على غاية الأهمية والله وليّ المجاهدين الصابرين.

الشعر والكلمة المؤمنة...
والبناء المتكامل في الإعلام والمواجهة
«٢»

كان من صور التكامل في بناء المسلم بناءً يمكّنه من أداء الرسالة ومواجه ما يعترض من تحديات وعقبات ـ ما وقفنا عليه المعلم القرآني في سورة الشعراء ـ وهي سورة مكية ـ من إظهار أولئك الذين اتخذوا من الكلمة الظالمة سلاحاً في مواجهة دعوة الحق وأهلها، وهم شعراء المشركين: على حقيقتهم، فهم واقعون في الغواية ولا يتبعهم إلا الغاوون، وواقع هؤلاء الشعراء ناطق بما نبه عليه القرآن الكريم، جاء ذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

والأمر الذي يدل على واقعية القرآن: ما نجد من توجيه المسلمين إلى أن بمقدورهم ـ وهم يصارعون الشرك والجاهلية ـ: أن يستخدموا الشعر سلاحاً ـ من منطلق العقيدة ـ سلاحاً صادق الإعلام يذودون به عن حياض الرسالة ويردون كيد الأعداء في نحورهم، إذ كان منهم الافتراء وهجاء الرسول عليه الصلاة والسلام.. وهذا التوجيه نجده في ذلك الاستثناء الذي حملته الآيات التاليات، فبعد قوله جل شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ جاء قوله سبحانه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

وقد أشرت في كلام سلف، إلى أن هؤلاء الذين منحهم الله موهبة الشعر وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وكان منهم العمل الصالح بمفهومه الشامل العميق، وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا.. هؤلاء الشعراء ينالون شرف المشاركة العملية في

الصراع الذي تدور رحاه بين الإيمان والكفر، إنهم يشاركون بسلاح فعّال هو سلاح الكلمة في ميدان الشعر، ولذلك ما له من تأثير في النفوس وقدرة على التأثير في الناس، وتيسير الاقتناع بالفكرة المطروحة التي يراد إيصالها إلى العقول والقلوب.

ولقد منّ الله على العديد من أولئك الذين كانوا ينطقون بالكلمة الكافرة الفاجرة في مواجهة رسول الله ﷺ والمسلمين.. فثابوا إلى رشدهم ودخلوا في عداد أهل الإيمان، ومن هؤلاء عبد الله بن الزبعرى الذي قال حين أسلم مخاطباً رسول الله عليه الصلاة والسلام:

يا رسول المليك إن لساني راتِق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجاري الشيطان في سنن الغيِّ ومن مال ميله مثبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم ـ عن حرية وقناعة ـ: لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله، وأصبح يمدحه صلوات الله وسلامه بعدما كان يهجوه. هكذا يقدم المنهج القرآني الحقيقة بكل أبعادها ليكون المسلم على بينة من أمره، وهو يخوض معارك الحياة في كل عصر، ويعمل على بناء الحضارة التي تسعد الإنسان.

وتنميةُ الإحساس بحجم الكلمة يلقيها الإعلام العادي، وضرورة استخدامها بصدق وموضوعية على أرض الصراع درس من الدروس التي تمليها تلكم الآيات من سورة الشعراء. وكلما ازداد إدراكنا لأهمية الكلمة والوظيفة التي تؤديها على ساحة الإعلام.. اتضحت لنا الحكمة في عناية القرآن بهذا الجانب من جوانب العلاقة بين المسلمين وأعدائهم، وأن ميادين الجهاد نصرةً للحق مشرعة الأبواب، ومنها الجهاد بالكلمة المسؤولة المؤمنة وإذن فلا بد من البناء الصحيح في هذا الميدان على تنوع شعبه في ذُكرِ لما كان من الثناء القرآني على أولئك المجاهدين الصادقين بالكلمة وهو قوله جل وعز: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

أبعاد الكلمة.. والبناء الإعلامي وسورة الشعراء

« ٣ »

تطور الوسائل التي تستخدم بها الكلمة وتنوُّع ميادين هذه الكلمة، نثراً كانت أو شعراً، أو غير ذلك مرئية أو مسموعة بكل ما وصل إليه العلم من صنوف وأساليب.. كل ذلك يدعونا إلى الإفادة من مراحل التقدم والتطوير على ساحة التعليم والإعلام، دونما عدوان على الأصالة، أو الغفلة عن مرتكزات الأمة في كتاب ربها، وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك إغناء لطريق الفرد والمجتمع، فكراً ووعياً لما يدور في دنيا الواقع وقدرة على استخدام الكلمة بفاعلية في مواجهة التحديات.

والآيات التي ختمت بها سورة الشعراء أشارت ـ كما رأينا فيما سلف من القول ـ إلى حقيقة واقعة في العصر الجاهلي هي وضع الشعر في خدمة الكفر وأهله على ساحة الصراع بين الحق والباطل، وذلك ما صنعه شعراء الكفر والضلالة، وفي المقابل: وضعُه في عصر النبوة في خدمة الإيمان وأهله والذود عن رسول الله ﷺ، وذلك ما صنعه أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الشعراء، وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا.

والفئة الأولى هي الظالمة، ظالمة لنفسها، وللآخرين، بل ظالمة للحق تُظاهر الباطل وأهله عليه، وعاقبة ذلك واضحة فيما حمل قوله تعالى في ختام السورة: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ من التهديد والوعيد بسوء المصير في الدنيا والآخرة.

والحق أن النظرة المتأملة التي لا تهمل الواقع، ولا الحجم الذي تأخذه الكلمة على صعيد الإقناع والمواجهة والتعرف على حقيقة الأحداث ودلالاتها القريبة والبعيدة.. الحق أن هذه النظرة المتدبرة تقودنا مرة أخرى إلى التبصُّر في تلكم الآيات التي كانت خواتم سورة الشعراء وهي قول الله تعالى بدءاً من الآية الرابعة

والعشرين بعد المئتين: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

لقد تنزلت هذه الآيات المكية ورحى الصراع بين الوثنية والتوحيد دائرة، وشعراء الكفر يهجون النبي محمداً ﷺ ويعملون على صد الناس عن دعوته؛ لذا قال كثير من علماء التفسير: أريد بالذمِّ والوعيد في الآيات، هؤلاء الشعراء، الذين كانوا يؤذون رسول الله بالمهاجاة والسيء من القول في شأن القرآن ومنهم: عبد الله بن الزبعرى السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وسافع بن عياض الجُمحي، وأمية بن أبي الصلْت الثقفي، قبل أن يُسلم من أسلم منهم، إذ تكلموا بالكذب، وتسافهوا بالباطل في حق النبي ﷺ ودعوته، وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمد، ويجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجونه عليه الصلاة والسلام وأصحابه، ويروون ذلك عنهم، يحدثون بذلك ضجة إعلامية فكرية على زعمهم؛ فذلك قوله جل وعز: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ وقيل: الغاوون هم السفهاء والضالون عموماً، وفيهم مردة الشياطين وعصاة الجن.

وبالنسبة لمن استثنوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية: يدخل فيهم شعراء الأنصار وغيرهم. حتى يدخل فيهم من كان متلبِّساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ـ كما يقول ابن كثير ـ وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء؛ فإنا الحسنات يذهبن السيئات وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه كما قال عبد الله بن الزبعري حين أسلم. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومهما يكن من أمر: فإن عناية القرآن بهذا الجانب من الصراع بين الكفر والإيمان على الصعيد الإعلامي: يدعو إلى مزيد من العناية ببناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على دعوة الحق فكراً وعملاً وقدرة على تبين السلاح الذي يستخدمه العدو ومنه سلاح الكلمة في نطاق الإعلام، ليكون قادراً بموضوعية ومعرفة على مواجهة التحدي والله في عون العالمين الصادقين.

أبعاد الكلمة البناءة سورة الشعراء..
وأسلحة المواجهة الإعلامية
« ٤ »

أهمية الكلمة وأبعادها في ميدان الاتصال والإعلام عموماً، وما يجب من إدراك للواقع الذي يحمل ما يجري على ساحة الأحداث ذات العلاقة بالأمة المسلمة على وجه العموم، أو بفريق من أبنائها، أو قطر من أقطارها على هذه المعمورة.. كل ذلك يعطي مزيداً من الأهمية لما كشفت عنه خواتم سورة الشعراء حين عرضت للشعراء عموماً، وكشفت الزيف واستخدام الكلمة لنصرة الباطل، وخطر ذلك على المجتمع، ثم استثنت أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا، وتوعدت الظالمين بسوء المنقلب في الدنيا والآخرة وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

لقد كانت الخطوة الأولى على الطريق الإعلامي ـ والفئة القليلة المؤمنة تصارع الوثنية بجبروت أهلها وطغيانهم ـ الكشفَ عن حقيقة أولئك الشعراء وغوايتهم، وبيان أن من يتبعونهم هم الغاوون، فهم يستخدمون شعرهم ـ وللشعر ما له من تأثير، وله ما له من وزن عند العرب يومذاك ـ .. يستخدمونه في الضلال والإضلال، وحماية العبث والباطل، وأذية أهل الإيمان، وعلى رأسهم نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام. وأولئك الأتباع الأغمار في كثير من الأحيان يصفقون لهم، ويروِّجون ما أرادوه من محاربة الحق وعقيدة التوحيد من طريق الهجاء والافتراء،

وتزيين الجهالة والجاهلية: فشعراء الضلال يتبعهم الغاوون من الإنس والجن، ويروون شعرهم المناوىء للحق، بين الجهالة والجاهلية؛ فيشيعون ما يريده أهل الشرك من الباطل وإضعاف شوكة المسلمين، لأن الغاوي لا يتبع إلا غاوياً مثله.

ومما يجب التنبه إليه هذا التوجيه الرائع في تحري الحق، وإقامة الدليل على ما يُدَّعى عند طرح الفكرة أو تقديم الخبر وتحليله للناس؛ فبعد قوله سبحانه: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴿٢٢٤﴾﴾ جاء الاستدلال لهذه الدعوى وبيان أنها هي الحقيقة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ إن شعراء المشركين ومن على شاكلتهم يهيمون في كل واد، فليس هنالك ضوابط إيمانية ولا منهج أخلاقي؛ يذمّون اليوم من امتدحوه بالأمس، ويعرفون الحق ويحيدون عنه.. ناهيك عن الكذب والتزييف مظاهرةً للشرك والمشركين على الإيمان والمؤمنين. وفي الوقت نفسه تجدهم يقولون ما لا يفعلون، فقد يدعون إلى خصلة مستحبة ولكنهم لا يفعلونها، بل ترى الفعل يناقض القول.

ثم إن هاتين الآيتين ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ كما تقيمان الدليل على مضمون ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴿٢٢٤﴾﴾ تعطي درساً في أمانة الكلمة وما يدعيه صاحبها، وعدم إلقاء الكلام جزافاً دونما حجة تصدِّق الدعوى. ومن هنا كان لا بد من اليقظة لتصرف الإعلام المعادي وتبيُّن جوانبه، وإدراك مسالكه ومرتكزاته، مصحوباً ذلك بأن يكون المجتمع الإسلامي على منهج الصدق وتحري الحقيقة، بحيث تكون الكلمة الموزونة سلاحاً ماضياً في نصرة الحق، وقوة لا يستهان بها في مواجهة التحديات.

على أن في تنمية هذه المقومات عند العاملين: تكريماً للإنسان، وبعداً عن الاستهانة بعقله ومشاعره، وارتقاءً بالكلمة إلى مستوى الثقة والطمأنينة؛ فالآيات الكريمات كشفت بوضوح عن طبيعة السلاح المعادي في ميدان الإعلام، وقدمت الدليل الناصع البيِّن على الحقيقة التي طرقها. وذلكم قبس من هداية الكتاب العزيز في معالمه الخيِّرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

البناء الإعلامي ومواجهة التحديات في سورة الشعراء

« ٥ »

ترى هل كان الأمر في خواتم سورة الشعراء مقصوراً على ذم أولئك الشعراء الذين وضعوا الكلمة في غير موضعها، فظاهروا أهل الشرك على أهل الإيمان، واستهتروا بالأخلاق والقيم، فهم في كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون، وعلى ذم من يتبعونهم في صنيعهم ويتمرغون في أوحال الغواية، لأن الغاوي لا يتبع إلا غاوياً مثله ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

هل كل الأمر مقصوراً على ذلك؟ إن الجواب على هذا التساؤل يحمله الاستثناء الصريح في قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وإذن فالقضية ليست على إطلاقها، والشعراء الذين ذمهم القرآن وذم أتباعهم ومن يوالونهم، لم يقف الكتاب العزيز هذا الموقف منهم لأنهم شعراء وكفى، ولكن لأنهم ظلموا باستخدام شعرهم في مظاهرة الشرك على الإيمان وهجاء رسول الله والمؤمنين، وكانوا مستهترين بالقيم، غير عابئين بالأخلاق، وذلك ما يدل عليه مضمون الاستثناء المشار إليه ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

إن الشاعر المؤمن، الذي ينطلق فيما يقول من شعر: من أبعاد العقيدة الصحيحة ومنهجها، وديدنُه عمل الصالحات ـ ومنها استخدام شعره سلاحاً في معركة الصراع بين الحق والباطل، وذكر الله كثيراً، والانتصار من بعد الظلم ـ.. إن هذا الشاعر مستثنى من أولئك الذين قال الله فيهم ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

فالشعراء المؤمنون يحملون لواء الحق، فيتبعهم أنصار الحق، وينشرون شعرهم ويروجون أفكارهم التي وضعوها في خدمة الأمة وقضاياها، شأن أهل الاستقامة والهداية. أما أولئك فيتبعهم الغاوون.. وهم بوصفهم مؤمنين صادقين يعملون الصالحات، ومن عيون هذه الأعمال ـ كما أشرنا ـ أن يكونوا جنوداً للحق. يضعون الكلمة في الموضع الذي تمليه العقيدة، بعد أن يتحروا صدقها والأمانة فيها، فلا يخوضون مع الخائضين، ولا يلغون مع اللاغين، فهم دائماً على بصيرة وذكرٍ لله عز وجل، لا تنسيهم الكلمة من أعطاهم القدرة على الكلمة، ولا تجنح بهم لذائذ الدنيا وشهواتها ومراتبها عن اليقظة الإيمانية مراقبة لله عز وجل في تساوق بين السلوك المستقيم والغاية العظيمة. فهم حين يقولون ما يقولون، ينتصرون للعقيدة التي آمنوا بها ووذوا في سبيلها. إنهم على الحق والهدى في مواجهة الباطل والظلم ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ... مَا ظُلِمُوا﴾.

وفي تنبيه على الآثار السيئة التي يخلّفها الظلم في وضع الكلمة موضعاً لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون: جاء الوعيد على هذا الظلم الذي هو تجاوز الحق إلى الباطل تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

إن الكلمة المؤمنة ـ وهي ذوب القلب المؤمن، ولهفة المشاعر الصادقة: إنما تأخذ حياتها ووجودها العملي من الأمانة فيها، والإخلاص في أن تأخذ طريقها لنصرة الحق وأهله مهما غلا الثمن. وذلكم ما وجه اللهالمعلم القرآني وذلّلت طريقة إلى القلوب والعقول تلكم البصرة القرآنية في هذه السورة المباركة سورة الشعراء.



البناء والوعي.. والكلمة المسؤولة في الإعلام

«٦»

بناء الإنسان المسلم على العقيدة ووعي ما حوله، والإدراك التام لطبيعة الصراع بين الوثنية وعقابيلها الجاهلية وبين التوحيد.. هذا البناء كان مبكراً آذنت به الكلمات الأولى فيما أوحي به إلى محمد عليه الصلاة والسلام من قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ١ ــ ٥].

ونقول: كان مبكراً، لأن الإنسان هو الطاقة القادرة بإذن الله على البناء والإنماء. ومن أجل هذا الإنسان تبذل المساعي والجهود لبناء مجتمع سليم تتوافر له عناصر النماء في المرافق والميادين جميعها، كما يتوافر له ما يحقق العبودية الخالصة لله عز وجل.. وإهمال الإنسان عدوان على الغاية التي من أجلها يكون الكد والسعي واستكمال جوانب العمل والإنجاز.

ولا تعجب بعد هذا إذا رأيت القرآن الكريم ــ وهو يبني الإنسان المسلم ــ ينبه الفئة المؤمنة منذ العهد المكي إلى واحد من أسلحة المشركين، وهو الشعر الذي استخدمه شعراؤهم في معركة الصراع مع دعوة الحق ، ويكشف النقاب عن سقوط هؤلاء الشعراء وغوايتهم، وعن أن الغاوين هم الذين يتَّبعونهم ويروون شعرهم، ويروجونه سلاحاً يُهجى به رسول الله وترى التابعين والمتبوعين يحاولون قلب الحقائق والافتراء والتهوين من شأن القرآن الكريم لأن الغاوي لا يتبع إلا غاوياً مثله، ولم لا يُحكم على هؤلاء المتبعين بذلك؟! وهم يُدعون إلى الإسلام الذي فيه خيرهم وسعادتهم وإنقاذهم من الهلكة، كل ذلك بالحجة القاطعة والبرهان الساطع.

والذي يدعوهم إلى ذلك هو الصادق الأمين الذي ما عرفوا عنه إلا استقامة الخلق وكمال الأمانة والوفاء، وإذن فهم مسؤولون أيضاً، يتحملون تبعة انقيادهم الأعمى، وترويجهم ما يطرحه شعراء الشرك محاربة لله ولرسوله وللمؤمنين. والكلمة القرآنية وهي تبني الإنسان المؤهل لحمل الرسالة ومواجهة التحديات لم تدع أن تقيم الدليل على القضية المطروحة وهي سقوط شعراء الشرك وتهافتهم؛ فلم تقتصر الأمر في سورة الشعراء على قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ بل تلا ذلك الدليل الواضح على هذه الدعوى فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ وإنها للمحة من لمحات الإعجاز، قضية تطرح عن شعراء المشركين، مصحوبة بالدليل على ما ينطق به واقع هؤلاء الشعراء.

وفي الوقت نفسه يُبصَّر التابعون ورواة هذا الشعر الظالم المشرك: أن صنيعهم هذا من الغواية، بل هو الغواية عينها والعاقل من يتبصر ويعي.. وإذا كنا في دنيا الواقع اليوم نشكو من الكلمة التي تضلل الرأي العام في كثير من بقاع العالم ويصيب المسلمين من ذلك ما يصيبهم، فما أشد الحاجة إلى قراءة جديدة لهذا الجانب الإعلامي في منهج القرآن الكريم، حيث الكشف عن سلاح الكلمة عند العدو، والعمل على فلّه وتعطيله باللغة المناسبة، بالكلمة الصادقة، والدليل الناصع، بتبصير الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ بحقيقة ما عليه دعاة الغواية والشر.. على أن المعلم القرآني يقفنا على الوجه الآخر للموضوع حيث يستخدم الشعر سلاحاً بيد المؤمنين. ولنا عودة حلقة إلى ذلك إن شاء الله.



قضايا الأمة في البناء..
وقبس من الهدي النبوي في الإعلام
«٧»

قضايا الأمة المصيرية وما ـ أكثرها ـ يأخذ الإعلام أبعاداً مؤثرة فيما يحسن أو يسيء إليها، وإعلام الأعداء واليهود منهم بخاصة، وقل مثل ذلك فيمن يسير في فلكهم: قد أعدت له العُدة العلمية والفنية، ومع كل ساعة من ساعات الزمن نجني من أذاه وعدوانه الظاهر والمستتر الماكر الصاب والعلقم.. وهذا بعض مما يجب أن يحفز الأمة للعمل الجاد كي ترتقي بقدراتها ـ ومنها القدرة الإعلامية ـ إلى مستوى المواجهة في نطاق الإعداد لمعركة طويلة الأمد، متنوعة الميادين أقول: بعض مما يجب أن يحفز الأمة، لأن المفروض أن تنتهج الأمة طريق البناء والإعداد بذاتية وأصالة ومراعاة لما يجب أن يكون بوصفها أمة تحمل الرسالة الخاتمة للناس، لا أن تتحرك بردود فعل بعيدة عن المنهجية هنا وهناك.

وفي كلمات قريبة العهد ـ والحديث يدور حول الاستثناء الذي حملته بعض الآيات في سورة الشعراء وهي قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ ـ كانت الإشارة إلى الهدي النبوي في موقفه عليه الصلاة والسلام من الشعر وكان من أمضى الأسلحة البيانية الإعلامية في معركة المسلمين مع أعداء الله.

فالرسول ﷺ وهو يسهر على بناء الإنسان المسلم والمجتمع المسلم، ويُعد القوة المستطاعة في مواجهة من يريدون القضاء على دعوة الخير وأهلها.. الرسول ﷺ وهو يقود هذه الرحلة المباركة: نظر إلى ذلك السلاح البياني الإعلامي بواقعية

وموضوعية، ووجَّهه وجهة الخير ونصرة الحق، فهو يرضى عن الشعر الحسن في ميزان الحق والفضيلة. وقد رأينا أنه كان يحب سماعه ويستنشد من يحفظه، ولم يمنع أصحابه رضوان الله عليهم من ذلك، ولكنه ـ وعلى المحور نفسه ـ لا يرضى عن الشعر الذي يأخذ الاتجاه المضاد، وبيان ذلك في الواقعة التالية: فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج إذ عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله ﷺ: «**خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان، لأن يمتلىء جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً**» وواضح أن هذا الشاعر لم يكن يقول شيئاً يرضي الله.

وقد أورد المحدثون أبواباً للشعر ذكروا فيها ما ورد عن رسول الله ﷺ بياناً لما جاء في القرآن الكريم بشأنه ومن ذلك ما نجد عند الإمام البخاري؛ في قوله: باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه وقوله تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾**﴾ وقد يكون حظ أصحاب المواهب البيانية والإعلامية من هذا أكثر من غيرهم والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.



البناء والإعداد الإعلامي.. وتوجهات سورة الشعراء «٨»

مما أشرت إليه فيما أسلفت من القول: أن قول الله تعالى في سورة الشعراء ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ يحمل ــ والله أعلم ــ توجيه المنهج القرآني إلى العناية باستخدام الشعر والكلمة عموماً ــ من منطلق العقيدة ــ سلاحاً في مواجهة الباطل وأهله. وعلى هذا فالمسلم المؤهل لهذا مدعو إلى هذا الأمر، وفي المقابل: مطلوب أن تيسَّر له السبل المعنوية والمادية.

والحق أنه ما دام الصراع بين الحق والباطل قائماً، وما دام أعداء هذه الأمة سادرين في غيهم، لا يدعون باباً من الشر والأذى إلا ولجوه في محاربتها والعمل على إضعافها والحيلولة دونها ودون أن تستعيد وجودها الذاتي في الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع، فتكون هي ــ بإذن الله ــ صانعة القرار فيما تريد.. الحق أنه ما دام الأمر كذلك؛ فإن إعداد القوة بكل أنواعها، والاستعداد لبناء الكفايات في كل الميادين ــ ومنها ميدان الكلمة خصوصاً على ساحة الإعلام ــ كل أولئك بعض مما يهدي إليه المنهج الرباني في تلكم الآيات من سورة الشعراء. لأن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ عام في دلالته، حيث ارتبطت القضية بالإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيراً وانتصار أولئك الشعراء بعد ما ظلموا.. وهذا العموم لا يمنعه سبب مخصوص يتعلق ببعض الشعراء المسلمين يومذاك.

وفي سيرة النبي ﷺ وهي التطبيق العملي لمنهج الكتاب العزيز، ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام نظر إلى الشعر بموضوعية بالغة، فذم منه ما يستحق الذم، وامتدح ما يستحق المديح، وعمل على استخدامه سلاحاً في معركة الصراع مع الشرك وأهله حين وجه الشعراء المسلمين إلى ذلك وقاموا بواجبهم خير قيام، وهذا يشعر بأنه لا يكفي أن يوجد صاحب الكلمة التي يراد لها أن تقاتل في سبيل الله وتسهم في وضع الأمور في نصابها خدمة للحق ودرءاً لتحديات الباطل، بل لا بد من أن يفسح لهذه الكلمة كي تقال، ليعطى صاحبها في ضوء العقيدة وما يمليه المنهج الرباني حرية أن يقول.

والآيات الكريمات جلّت هذه النقطة أعظم تجلية: فالشعراء المستثنون توافر لهم الإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيراً، وهم في وقفاتهم ينتصرون لعقيدتهم التي ظلموا وأوذوا من أجلها، وفي سبيل الله، وفي الوقت نفسه لم يحل حائل دونهم ودون أن يقولوا في الكفر وأهله، وفي الذبّ عن العقيدة وأهلها ما يجب أن يقال ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أما أولئك الذين مرّغوا شرف الكلمة في التراب، ونزلوا بمكانة الشعر إلى الحضيض فوضعوه في خدمة الكفر والطغيان. فإنهم ظالمون ينتظرهم المصير الملائم لظلمهم. ولقد كان الوعيد بالغاً عندما تُرك المنقلب بلا تحديد كي يذهب الذهن فيه كل مذهب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وفي نقلة إلى الواقع أليست عملية التغيير التي ينشدها المخلصون بأمس الحاجة إلى الأخذ بالهداية التي يطرحها هذا المعلم القرآني والتي تبدو غضّة طريّة كأن آياتها تتحرّك اليوم؟!.



الإعلام والتحدي..
البناء في آيات سورة الشعراء.. والهدي النبوي
«٩»

آيات سورة الشعراء التي استترنا بهداها في كلمات قريبات وهي قوله تعالى بدءاً من الآية الرابعة والعشرين بعد المائتين ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

هذه الآيات البينات كانت محور الهدي النبوي في إعطاء كل جزئية من جزيئات هذه القضية على الصعيد العملي ما تستحق، فكان تصرف النبي ﷺ الصورة التطبيقية لما رسمه القرآن الكريم.

وقد ألمحت من قريب، إلى أن رسولنا الكريم نظر إلى الشعر بموضوعية بالغة، فامتدح منه ما يستحق المديح، وذم ما كان على العكس من ذلك، ووجه شعراء الإسلام إلى وضع شعرهم في خدمة المعركة التي تدور رحاها بين الإيمان والكفر، ويسَّر لهم السبيل إلى ذلك؛ فقد روى البخاري وأبو داود عن أبي بن كعب قال: إن النبي ﷺ قال: «**إن من الشعر حكمة**» وفي رواية للترمذي «**إنّ من الشعر حُكماً**» وأخرج أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فجعل يتكلم بكلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً**». وقد ثبت أنه كان يستنشد الشعر الحسن ممن كانوا يحفظونه، ويحب أن يسمعه.

وقد أخرج مسلم عن عمرو بن الشريد الثقفي عن أبيه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**» قلت: نعم قال: «**هيه**»، ثم أنشدته بيتاً فقال: «**هيه**»، حتى أنشدته مائة بيت.. وفي رواية قال: استنشدني رسول الله ﷺ ـ أي طلب أن أنشده ـ وذكر مثله.

وهيه، ـ وفي رواية إيه ـ هي كلمة للاستزادة من الحديث المعهود، فالرسول ﷺ يستزيد رديفه الشريد الثقفي من شعر أمية بن أبي الصلت حتى أنشده مائة بيت.

وامتداداً لذلك: كان لا يمنع أصحابه من أن يتناشدوا الشعر من هذا المنطلق فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «**جالست النبي ﷺ أكثر من مئة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، فربما تبسَّم معهم**» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وإلى أن نلتقي على مزيد من السنة بياناً للآيات الكريمة أود أن أشير إلى أن هذه الوقائع في الهدي النبوي: جديرة بأن تحفِّز أصحاب المواهب البيانية إلى تنميتها واستخدامها في ميادين الصلاح والإصلاح، وتدفع صُنَّاع القرار إلى المعاونة بمنهجية في ذلك وما من ريب في أن تكامل البناء في شخصية المسلم: يقتضي أن لا تهمل موهبة البيان ـ بل تنمى في ضوء العقيدة والخلق كي تكون سلاحاً ومصدر عطاء في مواجهة التحدي. وما أكثر التحديات.. وسيعلم المفترون الظالمون أيَّ منقلب ينقلبون.



المواجهة والبناء.. والوجهة العملية في الهدي النبوي

«١٠»

أشرت ـ فيما سبق ـ إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أخذ الوجهة العملية في استخدام الشعر سلاحاً على طريق مواجهة الكفار وتحدياتهم، وذلك في بيان فعلي لما جاء في الآيات الكريمات من سورة الشعراء وهي قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

وقبل الإتيان على بعض الوقائع في هذا الجانب الإعلامي من حياة الدعوة: أود أن أشير إلى أن الأمر في العهد المدني، كان أكثر وضوحاً حيث كان هنالك شعراء للإسلام ينافرون الأعداء ويصدعون بكلمة الحق. أما في العهد المكي: فكانت البداءة حيث تحوّل نفر من شعراء المشركين إلى، الإيمان، وامتدحوا الإسلام ورسول الله ﷺ بعد الذي كان منهم من التكذيب والهجاء، وقد رأينا من أمثلة ذلك صنيعَ عبد الله بن الزبعرى، وأبي سفيان الحارث بن عبد المطلب، بعد أن أكرمهما الله بالدين الحنيف فاستبدلوا الكلمة الصادقة بكلمة الكفر والهجاء والافتراء. وفي عود على بدء: ها هي ذي وقائع عملية تأخذ دورها على ساحة الصراع في العهد المدني، ويمارس رسول الله بنفسه ترغيب الشعراء المسلمين وتشجيعهم على الوقفة الصادقة المجاهدة في وجه الكفر والطغيان، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسّان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن رسول الله ﷺ، أو ينافح، ويقول ﷺ: **«إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله»**.

وفي رواية لأبي داود يضع لحسان منبراً في المسجد: فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله ﷺ وقال رسول الله: «**روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله**» وأخرجه الترمذي بنحو الرواية الأولى.

وهذه واقعة شاعرها عبد الله بن رواحة. فقد أخرج الترمذي والنسائي عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟! فقال ﷺ: «**خلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل**» ونضح النبل بالنبل: وهي السهام العربية.

وإن لدرس يحمل البيان العملي التطبيقي لما وجهت إليه سورة الشعراء، وحسبك أن الرسول ﷺ، لم يشغله ما هو فيه من شؤون الدعوة ومتعلقاتها عن أن ينتهج هذا النهج الذي اعتبره من أسلحة المواجهة، ويهدي إلى تنمية هذه الموهبة البيانية ـ موهبة الشعر ـ وحسن استخدامها في ميدان من أعز ميادين الأمة وأغلاها، وهو صراعها مع الكفر والباطل، وهي تحمل راية الحق والخير لبني الإنسان، وترفع قواعد الحضارة المثلى في ظرف، كانت تبدو دعوة الحق فيها وهي أشبه بالجزيرة المضيئة في أبحرٍ من الظلمات.



خواتم سورة الشعراء.. ونظرة أخرى في البناء

«١١»

وقفنا المعلم القرآني ـ ونحن ننظر في خواتم سورة الشعراء ـ على ضرورة التنبه لما يستخدم العدو من سلاح إعلامي في معركة الصراع بين الكفر والإيمان، والحق والباطل كما وقفنا على أن الآيات الكريمات تهدي المسلمين إلى استخدام الشعر والكلمة البيانية عموماً في تلك المعركة، وذلك ما وجّه إليه رسول الله ﷺ شعراء المسلمين.

فالآيات المشار إليها وهي قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾. تطرح قضية كبرى ذات علاقة بالصراع الدائر بين أهل الإيمان وأهل الشرك، وتأخذ بيد المسلمين إلى المنهجية واستنفاد الأسباب التي تؤدي ـ بإذن الله ـ إلى النصر، وما يمكن أن يستخدم لذلك من أسلحة ومنها سلاح البيان والإعلام، هذا بجانب التقويم الصحيح لأولئك الذين وضعوا الكلمة في غير موضعها، واتخذوا منها سلاحاً وجهوه إلى الحق وأهله..

من هنا تبدو تلك الآيات، وهي وثيقة الاتصال بالواقع وإن كانت قد تنزلت على سبب مخصوص في العهد المكي وقبل أربعة عشر قرناً من الزمان، لأنها في حقيقة الأمر تقعِّد قواعد عامة في إطار المنهج الذي على المسلمين أن يطبقوه في مواجهة التحديات.

والصور العملية التي رأيناها في سيرة النبي ﷺ تؤكد وتوضح هذا الذي نقول؛ فشعراء الصحابة في مواجهة الأعداء والمحاولة الجادة في فلِّ سلاحهم الإعلامي: كانوا على الاستقامة التي دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ ورائع حقاً ما يُرى من ثقة الرسول ﷺ بما يصنع في وضع الكلمة المؤمنة يطلقها الشاعر المسلم: سلاحاً في وجه الشرك والطغيان فهو يقول ﷺ: «**خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل**».

وتراه عليه الصلاة والسلام يقيم ارتباطاً متيناً بين موقف الشاعر يذود عن الحق، وبين العقيدة. وذلك ما يجب مراعاته عند تكوين شخصية المسلم، كي ينمو عنده هذا الارتباط الذي ينشىء الحوافز ويدفع إلى الإقدام فقد روى البخاري ومسلم عن البراء ابن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «**أهج المشركين، فإن جبريل معك**» وفي رواية: «**أهجهم أوهاجهم وجبريل معك**».

أرأيت إلى هذا التأييد الإلهي لشاعر مسلم ينقضّ على المشركين؟!! وهذا التأييد كائن ما توافر الإيمان، وصدقت النية.

والهدي النبوي في بيان الكتاب العزيز لا يغفل ما يجب أن يكون من الوعي والدقة عند من يقف ليواجه بالبيان والإعلام، كما تدل الواقعة التالية: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن حسان بن ثابت رسول الله ﷺ في هجاء المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «**فكيف سبي**؟ فقال حسان: لأسلنّك منهم كما تسل الشعرة من العجين.

وسبحان من يوفق من يشاء لما يشاء.



البناء.. ونفي الشعر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «١٢»

ما رأيناه في خواتم سورة الشعراء، يقودنا إلى قضية أخرى قد يحسب البعض أنها تتنافى مع رضا الرسول الكريم عن الشعر الحسن، واستثناء من يحفظه، ليسمع هو عليه الصلاة والسلام، ثم استخدام الشعر سلاحاً إعلامياً في المعركة التي أوقد المشركون وأعداء الله عموماً نارها في مواجهة الفئة المؤمنة التي تزاول عملية البناء الكبرى بأمانة ووعي للمسؤولية.

تلك القضية هي نفي القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ أن يكون شاعراً، كما كان يحلو لبعض المشركين أن يقولوا ذلك فيه، تحويلاً للأنظار عن القرآن الكريم وإعجازه، وأنه موحىً به من عند الله عز وجل. وأين كلام الشاعر مهما أوتي من قوة العارضة وجمال التعبير من كلام الله المعجز الذي تحدى العرب ــ وهم أهل الفصاحة والبلاغة ــ من أول يوم، فعجزوا عن أن يأتوا بشيء من مثله؟!.

وإذن: فلا تعارض بين القضيتين؛ أن يستخدم الشعر سلاحاً ماضياً على ساحة الصراع بين الشرك والتوحيد: شيء، وأن يتكرر توكيد أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو وحي أوحاه الله إليه بواسطة جبريل عليه السلام: شيء آخر.

ولقد أتى القرآن على زعم المشركين بأن رسول الله ﷺ شاعر في أكثر من موطن. ففي سورة الأنبياء نقرأ بدءاً من الآية الخامسة قول الله تعالى بشأن هذه الفرية: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾

ويستثير القرآن عقولهم ليتعلموا ولا يخبطوا خبط عشواء فيقول تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ وفي سورة الصافات نقرأ بدءاً من الآية السادسة والثلاثين: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ ويجيء الرد الحاسم بقوله جل شأنه: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ ونجد في سورة الطور ما يزيد الأمر وضوحاً ذلكم قول الله جلت حكمته بدءاً من الآية التاسعة والعشرين ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

إنها فرية كانوا يعلمون أنها فرية وزعم باطل، لأن سمو بلاغة القرآن لم يكن يخفى عليهم ولكنه العناد الجاهلي! ثم أين سلوك الشاعر ـ بوصفه شاعراً ـ يومذاك من أخلاق الرسول ﷺ الموحى إليه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولذلك جاء القول في هذه القضية الجذرية كما نجد في الآية التاسعة والستين من سورة يس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ هكذا على الحصر: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ فما جاء به الرسول ﷺ ليس شعراً، ولكن ذكر وقرآن مبين. ولننظر في آيات من سورة الحاقة تبدأ من الآية الثامنة والثلاثين ذلكم قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

إن عطاء الكلمة القرآنية في إيضاح هذه الحقيقة، وأن ما جاءبه رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام وحيٌ من عند الله عز وجل، وليس شعراً أو كلاماً من عنده: قد يبدو أمراً بسيطاً للمؤمن ـ بوصفه مؤمناً ـ ولكنه في الواقع حجر الزاوية في بناء الجيل ـ ذكوراً وإناثاً ـ وتثقيفهم الثقافة الأصيلة التي تزيد المؤمن إيماناً،

وتشعره أنه يقف على اليابسة بوجود ذاتي أصيل وهو يسهم في إدارة حركة الحياة. الأمر الذي يحول دونه ودون اختلاط الأمور والتباس المفهومات والمصطلحات، وبذلك يظل قويَّ النُّسخ بهذا العطاء الإيماني المعرفي، صحيح الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، قادراً ـ بعون الله ـ على الإسهام في تحقيق عبودية الله في الأرض على مختلف الأصعدة، وبناء الصرح المأمول لحضارة يرتضيها دين الحق والعدالة والوعي الشامل، وهو الإسلام، والحمد لله الذي هدانا لهذا الخير الصحيح وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



المحتويات

الموضوع	الصفحة

